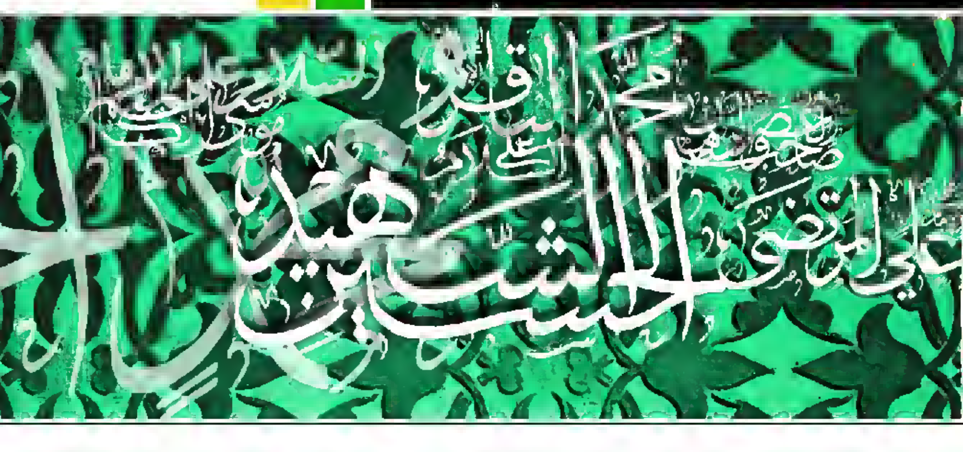
الحياة السياسية لأئمة أهل البيت عليهم السلام









الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

الحياة السياسية لأئمة أهل البيت عليهم السلام

جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام
هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ ـ ص.ب. ٢٤/٥٣ . ٢٥/٣٢٧



الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

الكتاب :الحياة السياسية لأئمة أهل البيت عليهم السلام

إعداد :مركز نون للتأليف و الترجمة

نشر: جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة

الطبعة الخامسة تشرين الثاني 2008م-1429هـ

الحياة السياسية

لأئمة أهل البيت عليهم السلام

مركز نون للتأليف والترجمة

الإعداد والإخراج الالكتروني

www.almaaref.org

بسم الله الرحمن الرحیم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب يُبحر في سيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام بالاستفادة من مصادرها، ملتمساً في تفاصيلها الملامح السياسية لسيرتهم العطرة في محاولة لرسم معالم حركتهم السياسية في حياة الأمة الإسلامية.

لما لهذا الأمر من أهمية على صعيد فهم خط الإمامة، على المستوى النظري من جهة وعلى المستوى العملي من جهة أخرى، وذلك للاستضاءة بهذا الفهم في مواجهة الواقع الراهن خصوصاً والأحداث في ما نستقبل من أيام وتحولات.

ولقد أبحر اليراع في خضم هذا اليم المبارك لحياة أئمة الهدى عليهم السلام استكمالاً للرحلة التي بدأها في السلسلة التي أنتجتها جمعية المعارف الإسلامية الثقافية مترقياً في كل إنتاج إلى مستوى جديد يراعي تطور الدارسين وارتقائهم إلى مراحل جديدة في الدراسة للمعارف الإسلامية وعلى العادة والتزاماً بالعهد الذي قطعناه على أنفسنا أمام الله والأمة في الجمعية نستكمل عملية تشييد البناء التدريسي للعلوم والمعارف الإسلامية الأصيلة بإضافة هذا الكتاب الذي جاء ملائماً لأهداف العملية التعليمية مصاغاً على شكل دروس تراعي هذا الهدف في الشكل والمضمون علنا نوفق بفضل الله إلى إكمال ما بدأناه حيث لا غنى عن عونه تعالى فعليه نتوكل وإليه نيب.



1

منهجية دراسة حياة الأئمة عليهم السلام

درج المؤرخون لسيرة الأئمة من أهل البيت عليهم السلام على أن يستعرضوا حياتهم من خلال منهجين:

الأول: المنهج التحريفي:

وقد تأثر هذا المنهج في تناول تاريخ أهل البيت عليهم السلام بصبغة الإنحراف والتشويه المتعمد وهذا ما درج عليه أغلب مؤلفي كتب التاريخ العام، كابن العربي، وابن حزم الأندلسي، وابن تيمية، وغيرهم، وهؤلاء كانوا غالباً على اتصال وثيق بالسلطان، أو أنهم من المؤيدين لوضع سياسي يتعارض مع مضمون أطروحة أهل البيت عليهم السلام لذا نرى أن ابن حزم يعتبر «قاتل الإمام علي عليه السلام مجتهداً متأولاً وقد ضربه بالسيف في الصلاة وبمحراب مسجد الكوفة»[1]، وأما «قتلة عثمان (رض) فإنه لا مجال للإجتهاد في قتله، بل هم فسّاق محاربون سافكون دماً حراماً عمداً بلا تأويل على سبيل الظلم والعدوان فهم فساق ملعونون»[2].

وفي صواعق ابن حجر الهيثمي يقول «إن من اعتقاد أهل السنة والجماعة أن معاوية(رض) لم يكن في أيام علي خليفة، وإنما كان من الملوك وغاية اجتهاده أنه كان له أجر واحد على اجتهاده»[3].

فهؤلاء اتبعوا منهجاً تحريفياً، في دراسة حياتهم عليهم السلام فعدّوا الأئمة من أهل البيت عليهم السلام في قائمة القادة السياسيين التقليديين الذين يحترفون العمل السياسي لتحقيق مطالب شخصية أو عائلية أو حزبية، ويبعدوا عنهم الصفة الرسالية التي تطبع

(1) ابن حزم، المحلى، ج10، ص484.
(2) الفصل لابن حزم، ج4، ص161.
(3) الصواعق، لابن حجر الهيثمي، ص216.

حياتهم، ولذا فقد اعتاد هذا البعض من المؤرخين أن يصنفوا الأعمال الإجتماعية والسياسية والفكرية التي اضطلع الأئمة بأعبائها حسب حالات الضعف أو القوة والصلابة أو المرونة وعلو الهمة أو ضعفها في شخص أي إمام دون سواه، هكذا كما ينظرون إلى القادة الآخرين، ومن هنا فقد صار الإمام علي عليه السلام «يفتقد إلى مزايا الزعامة السياسية من بعد نظر، ويقظة وحنكة وحزم»، ومعاوية في نظرهم «قد أوتي قسطاً وافراً من الحنكة واللباقة السياسية وبعد النظر»[1] وجعلوا مواقف الإمام الحسن عليه السلام من معاوية وإبرام الصلح بينهما، من علامات الوهن والضعف في شخصيته أو عدم تمرسه في المسائل الحياتية الكبرى[*]، في حين يعدّ الحسين عليه السلام في عرف هؤلاء ذا شخصية تتّسم بالصلابة وعلوّ الهمة، وقريباً من ذلك تفسر كافة المواقف الرسالية التي وقفها أئمة أهل البيت عليهم السلام فلا تعدو أن تكون أساليبهم عليهم السلام عبر حياتهم العملية سلسلة من الإنتصارات أو الإخفاقات السياسية التي تكتنف حياة أي سياسي آخر سواهم تبعاً لعوامل ذاتية وموضوعية.

الثاني: المنهج التجزيئي:

اعتماد عامل التجزئة في دراسة حياة الأئمة عليهم السلام، وهذا المنهج في دراسة «تاريخ خط الإمامة» وإن كان ضرورياً لدراسة كل إمام بصورة مستقلة، وكان يمتاز بسلامة القصد غالباً، إلا أنه يعرض حياة الأئمة كما لو كانت متباينة ومتناقضة، فالحسن عليه السلام يهادن معاوية والحسين عليه السلام يتخذ الثورة موقفاً من الحكم الأموي، والسجاد يمارس الدعاء ليس إلاّ، بينما اتسمت حياة الباقر عليه السلام بالحديث والفقه و...الخ...

---

(1) صانعوا التاريخ العربي، د. فيليب حتي، ص63ـ69.

(*) يقول أحمد عباس صالح في كتابه اليمين واليسار في الإسلام، ص142، «والأغرب من هذا أن الإمام الحسن عليه السلام لم يقف الوقفة التي كانت مرجوة منه، ومهما قيل في تبرير ضعفه أو تبرير تسليمه الثورة لمعاوية، فإنه يعتبر خالف رسالة أبيه، ولم يتمها». ويقول في الحسين عليه السلام: «وكان الحسين مختلفاً عن الحسن، فقد كان فيه من طبع أبيه الشيء الكثير، ولم يوافق الحسين على شيء مما أجراه أخوه، وكان يجادله ويعنف في جدله». ويقول الدكتور في كتابه ـ الحركات السرية في الإسلام ـ ص66 «وبعد موت عليّ التفّ الشيعة حول ابنه الحسن الذي آثر العافية، فتنازل عن حقه راضياً، حاسماً للفتنة. وبعد موت الحسن التفّ الشيعة حول أخيه الحسين الذي طالب بالخلافة منكراً على بني أمية إياها ملكاً موروثاً» ومثل هذا يقول الدكتور صبحي الصالح في كتابه النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، ص266.

ولئن كانت خطورة المنهج السابق تتجلى في فصل الأئمة عن خطهم الرسالي الملتزم، فإن خطورة المنهج اللاحق تتسم في عدم التصدي لاكتشاف العامل المشترك الذي يوحّد بين أساليب الأئمة وجهودهم منبعاً ومصباً، ودراستهم كوحدة مترابطة الأجزاء، يواصل كل جزء في تلك الوحدة دور الجزء الآخر ويكمله..

المنهج المعتمد: (المنهج الترابطي)

ولذلك فإن منهجنا ـ لأجل أن ندرك دور الأئمة عليهم السلام في الحياة الإسلامية والعامل المشترك الذي يوحد بين مجهوداتهم في العمل الاجتماعي ـ سوف ينصب على «دراسة حياة كل إمام وتاريخه على أساس النظرة الكلية بدلاً من النظرة التجزيئية، أي النظر إلى الأئمة عليهم السلام ككل مترابط، ودرس هذا الكل وكشف ملامحه العامة وأهدافه المشتركة ومزاجه الأصيل، وفهم الترابط بين خطواته، وبالتالي الدور الذي مارسه الأئمة عليهم السلام جميعاً في الحياة الإسلامية، بحيث يشكل الأئمة عليهم السلام بمجموعهم وحدة مترابطة الأجزاء يواصل كل جزء في تلك الوحدة دور الجزء الآخر ويكمله..

يقول الإمام القائد قدس سره: «**على الرغم من الإختلاف الظاهري بين سيرهم عليهم السلام (حتى أن البعض ليشعر بالإختلاف الشاسع والتناقض فيها)، إلاً أنها عبارة عن مسيرة واحدة وحياة واحدة استمرت 250 سنة ابتداءً من سنة 11 هـ.ق. إلى 260 هـ. ق. أي انتهت بانتهاء عام الغيبة الصغرى للإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف.**

إذن فالأئمة عليهم السلام جميعهم عبارة عن شخصية واحدة لها هدف واحد، ولذلك فإننا وبدل أن ندرس حياة كل من الإمام الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام بصورة منفصلة عن الأخرى، أو حتى لا نقع في خطأ ما اعتقده الآخرون بوجود عنصر التناقض بين حياتهم عليهم السلام، فلندرس ذلك بصورة شمولية، فمن هذا المنظار تصبح كل حركات هذا الإنسان العظيم المعصوم تكون قابلة للفهم والإدراك»[1] .

(1) الدروس العظيمة من سيرة أهل البيت عليهم السلام، ص144.

نتائج المنهج الترابطي:

ولا نريد بهذا أن لا ندرس حياة الأئمة عليهم السلام على أساس النظرة الجزئية، دراسة كل إمام بصورة مستقلة، بل إن هذه الدراسة الجزئية نفسها ضرورية لإنجاز دراسة شاملة كاملة ملائمة ككل، إذ لا بد لنا أولاً أن ندرس الأئمة بصورة مجزئة تستوعب إلى أوسع مدى ممكن حياة كل إمام، بكل ما تزخر به من ملامح وأهداف ونشاط، حتى نتمكن بعد هذا أن ندرسه ككل ونستخلص الدور المشترك للأئمة عليهم السلام جميعاً، وما يعبرون عنه من ملامح وأهداف وترابط.

وحينما نحاول اكتشاف الخصائص العامة والدور المشترك للأئمة عليهم السلام ككل فسوف تزول كل التناقضات والإختلافات، لأنها تبدو على هذا المستوى مجرد تعابير مختلفة عن حقيقة واحدة، وإنما اختلف التعبير عنها وفقاً لاختلاف الظروف والملابسات التي مرّ بها كل إمام وعاشتها القضية الإسلامية في عصره، عن الظروف والملابسات التي مرّت بها الرسالة في عهد إمام آخر.

ويمكننا عن طريق دراسة الأئمة عليهم السلام على أساس النظرة الكلية أن نخرج بنتائج أزخر من مجموع النتائج التي تتمخض عنها الدراسات الجزئية، لأننا سوف نكشف الترابط بين أعمالهم، وسوف نتخذ مثالاً لتوضيح الفكرة.

فنحن نقرأ في حياة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، أنه جمع الصحابة في خلافته واستشهدهم على نصوص الإمامة، وشهد بذلك عدد كبير من التابعين، وطلب منهم أن يحدثوا بنصوص النبي صلى الله عليه وآله في علي وأهل البيت عليهم السلام، ونقرأ في حياة الإمام الباقر عليه السلام أنه قام بنفس العملية واستشهد التابعين وتابعي التابعين.

وحين ندرس الأئمة ككل ونربط بين هذه النشاطات بعضها ببعض ونلاحظ أن العمليات وضعت على مدى ثلاثة أجيال، نجد أنفسنا أمام تخطيط مترابط يكمل بعضه بعضاً، ويستهدف الحفاظ على تواتر النصوص عبر أجيال عديدة حتى تصبح في مستوى الوضوح والإشتهار، تتحدى كل مؤامرات الإخفاء والتحديد.

وفي عقيدتنا إن وجود دور مشترك مارسه الأئمة جميعاً ليس مجرد افتراض، نبحث عن مبرراته التاريخية، وإنما هو مما تفرضه العقيدة نفسها وفكرة الإمامة بالذات، لأن

الإمامة واحدة في الجميع بمسؤولياتها وشروطها، فيجب أن تنعكس انعكاساً واحداً في سلوك الأئمة وأدوارهم مهما اختلفت ألوانها الظاهرية بسبب الظروف والملابسات[1].

فتباين أساليب العمل عند الأئمة ـ كما قدّمنا ـ لا تعني أموراً مزاجية أو مصلحية، تخضع لأهوائهم ومشتهياتهم، وإنما هي تعبير عن الأخذ بشروط الحكمة في ما تمنحه لهم الفرص الموضوعية (الزمكانية) والاستعداد للقيام بهذا العمل أو ذاك... ولهذا نرى أن الأسلوب المفضل لدعوة الأئمة عليهم السلام في أبعادها (الزمكانية) تكون معقولة ومجدية في وقت معين ومفرغة من جدواها ومعناها في ظرف آخر، لأن هناك ظروفاً وملابسات تفرض أشكالاً مغايرة ومتنوعة في التنسيق والوعي العملي للتغيير.

ومن هنا أهمية الدراسة الشمولية لدور الأئمة في الحياة الإسلامية، والتي من شأنها إبراز المكانة الحقيقية لدورهم العظيم في الحياة الإسلامية، ومدى انسجام وتفاعل أسلوب كل إمام مع الآخر، تلك الأساليب التي تتواجد من خلال ظروف موضوعية، يحتاجها العمل التغييري الآني مشروطاً ببيئته الزمانية والمكانية.

ولا بد لنا ونحن ندرس تاريخ الأئمة عليهم السلام أن نعتمد النصوص التاريخية الصحيحة في التعرف على خصائص عملهم عليهم السلام وخصائص المراحل التاريخية التي مروا بها، حذراً من الانجرار وراء الفكر المذهبي المسبق، ومحاولة فرضه على تاريخهم كطريقة لإعطاء تاريخهم الصبغة الشرعية والمقدسة أو منح أساليبهم التي مارسوها صفة الإستيعاب والشمول لكل ما كان ويكون من أساليب العمل والتخطيط... وتلك طريقة يبدو لنا أنها تسيء إلى تاريخهم أكثر مما تحسن إليه...

فلذا سوف يكون التاريخ الصحيح دليلنا ومرشدنا في محاولتنا لفهم تاريخ حركتهم عليهم السلام.

(1) يراجع مقال «دور الأئمة في الحياة الإسلامية» للسيد محمد باقر الصدر. دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، للأمين، الجزء الثاني ـ ص94.



أسئلة حول الدرس

1 ـ ما المقصود بالمنهج التحريفي في دراسة سيرة الأئمة عليهم السلام؟

2 ـ ما هي إشكالية المنهج التجزيئي في دراسة السيرة؟

3 ـ حدد المنهج الأمثل لدراسة سيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام؟

2

ملامح الدور المشترك لأئمة أهل البيت عليهم السلام

قلنا في الدرس الماضي: أن وجود دور مشترك مارسه الأئمة عليهم السلام جميعاً، ليس مجرد افتراض نبحث عن مبرراته التاريخية، وإنما هو مما تفرضه العقيدة نفسها وفكرة الإمامة بالذات، لأن الإمامة واحدة في الجميع بمسئولياتها وشروطها، فيجب أن تنعكس انعكاساً واحداً في شروط الأئمة عليهم السلام وأدوارهم مهما اختلفت أدوارها الطارئة بسبب الظروف والملابسات، ويجب أن يشكل الأئمة بمجموعهم وحدة مترابطة الأجزاء، ليواصل كل جزء من تلك الوحدة الدور للجزء الآخر ويكمله.

فما هو الدور المشترك للأئمة عليهم السلام؟

هذا هو السؤال الذي يفرض نفسه هنا، وقد لا نحتاج إلى كثير من البحث لكي نتفق بسرعة على نوعية الدور المشترك الذي أسند للأئمة عليهم السلام في تخطيط الرسالة.

«فكلنا يعلم أن الرسالة الإسلامية، بوصفها رسالة عقائدية، قد خططت لحماية نفسها من الإنحراف، وضمان نجاح التجربة خلال تطبيقها على مر الزمن، فأوكل أمر صيانة التجربة وتحويلها وتوجيهها سياسياً إلى الأئمة عليهم السلام بوصفهم أشخاصاً عقائديين، بلغوا في مستواهم العقائدي درجة العصمة من الإنحراف والزلل والخطأ، غير أننا حينما نحاول أن نحدد الدور المشترك الذي مارسه الأئمة عليهم السلام ككل في تاريخهم المجيد، لا نعني هذا الدور الخيالي من تزعم التجربة الإسلامية، لأننا نعلم أن الأحداث المؤلمة وقعت بعد وفاة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وأقصي الأئمة عن القيام بدورهم القيادي في تزعم التجربة، وسلمت مقاليد الرسالة ومسؤولية تطبيقها إلى أشخاص آخرين، انحرف معهم التخطيط واشتد الإنحراف على مر الزمن، وإنما نريد بالدور

المشترك من تاريخ الأئمة عليهم السلام، الموقف العام الذي وقفوه في خضم الأحداث والمشاكل التي اكتنفت الرسالة بعد انحراف التجربة وإقصائهم عن مناصبهم.

وهنا نجد تصوراً شائعاً لدى كثيرين من الناس، الذين احتاجوا أن يقيموا الأئمة بوصفهم أناساً مظلومين فقط قد أقصوا عن مركز القيادة، وذاقوا بسبب ذلك ألوان الإضطهاد والحرمان، فهؤلاء الناس يعتقدون، أن دور الأئمة في حياتهم، كان دوراً سلبياً على الأغلب، نتيجة لإقصائهم عن مجال الحكم، فحالهم حال من يملك دارا فيغصب منه، وينحصر أمله في إمكان استرجاعها، وهذا التفكير بالرغم من أنه خاطئ، فإنه يعتبر خطأً من الناحية العملية وأنه يحبب إلى الإنسان السلبية والإنكماش والإبتعاد عن مشاكل الأمة ومجالاتها وقيادتها، ولهذا لا بد من أن نثبت خطأ ذلك التفكير، وندرس حياة الأئمة على أساس نظرة كلية لتتبين إيجابيتهم الرسالية على طول الخط، ودورهم المشترك الفعال في حفظ الرسالة وحمايتها»[1].

ويمكن أن نستخلص أهم الأدوار المشتركة التي مارسها الأئمة عليهم السلام في الحياة الإسلامية بثلاثة أدوار أساسية:

الأول: «الحفاظ على الرسالة الإسلامية ومصالح الأمة وتحصينها ضد الإنحراف عن مبادئها وقيمها، والخروج بالإسلام على مستوى النظرية سليماً من الإنحراف والتشويه.

فالأئمة عليهم السلام بالرغم من إقصائهم عن مجال الحكم، كانوا يتحملون باستمرار مسئوليتهم والحفاظ على الرسالة وعلى التجربة الإسلامية وتحصينها ضد التردي إلى الهاوية، هاوية الإنحراف والإنزلاق عن مبادئها وقيمها. فكلما كان الإنحراف يقوى ويشتد، وينذر بخطر التردي إلى الهاوية، كان الأئمة عليهم السلام يتخذون التدابير اللازمة ضد ذلك، وكلما وقع في التجربة الإسلامية والعقيدة من المحنة والمشكلة، وعجزت الزعامات المنحرفة من علاجها بحكم عدم كفاءتها، بادر الأئمة عليهم السلام إلى تقويم الحل، ووقاية الأمة من الأخطار التي كانت تهددها.

بكلمة مختصرة: كان الأئمة عليهم السلام يحافظون على المقياس العقائدي والرسالي في

---

(1) أهل البيت عليهم السلام، تنوع أدوار ووحدة هدف، ص143.

المجتمع الإسلامي، ويحافظون على أن لا يحبط إلى درجة تشكل خطراً ماحقاً، وهذا يعطي ممارستهم جميعاً دوراً إيجابياً فعالاً في حماية العقيدة، وتبني مصالح الرسالة والأمة، وتمثل هذا الدور الإيجابي:

في إيقاف الحاكم عن المزيد من الإنحراف كما عبر الإمام عليه السلام حين صعد عمر بن الخطاب المنبر، وتساءل عن ردّ الفعل لو صرف الناس عما يعرفون إلى ما ينكرون، فرد عليه الإمام عليه السلام بكل وضوح وصراحة: «**إذن لقومناك بسيوفنا**».

وتمثل في إيقاف الزعامة المنحرفة إذ أصبحت تشكل خطراً ماحقاً ولو عن طريق الإصطدام المسلح، والشهادة في سبيل كشف زيفها وسلب تخطيطها كما صنع الإمام الحسين عليه السلام مع يزيد.

وتمثل أيضاً في مجابهة المشاكل التي تهدد كرامة الدولة الإسلامية، وتعجز الزعامات المنحرفة عن حلها، كما في المشكلة التي أشار إليها ملك الروم، إلى عبد الملك بن مروان، إذ عجز عبد الملك عن الجواب، فبادر الإمام السجاد عليه السلام وأجاب بالشكل الذي يحفظ للدولة كرامتها وللأمة الإسلامية هيبتها.

وتمثل أيضاً، في إنقاذ الدولة الإسلامية من تحدي الكافرين الذين هددوا سيادتها، كالذي واجهه هشام من الروم وعجز عن الرد عليه، فكان الإمام الباقر عليه السلام في مستوى الرد على هذا التحدي فخطط للإستقلال النقدي.

وتمثل الدور الإيجابي في تلك المعارضة العميقة التي كان الأئمة عليهم السلام يواجهون بها الزعامات المنحرفة بإرادة سليمة لا تلين، وقوة نفسية صامدة لا تتزعزع.

فإذن هذه المعارضة، بالرغم من أنها اتخذت مظهراً سلبياً بدلاً عن مظهر الإصطدام الإيجابي، والمقابلة المسلحة، غير أن المعارضة حتى بصيغتها السلبية كانت عملاً إيجابياً عظيماً في حماية الإسلام والحفاظ على مثله وقيمه، لأن انحراف الزعامات القائمة، كان يعكس الوجه المشوه للرسالة، فكان لا بد للقادة من أهل البيت عليهم السلام، أن يعكسوا الوجه النقي والمشرق والمشرّف لها، وأن يؤكدوا عملياً بالإستمرار المطابق بين الرسالة والحكم والواقع، وهكذا خرج الإسلام على مستوى النظرية سليماً من الإنحراف، وإن تشوهت معالم التطبيق.

ويمكننا أن نؤكد بهذا الصدد مثالاً جزئياً، ولكنه يعبر عن مدى الجهود التي بذلها الأئمة عليهم السلام في سبيل الحصول على هذا المكسب، مكسب خروج الإسلام على المستوى النظري سليماً من الإنحراف، تصوروا أن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قد هد السجن صحته، وأذاب جسمه، حتى أصبح حين يسجد لربه كالثوب المطروح على وجه الأرض، فيدخل عليه رسول الزعامة المنحرفة فيقول له: إن الخليفة يعتذر إليك، وسيأمر بإطلاق سراحك، على أن تزوره وتعتذر إليه وتطلب رضاه، فيشمخ الإمام عليه السلام ويجيب بالنفي بكل صراحة، يتحمل مرارة الكأس لا لشيء إلا لكي لا يحقق للزعامة المنحرفة هدفها من أن يبارك خطها، فتنعكس معالم التشويه من التطبيق المنحرف على الرسالة نفسها.

وتمثل الدور الإيجابي بالأئمة عليهم السلام، في تحويل الأمة العقائدية بشخصيتها الرسالية والفكرية من ناحية... ومقاومة التيارات الفكرية التي تشكل خطراً على الرسالة وضربها في بدايات تكونها من ناحية أخرى...

والإمام عليه السلام في علمه المحيط المستوعب، بما يجعله قادراً على الإحساس بهذه البدايات الخطرة، وتقديراً لأهميتها ومضاعفاتها والتخطيط للقضاء عليها، وقد يمكن أن يفسر على هذا الضوء، اهتمام الإمام العسكري عليه السلام وهو في المدينة بمشروع كتاب يضعه الكندي وهو في العراق، حول متناقضات القرآن إذ اتصل به عن طريق بعض المنتسبين إلى مدرسته، وأحبط محاولته، وأقنع مدرسة الكندي بأنها على خطأ»[1].

علاقة الأئمة عليهم السلام بالأمة:

«الإيجابية تنكشف أيضاً في علاقات الأئمة بالأمة. في الواقع إن حياة الأئمة، ذاكرة كلها للشواهد الإيجابية، فإن من الدور المشترك الذي كانوا يمارسونه عليهم السلام، هو علاقاتهم بالأمة والزعامة الجماهيرية الواسعة النطاق، الذي كان إمام أهل البيت يتمتع بها على طول الخط، فإن هذه الزعامة لم يكن أمام أهل البيت أن يحصلوا عليها صدفة، أو على أساس مجرد الإنتماء إلى الرسول صلى الله عليه وآله بل على أساس العطاء للدور الإيجابي الذي يمارسه الإمام في الأمة، بالرغم من إقصائه عن منصب الحكم. فإن الأمة لا تمنح على الأغلب

(1) أهل البيت عليهم السلام، تنوع أدوار ووحدة هدف، ص144ـ145.

الزعامة مجاناً، ولا يملك الفرد قيادتها وميل قلوبها من دون عطاء سخي منه تستنصره الأمة في مختلف عباداتها، وتستفيد منه في حل مشكلاتها والحفاظ على رسالتها، إن تلك الزعامة الواسعة التي كانت نتيجة لإيجابية الأئمة عليهم السلام في الحياة الإسلامية، هي التي جعلت علي بن أبي طالب عليه السلام المثل الأعلى للثوار الذين قضوا على عثمان بن عفان وهي التي كانت تتمثل بمختلف العلاقات التي عاشها الأئمة عليهم السلام مع الأمة.

انظروا إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام كيف يقول لهارون الرشيد: أنت إمام الأجسام وأنا إمام القلوب، انظروا إلى عبد الله بن الحسن، حين أراد أن يأخذ البيعة لابنه محمد، كيف يقول للإمام الصادق عليه السلام مرتبكاً: إنك إذا أجبت لم يختلف عن ابني أحد من أصحابك ولم يختلف عليه اثنان من قريش ولا من غيرهم، ولاحظوا مدى ثقة الأمة بقيادة أئمة أهل البيت عليهم السلام نتيجة لما يعيشونه من دور إيجابي من حماية الإسلام ومصالح الأمة، لاحظوا المناسبة الشهيرة التي أنشد فيها الفرزدق قصيدته في الإمام السجاد عليه السلام، كيف أن هيبة الحكم وجلال السلطان لم يستطيعا أن يشقا لهشام طريقاً لاستلام الحجر بين الجموع المحتشدة من أفراد الأمة في موسم الحج، بينما استطاعت زعامة أهل البيت عليهم السلام، أن تكهرب تلك الجماهير في لحظة، وهي تحس بمقدم الإمام القائد، فتشق الطريق بين يديه نحو الحجر، ولاحظوا قصة الهجوم الشيعي الهائل الذي تعرض له قصر المأمون، نتيجة لإغضاب الإمام الرضا عليه السلام، فلم يكن مناص من الإلتجاء إلى الإمام لحمايته من غضب الأمة، وقال له الإمام عليه السلام: «**اتق الله في أمة محمد صلى الله عليه وآله وما ولي لك من هذا الأمر وخصك به، إنك قد ضيعت أمور المسلمين، وتعرضت في ذلك إلى غيرك ليحكم بغير حكم الله سبحانه وتعالى**».

إن كل هذه النماذج والمظاهر للزعامة الشيعية التي عاشها أئمة أهل البيت عليهم السلام على طول الخط تبرهن على إيجابيتهم، وشعور الأمة بدورهم الفعال في حماية الرسالة.

الإيجابية تنكشف في علاقات الأئمة بالحكام أيضاً ويمكننا أن نتطرق لزاوية جديدة، لنصل إلى نفس هذه النتيجة من زاوية علاقات الزعامات المنحرفة من أمام أهل البيت عليهم السلام على طول الخط، فإن هذه العلاقات كانت تقوم على أساس الخوف الشديد من نشاط الأئمة عليهم السلام، ودورهم في الحياة الإسلامية، حتى يصل الخوف لدى

الزعامات المنحرفة أحياناً إلى درجة الرعب، وكان محصول ذلك الإستمرار بتطويق إمام ذلك الوقت ووضع رقابة محكمة عليه، ومحاولة فصله عن قواعده الشعبية، ثم التآمر على حياته ووفاته شهيداً، بقصد التخلص من خطره، فهل كان من الصدفة أو لمجرد تسلية أن تتخذ الزعامات المنحرفة كل هذه الإجراءات تجاه أئمة أهل البيت عليهم السلام، بالرغم من أنها تكلفها ثمناً باهظاً من سمعتها وكرامتها، أو كان ذلك نتيجة شعور الحكام المنحرفين، بخطورة الدور الإيجابي الذي يمارسه الأئمة عليهم السلام؟ وإلا فلماذا كان هذا القتل والتشريد والسجن والتبعيد؟»[1].

الثاني: «رعاية الشيعة. بوصفهم الكتلة المؤمنة بالإمام عليه السلام، والإشراف عليها بوصفها المجموعة المرتبطة به والتخطيط لسلوكها وحمايتها،وتنمية وعيها، وإسعافها بكل الأساليب التي تساعد على صمودها في خضم المحن، وارتفاعها إلى مستوى الحاجة الإصلاحية، إلى جيش عقائدي وطبقة واعية، ولدينا عدد كبير من الشواهد في حياة الأئمة عليهم السلام على أنهم كانوا يباشرون نشاطاً واسعاً في سبيل الإشراف على الكتلة المرتبطة بهم والمؤمنة بإمامتهم حتى أن الإشراف كان يصل أحياناً إلى درجة تنظيم أساليب الحل للخلافات الشخصية بين أفراد الكتلة، ورصد الأموال لها، كما يحدّث بذلك المعلى بن خنيس، عن الإمام الصادق عليه السلام.

وعلى هذا الأساس، يمكننا أن نفهم عدداً من النصوص عن الأئمة عليهم السلام، بوصفها تعليم أساليب الجماعة التي يشرفون على سلوكها، وقد تختلف هذه الأساليب باختلاف ظروف الشيعة والملابسات التي يمرون بها»[2].

الثالث: «العمل على إقامة الحكومة الإسلامية وإعداد جيش عقائدي يؤمن بالإمام وعصمته إيماناً مطلقاً ويعيش أهدافه الكبيرة ويدعم تخطيطه في مجال الحكم ويحرس ما يحققه للأمة من مصالح».

يقول الإمام القائد قدس سره: «**من أجل أن نفهم طبيعة المسيرة العامة لحياة الأئمة**[1]، **علينا أولاً أن نتبين فلسفة الإمامة. التيار الذي عرف في مدرسة أهل البيت عليهم السلام باسم**

(1) أهل البيت عليهم السلام، تنوع أدوار ووحدة هدف، ص146 ـ 147.

(2) المصدر، ص148.

الإمامة، والذي تتكون عناصره الأصلية من أحد عشر شخصاً توالوا خلال قرنين ونصف القرن تقريباً، إنما هو في الواقع امتداد للنبوة.

فالنبي يبعثه الله بمنهج جديد للحياة، وبعقيدة جديدة، وبمشروع جديد للعلاقات البشرية، وبرسالة إلى الإنسانية. ويطوي حياته في جهاد مستمر، وجهد متواصل، ليؤدي مهمة الرسالة الملقاة على عاتقه قدر ما يسمح له عمره المحدود.

وعملية الدعوة يجب أن تستمر بعده؛ كي تبلغ الرسالة أعلى الدرجات المتوخاة في تحقيق الأهداف. ويجب أن يحمل أعباء المواصلة من هو أقرب الناس إلى صاحب الرسالة في جميع الأبعاد؛ كي يبلغ بالأمانة إلى محطة آمنة وقاعدة رصينة ثابتة مستمرة.

هؤلاء هم الأئمة وأوصياء النبي. وكل الأنبياء العظام وأصحاب الرسالات كان لهم أوصياء وخلفاء. ومن أجل أن نعرف مهمة الإمام، لا بد أن نعرف مهمة النبي. والمهمة يبيّنها القرآن الكريم إذ يقول: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾[2].

هذه إحدى الآيات التي تبين علّة النبوة، وتبين من جهة أخرى مهمة الأنبياء. فالأنبياء بعثوا لبناء مجتمع جديد، ولاقتلاع جذور الفساد، ولإعلان ثورة على جاهلية زمانهم وقلب مجتمعاتهم. وعملية التغيير هذه يعبّر عنها الإمام علي عليه السلام في مطلع استلام مهام حكومته بقوله: «... حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم...»[3].

إنها عملية صناعة مجتمع على أساس التوحيد والعدل الإجتماعي وتكريم الإنسان، وتحريره، وتحقيق المساواة الحقوقية والقانونية بين المجموعات والأفراد، ورفض الإستغلال والإستبداد والإحتكار، وإفساح المجال للطاقات والكفاءات الإنسانية، وتشجيع التعلّم والتعليم والفكر والتفكير.. إنها عملية إقامة مجتمع تنمو فيه كل عوامل سموّ الإنسان في جميع الأبعاد الأساسية، ويندفع الكائن البشري فيه باتجاه مسيرته التكاملية على ساحة التاريخ.

---

(1) من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله حتى وفاة الإمام الحسن العسكري عليه السلام.

(2) سورة الحديد، آية/25.

(3) نهج البلاغة خطبة 16، لما بويع في المدينة، وفيها يخبر الناس بعلمه بما تؤول إليه أحوالهم.

هذه هي المهمة التي بعث الله الأنبياء من أجلها. ونستنتج من ذلك أن الإمامة باعتبارها امتداداً لمهام النبوة، تتحمل نفس هذه الأعباء لو أن رسول الله ﷺ عاش ٢٥٠ عاماً، فماذا كان يفعل يا ترى؟ وكيف كان يتحرك على طريق الدعوة. نفس هذه العملية نهض بها الأئمة. هدف الإمامة هو نفسه هدف النبوة، والطريق هو الطريق، أي إيجاد مجتمع إسلامي عادل، والسعي لصيانة مسيرته الصحيحة.

مقتضيات الزمان مختلفة طبعاً، وبنفس النسبة يختلف التكتيك والأسلوب. والنبي ﷺ نفسه كان يعمل في بداية الدعوة بأسلوب يختلف عن أسلوبه حين قطع شوطاً من الطريق نحو تحقيق هدفه المنشود.

حين كانت الدعوة في بداية الطريق، وكانت محفوفة بألوان التهديدات والتحديات تطلّب الأمر تدبيراً خاصاً لمواصلة حمل الرسالة، وحين ترسّخت قواعد النظام الإسلامي، وضرب الإسلام ببحرانه في الجزيرة العربية اختلف التدبير والأسلوب... والثابت والباقي هو الهدف الأسمى الذي أنزلت الرسالة من أجله.. وهو السعي لإيجاد مجتمع يستطيع الإنسان فيه أن يطوي مسيرته التكاملية في جميع الأبعاد، وأن تنفجر فيه الطاقات الخيرة والقوى الكامنة الإنسانية، ومن ثم صيانة هذا المجتمع ونظامه الإسلامي.

كان أئمة الشيعة يتجهون. كالنبي. نحو الهدف نفسه، نحو إقامة نظام عادل إسلامي بنفس الخصائص وعلى نفس المسير. وفي حالة قيام هذا النظام تتجه الجهود نحو صيانة مسيرته واستمرارها.

ما الذي تتطلبه إقامة نظام اجتماعي أو مواصلة مسيرة هذا النظام؟ تتطلب أولاً أيديولوجية موجّهة وهادية ينبثق عنها ذلك النظام وتصوغه بصياغتها. ثم ثانياً إلى قوة تنفيذية تستطيع أن تشق الطريق وسط الصعاب والمشاكل والعقبات نحو تحقيق الهدف. نعرف أن إيديولوجية الأئمة هي الإسلام. والإسلام رسالة البشرية الخالدة. رسالة تحمل في مضمونها عناصر بقائها وخلودها[1].

(١) من تلك الخصائص تشريع وفق المتطلبات الأساسية، والمرونة التي تسمح باستقطاب العناصر العلمية والمنطقية من كل مكان ومن كل نوع. (مع الاحتفاظ بالإتجاه المبدئي للرسالة وبشرط الإنسجام مع نظرة الرسالة إلى الكون والحياة).

وبملاحظة هذه الأمور نستطيع أن نفهم المنهج العام لأئمة أهل البيت وأوصياء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

هذا المنهج ذو جانبين متلازمين: الأول يرتبط بالعقيدة، والثاني بتوفير القدرة التنفيذية والإجتماعية. ففي الجانب الأول: تتجه جهودهم وهممهم إلى نشر مفاهيم الرسالة وبلورتها وترسيخها، والكشف عن الإنحرافات التي تصدر عن المغرضين والمنحرفين، وبيان الأطروحة الإسلامية لما يستجد من أمور، وإحياء ما اندثر من معالم الرسالة بسبب اصطدامها مع مصالح ذوي القدرة والنفوذ، وتوضيح ما خفي على الأذهان العادية من كتاب الله العزيز وسنة نبيه... فمهمة الجانب الأول تتلخص إذن بصيانة الرسالة الإسلامية حيّة بنّاءة متحركة على مرّ الأجيال.

وفي الجانب الثاني: كانوا يسعون، وفقاً لما تقتضيه الظروف السياسية والإجتماعية والعالية في المجتمع الإسلامي، إلى إعداد المقدمات اللازمة لاستلام زمام قيادة الحكم في المجتمع بأنفسهم بشكل عاجل، أو التمهيد لكي يستلمها على المدى البعيد من يواصل مسيرتهم في المستقبل.

هذا موجز هدف حياة الأئمة الأطهار، وهذه هي الخطوط العامة لأهدافهم. من أجلها عاشوا، ومن أجلها استشهدوا.

وإذا كان ما وصلنا من تاريخ حياة الأئمة لا يثبت ما ذهبنا إليه، فإن عقيدتنا في الأئمة كافية لأن تصوّر حياتهم بهذا المنظار لا غير، فما بالك إذا كان التاريخ يشهد بما يقنع كل باحث أن حياة أئمة آل البيت كانت في هذا الإتجاه»[1]؟.

ويقول دام ظله: «إن مواجهة الأئمة عليهم السلام كانت مواجهة ذات هدف سياسي. فما هو هذا الهدف إذن؟ الهدف هو عبارة عن تشكيل حكومة إسلامية، وبحسب تعبيرنا حكومة علوية. فكان سعي الأئمة عليهم السلام ومنذ وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وحتى عام ٢٦٠ هـ. هو هدف إيجاد وتأسيس حكومة إلهية في المجتمع. ولا نستطيع أن نقول إن كلّ إمام كان بصدد تأسيس حكومة في زمانه وعصره، ولكن هدف كل إمام كان يتضمن تأسيس حكومة إسلامية

---

(1) الدروس العظيمة، ص22ـ26.

مستقبلية وقد يكون المستقبل البعيد أو القريب. مثلاً كان هدف الإمام المجتبى عليه السلام تأسيس حكومة إسلامية لمستقبل قريب، فقوله عليه السلام: «ما ندري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين» في جوابه للمسيب ابن نجية ولآخرين عندما سألوه عن سبب سكوته هو خير دليل وإشارة إلى هذا المستقبل. وأما الإمام السجاد عليه السلام، وحسب اعتقادي، كان يهدف لتأسيس الحكومة الإسلامية في المستقبل الآتي من بعده وفي هذا المجال لدينا شواهد سنذكرها فيما بعد. أما الإمام الباقر عليه السلام فقد سعى من أجل تأسيس حكومة لمستقبل قريب منه، وفيما بعد الإمام الثامن عليه السلام كان كل إمام يهدف من تحركاته تأسيس الحكومة على المدى البعيد.

إذن هدف تأسيس الحكومة كان دائماً نصب أعين الأئمة عليهم السلام، لكن الزمن المنشود لتأسيسها وقيامها يختلف من إمام إلى آخر. إن كل الأعمال التي كان يقوم بها الأئمة عليهم السلام، بغض النظر عن الأمور المعنوية والروحية التي تهدف إلى تكامل ورقي النفس الإنسانية وقربها إلى الله تعالى، كانت أعمالاً تهدف إلى تأسيس هذه الحكومة الإسلامية. فنشاطاتهم في نشر العلم والمناظرات التي كانوا يقومون بها ضد خصومهم في العلم والسياسة ومواقفهم إلى جانب جماعة ووقوفهم في وجه أخرى كلها تصب في هذا المجال ألا وهو تأسيس الحكومة الإسلامية. إذن فنحن ندعي أن كل هذه الأمور كانت تأخذ منحى واحداً وتهدف إلى تأسيس الحكومة الإسلامية. وأقول ندعي لأنه وكما قال السيد الطبسي، قد اختلف العلماء وسيختلفون في تفسيرهم لمواقف الأئمة عليهم السلام. وأنا شخصياً لا أصرّ على صحة اعتقادي واستنباطي للأمور ولكن أصرّ على أن هذه المواقف هي محطة يجب أن نتوقف عندها ونبدأ منها لنستطيع أن نراجع حياة الأئمة عليهم السلام»[1].

ويقول قدس سره: «فمنذ بداية النصف الثاني من القرن الأول الهجري وحيث تحولت الخلافة الإسلامية بشكل واضح وفاضح إلى سلطنة بكل معنى الكلمة في جميع الجوانب وتبدلت الحكومة (أمانة الله) إلى حكومة متسلطة ملكية كانت المواجهة السياسية لأهل البيت عليهم السلام تشتد وتتطور بأسلوب يتناسب مع الأوضاع والظروف المستجدة.

(1) الدروس العظيمة، ص146ـ 147.

وهذه المواجهة كان هدفها الأساسي تشكيل النظام الإسلامي وبناء الحكومة على أساس مبدأ الإمامة، ومن دون شك كان أيضاً تبيين وشرح الدين من منظار أهل بيت الوحي، ورفع الشبهات ومواجهة الإنحرافات، ونشر المعارف والأحكام الإسلامية، من جملة الأهداف المهمة لجهاد أهل البيت عليهم السلام.

لكن بعد الإطلاع على حركة أهل البيت نرى قرائن لا تقبل الشك تدل على أن جهاد أهل البيت عليهم السلام لم يكن محدوداً وناظراً فقط لتحقيق هذه الأمور. بل نرى أن الهدف الأسمى لذلك الجهاد لم يكن إلا تشكيل الحكومة العلوية وبناء النظام الإسلامي العادل. فكل المصاعب والآلام والمرارات والتضحيات في حياة الأئمة وأصحابهم كانت في سبيل هذا الهدف. والأئمة، بدءاً من زمان الإمام الجواد عليه السلام، أي بعد حادثة عاشوراء، وصولاً إلى آخرهم، كانوا ينهضون لأجل تهيئة الأرضية اللازمة لتصبح على المدى البعيد مستعدة لتحقيق هذا الهدف (الحكومة العلوية). فعلى مدى الفترة الممتدة من حادثة عاشوراء إلى استلام الإمام الثامن عليه السلام ولاية العهد (١٤٠ سنة) كانت نشاطات أئمة أهل البيت والأحداث المتعلقة بهم دائماً من أخطر ما تواجهه أنظمة الخلافة المتعاقبة من خطر يهدد كيانها، وفي هذه المدة (١٤٠ سنة) تهيأت عدة فرص للتعبير عن أن جهاد التشيع ونضاله والذي يجب أن يطلق عليها اسم الثورة العلوية، اقتربت من تحقيق انتصارات كبرى. لكن في كل مرة كانت تظهر موانع وعوائق تقف في طريق تحقيق الإنتصار النهائي (إقامة الحكومة العلوية) بحيث أنه غالباً ما كانت تتلقى هذه الحركات ضربات قاسية ومميتة وذلك من خلال الحصار والهجوم على المحور الأساسي والأصلي للثورة والذي يمثل شخص الإمام المعصوم عليه السلام.

فالإمام المعصوم عليه السلام في كل زمان غالباً ما كان يحاصر ويزجّ به في السجن أو يقتل. وعندما يصل الدور إلى الإمام الذي يليه، كان يواجه جواً شديد القمع مليئاً بالضغوطات والصعوبات إلى حد أنه كان يحتاج إلى فترة طويلة لتهيئة الأرضية من جديد»[1].

(1) الدروس العظيمة، ص185 ـ 187.



أسئلة حول الدرس

1 ـ حدد معالم الدور المشترك الذي عمل لأجله أئمتنا عليهم السلام؟

2 ـ كيف يمكننا فهم أولوية رعاية الشيعة وحفظهم في سيرة الأئمة عليهم السلام؟

3 ـ ما هو الهدف النهائي الذي يعبّر عنه مشروع كل إمام من الأئمة عليهم السلام؟

3

موقف الرسول من مستقبل الدعوة

نحاول أن نعالج في هذا المبحث مسألة هامة وحساسة، سبق وأن اختلف المسلمون في فهمها، وأعني بها مسألة خلافة النبي ومستقبل الدعوة الإسلامية وقيادتها من بعده.

وهذا المبحث هو بمثابة مدخل ضروري لفهم الظروف والملابسات الإجتماعية والسياسية التي عاشها علي عليه السلام وأئمة أهل البيت عليهم السلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله.

إن الموقف النبوي[1] الذي يعالجه هذا البحث بالإمكان استخلاصه والوصول إليه بالإستنتاج المنطقي للدعوة التي كان الرسول الأعظم يتزعم قيادتها بحكم طبيعة تكونها ونوع الظروف التي عاشها.

من المعروف أن النبي صلى الله عليه وآله لم يفاجئه الموت مفاجأة، وكان يدرك منذ فترة قبل وفاته أن أجله قد دنا وقد أعلن عن ذلك بوضوح في حجة الوداع، وهذا يعني أنه كان يملك فرصة كافية للتفكير في مستقبل الإسلام بعده، هذا إذا لم ندخل في الموقف (النصوص التشريعية) أو عامل الإتصال الغيبي والتخطيط الإلهي المباشر للرسالة عن طريق الوحي، هذا التخطيط الذي حدد بوضوح الخلفاء بعد النبي صلى الله عليه وآله.

وفي هذا الضوء يمكننا أن نلاحظ أن النبي صلى الله عليه وآله كان أمامه ثلاثة طرق بالإمكان انتهاجها تجاه مستقبل الدعوة:

---

(1) اعتمدنا في هذا المبحث (موقف الرسول من مستقبل الدعوة) بتصرف ما جاء في كتاب بحث في الولاية لسماحة السيد محمد باقر الصدر مع اختصار وإغفال لبعض الشواهد التاريخية، لضيق المجال فنحيل القارئ إليها.

الطريق الأول:

أن يقف من مستقبل الدعوة موقفاً سلبياً ويكتفي بممارسة دوره في قيادة الدعوة وتوجيهها فترة حياته ويترك مستقبلها للظروف والصدف.

وهذه السلبية لا يمكن افتراضها في النبي صلى الله عليه وآله لأنها إنما تنشأ من أحد أمرين كلاهما لا ينطبقان عليه صلى الله عليه وآله :

الأمر الأول:

الإعتقاد بأن هذه السلبية والإهمال لا تؤثر على مستقبل الدعوة، وأن الأمة التي سوف يخلف الدعوة فيها قادرة على التصرف بالشكل الذي يحمي الدعوة ويضمن عدم الإنحراف.

وهذا الإعتقاد لا مبرر له من الواقع إطلاقاً بل إن طبيعة الأشياء كانت تدل على خلافه لأن الدعوة بحكم كونها عملاً تغييرياً انقلابياً في بدايته، يستهدف بناء أمة واستئصال كل جذور الجاهلية منها تتعرض لأكبر الأخطار إذا خلت الساحة من قائدها وتركها دون أي تخطيط:

أ ـ فهناك الأخطار التي تنبع عن طبيعة مواجهة الفراغ دون أي تخطيط سابق، مما يدفع الأمة إلى اتخاذ موقف مرتجل في ظل الصدمة العظيمة بفقد النبي صلى الله عليه وآله وهي لا تملك أي مفهوم مسبق بهذا الصدد.

ب ـ وهناك الأخطار التي تنجم عن عدم النضج الرسالي بدرجة تضمن للنبي مسبقاً موضوعية التصرف الذي سوف يقع، وانسجامه مع الإطار الرسالي للدعوة وتغلبه على التناقضات الكامنة التي كانت لا تزال تعيش في زوايا من نفوس المسلمين على أساس الإنقسام إلى مهاجرين وأنصار أو قريش وسائر العرب أو مكة والمدينة.

ج ـ وهناك الأخطار التي تنشأ نتيجة لوجود القطاع المتستر بالإسلام المنافقون والذي كان يكيد للدعوة في حياة النبي باستمرار. وإذا أضفنا إليهم عدداً كبيراً ممن أسلم بعد الفتح استسلاماً للأمر الواقع لا انفتاحاً على الحقيقة،نستطيع أن نقدر الخطر الذي يمكن لهذه العناصر أن تولده وهي تجد فجأة فرصة لنشاط واسع في فراغ كبير مع خلو الساحة من رعاية القائد.

هذا بالإضافة إلى الأخطار الخارجية على الدعوة من القوى والدول القريبة والبعيدة.

فلم تكن إذن خطورة الموقف بعد وفاة النبي شيئاً خافياً على النبي ﷺ .. ولذا رأينا الرسول ﷺ لما حضرته الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال: «**ائتوني بالكتف والدواة أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً**».

وإذا كان أبو بكر لم يشأ أن يترك الساحة دون أن يتدخل تدخلاً إيجابياً في ضمان مستقبل الحكم بحجة الإحتياط للأمر، وإذا كان الناس قد هرعوا إلى عمر حين ضرب قائلين يا أمير المؤمنين لو عهدت عهداً[1] خوفاً من الفراغ الذي سوف يخلفه، بالرغم من التركيز السياسي والإجتماعي الذي كانت الأمة قد بلغته بعد عقد من وفاة الرسول ﷺ . وإذا كان عمر قد أوصى إلى ستة تجاوباً مع شعور الآخرين بالخطر وأبو بكر نفسه يعتذر عن تسرعه إلى قبول الحكم، وعمر يقول عن بيعة أبي بكر «كانت فلتة غير أن الله وقى شرها»[2].

إذا كان كل ذلك، فمن البديهي إذن أن يكون رائد الدعوة ونبيها أكثر شعوراً بخطر السلبية وأكبر إدراكاً وأعمق فهماً لطبيعة الموقف ومتطلبات العمل التغييري الذي يمارسه في أمة حديثة عهد بالجاهلية على حد تعبير أبي بكر.

والأمر الثاني:

الذي يمكن أن يفسر سلبية القائد اتجاه مستقبل الدعوة ومصيرها بعد وفاته، أنه بالرغم من شعوره بخطر هذه السلبية لا يحاول تحصين الدعوة ضد ذلك الخطر لأنه ينظر إلى الدعوة نظرة مصلحية فلا يهمه إلا أن يحافظ عليها ما دام حياً ليستفيد منها ويستمتع بمكاسبها ولا يعنى بحماية مستقبلها بعد وفاته.

وهذا التفسير لا يمكن أن يصدق على النبي ﷺ حتى إذا لم نلاحظ بوصفه نبياً ومرتبطاً بالله، وافترضناه قائداً رسالياً كقادة الرسالات الأخرى، تاريخ القادة الرساليين لا يملك نظيراً للقائد الرسول في إخلاصه وتفانيه للدعوة وتضحيته من أجلها إلى آخر

(1) تاريخ الطبري ج5، ص34.

(2) تاريخ الطبري ج3، ص200 ـ وشرح النهج لابن أبي الحديد ج6، ص42.

لحظة من حياته وهو على فراش الموت، وهو يحمل همّ معركة كان قد خطط لها وجهز جيش أسامة لخوضها[1]، فإذا كان اهتمام الرسول ﷺ بقضية من قضايا الدعوة العسكرية يبلغ إلى هذه الدرجة وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة فكيف يمكن أن نتصور أن النبي ﷺ لا يعيش هموم مستقبل الدعوة ولا يخطط لسلامتها بعد وفاته من الأخطار المرتقبة.

فالقائد الأعظم كان أبعد ما يكون عن فرضية الموقف السلبي تجاه مستقبل الدعوة. وهو ﷺ لما حضرته الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال ﷺ: «**ائتوني بالكتف والدواة أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً**»[2].

فإن هذه المحاولة من القائد الكريم المتفق على نقلها وصحتها تدل بكل وضوح على أنه كان يفكر في أخطار المستقبل ويدرك بعمق ضرورة التخطيط لتحصين الأمة من الإنحراف وحماية الدعوة من التميع والإنهيار.

الطريق الثاني:

أن يخطط الرسول القائد لمستقبل الدعوة بعد وفاته ويتخذ موقفاً إيجابياً فيجعل القيمومة على الدعوة وقيادة التجربة للأمة ممثلة على أساس نظام الشورى في جيلها العقائدي الأول والذي سيكون قاعدة للحكم ومحوراً لقيادة الدعوة في خط نموها.

وهذا الافتراض أيضاً مرفوض للأسباب التالية:

1 ـ لو كان النبي ﷺ قد اتخذ من مستقبل الدعوة بعده موقفاً إيجابياً يستهدف وضع نظام الشورى موضع التطبيق بعد وفاته وإسناد زعامة الدعوة إلى القيادة التي تنبثق عن هذا النظام، لكان من أبده الأشياء التي يتطلبها هذا الموقف أن يقوم الرسول بعملية توعية الأمة على نظام الشورى وحدوده وتفاصيله، وإعطائه طابعاً دينياً مقدساً وإعداد المجتمع الإسلامي إعداداً فكرياً وروحياً لتقبل هذا النظام، وخصوصاً أن المجتمع آنذاك

(1) راجع الكامل لابن الأثير وغيره.

(2) وهو حديث أجمعت السنة والشيعة على نقله، راجع مسند أحمد ج1، ص355 ـ وصحيح مسلم ج2 - وصحيح البخاري، ج1.

كان يعيش وضع زعامات قبلية وعشائرية تتحكم فيها القوة والثروة وعامل الوراثة إلى حدّ كبير.

ونستطيع بسهولة أن ندرك أن النبي ﷺ لم يمارس عملية التوعية على نظام الشورى وتفاصيله التشريعية، ولو أن هذه العملية كانت قد أنجزت، لكان من الطبيعي أن تنعكس وتتجسد في أحاديثه المأثورة، وفي ذهنية الأمة أو على أقل تقدير في ذهنية الجيل الطليعي منها بوصفه المكلف بتطبيق نظام الشورى.

ونتأكد من ذلك، موقف لأبي بكر حينما اشتدت به العلة عهد إلى عمر بن الخطاب عندما أمر عثمان أن يكتب عهده وكتب: «أما بعد وفاتي فإني قد استعملت عليكم عمر ابن الخطاب فاسمعوا وأطيعوا» ودخل عليه عبد الرحمن بن عوف فقال كيف أصبحت يا خليفة رسول الله، فقال «أصبحت مولياً وقد زدتموني على ما بي إذ رأيتموني استعملت رجلاً منكم فكلكم قد أصبح ورماً أنفه وكل يطلبها لنفسه»[1].

وواضح كم هذا الإستخلاف وهذا الاستنكار للمعارضين أن الخليفة لم يكن يفكر بعقلية نظام الشورى وأنه كان يرى من حقه تعيين الخليفة وفرضه على المسلمين، وهكذا كان عمر هو الآخر يرى من حقه فرض الخليفة على المسلمين، دون أن يجعل لسائر المسلمين دور حقيقي في الإنتخاب.

إن الطريقة التي مارسها الخليفة الأول والثاني للإستخلاف وعدم استنكار المسلمين لتلك الطريقة والروح العامة التي سادت على منطق المتنافسين على الخلافة يوم السقيفة، وإعلان أبي بكر الذي فاز بالخلافة في ذلك اليوم عن أسفه لعدم السؤال من النبي عن صاحب الأمر بعده[2]، كل ذلك يوضح بدرجة لا تقبل الشك، أن هذا الجيل الطليعي الذي تسلم الحكم بعد وفاة النبي ﷺ لم يكن يفكر بذهنية الشورى ولم يكن يملك فكرة محددة عن هذا النظام.

2 ـ إن النبي ﷺ لو كان قد قرر أن يجعل من الجيل الإسلامي الرائد الذي يضم المهاجرين والأنصار من صحابته قيّماً على الدعوة بعده ومسؤولاً عن مواصلة عملية

(1) تاريخ اليعقوبي ج2، ص126ـ 127.

(2) راجع في نصوص يوم السقيفة شرح نهج البلاغة، ج6، ص6ـ9.

التغيير فهذا يحتم على الرسول ﷺ أن يعبىء هذا الجيل تعبئة رسالية وفكرية واسعة يستطيع أن يمسك بالنظرية بعمق ويمارس التطبيق على ضوئها بوعي ويضع للمشاكل التي تواجهها الدعوة باستمرار حلولها النابعة من الرسالة، خصوصاً إذا لاحظنا أن النبي ﷺ كان وهو الذي بشّر بسقوط كسرى وقيصر يعلم بأن الدعوة مقبلة على فتوح عظيمة، وسوف تواجه الأمة الإسلامية مسؤولية توعية تلك الشعوب على الإسلام وتحصين الأمة من أخطار هذا الإنفتاح وتطبيق أحكام الشريعة على الأرض المفتوحة، وأهلها، وبالرغم من أن الجيل الرائد كان أنظف الأجيال التي توارثت الدعوة إلى ذلك الحين، وأكثرها استعداداً للتضحية، لا نجد فيه ملامح ذلك الإعداد الخاص للقيمومة على الدعوة والتثقيف الواسع العميق على مفاهيمها.

ويمكن أن نلاحظ أن مجموع ما نقله الصحابة من نصوص عن النبي ﷺ في مجال التشريع لا يتجاوز بضع مئات من الأحاديث بينما كان عدد الصحابة يناهز اثني عشر ألفاً على ما أحصته كتب التاريخ، والمعروف عن الصحابة أنهم كانوا يتحاشون ابتداء النبي بالسؤال حتى أن أحدهم كان ينتظر فرصة مجيء إعرابي من خارج المدينة يسأل ليسمع الجواب، وكانوا يرون أن من الترف الذي يجب الترفع عنه السؤال عن حكم قضايا لم تقع بعد. وعمر بن الخطاب يقول: «لا يحل لأحدٍ أن يسأل عما لم يكن إن الله قد قضى فيما هو كائن»، وابن عمر يجيب أحداً عندما سأله عن شيء، قوله: «لا تسأل عما لم يكن، فإني سمعت عمر بن الخطاب يلعن من سأل عما لم يكن»[1].

وهكذا نلاحظ اتجاهاً لدى الصحابة إلى العزوف عن السؤال إلا في حدود المشاكل الواقعية المحددة..

وهذا الإتجاه أبعد ما يكون عن عملية الإعداد الرسالي الخاص التي كانت تتطلب تثقيفاً واسعاً لذلك الجيل وتوعية له على حلول الشريعة للمشاكل التي سوف يواجهها عبر قيادته.

وقد أثبتت الأحداث بعد وفاة النبي أن جيل المهاجرين والأنصار لم يكن يملك أي

(1) سنن الدارمي ج1، ص56.

تعليمات محددة عن كثير من المشاكل الكبيرة التي كان من المفروض أن تواجهها الدعوة بعد النبي، حتى أن المساحة الهائلة من الأرض التي امتد إليها الفتح الإسلامي لم يكن لدى الخليفة والوسط الذي يسنده أي تصور محدد عن حكمها الشرعي وعما إذا كانت تقسم بين المقاتلين أو تجعل وقفاً على المسلمين، كما حدث ذلك لدى فتح العراق.

بل إننا نلاحظ أكثر من ذلك أن الجيل المعاصر للرسول ﷺ لم يكن يملك تصورات واضحة حتى في مجال القضايا الدينية، على سبيل المثال، الصلاة على الميت، فإنها عبادة كان النبي قد مارسها مئات المرات وأداها في مشهد عام من المشيعين والمصلين، وبالرغم من ذلك يبدو أن الصحابة كانوا لا يجدون ضرورة لضبط صورة هذه العبادة، ولهذا وقع الإختلاف بينهم في أدائها[1].

وهكذا نجد أن الصحابة كانوا في حياة النبي ﷺ يتكلون غالباً على شخص النبي ولا يشعرون بضرورة الإستيعاب المباشر للأحكام والمفاهيم ما داموا في كنف النبي.

وكل ما تقدم يدل على أن التوعية التي مارسها النبي على المستوى العام للمهاجرين والأنصار لم تجعلهم بالدرجة التي يطلبها إعداد القيادة الواعية الفكرية والسياسية لمستقبل الدعوة وعملية التغيير وإنما كانت توعية بالدرجة التي تبني القاعدة الشعبية الواعية التي تلتف حول قيادة الدعوة في الحاضر والمستقبل.

3 ـ إن الدعوة عملية تغيير ومنهج حياة جديد وهي تستهدف بناء أمة من جديد واقتلاع كل جذور الجاهلية ورواسبها، والأمة الإسلامية ككل لم تكن قد عاشت في ظل عملية التغيير هذه إلا عقداً واحداً من الزمن، وهذا الزمن لا يكفي عادة في منطق الرسالات العقائدية والدعوات التغييرية لارتفاع الجيل إلى درجة من الوعي والموضوعية والتحرر من رواسب الماضي والاستيعاب لمعطيات الأطروحة الجديدة تؤهله للقيمومة على الرسالة وتحمل مسؤوليات الدعوة وعملية التغيير بدون قائد، بل إن منطق الرسالات العقائدية يفرض أن تمر الأمة بوصاية عقائدية فترة أطول من الزمن حتى تتهيأ للإرتفاع إلى مستوى تلك القيمومة.

(1) راجع عمدة القارئ، ج4، ص129، للوقوف على تفاصيل الإختلاف.

وفعلاً نلاحظ عبر نصف قرن أو أقل من خلال ممارسة جيل المهاجرين والأنصار لإمامة الدعوة والقيمومة عليها، أنه لم يمض على هذه القيمومة ربع قرن حتى بدأت الخلافة الراشدة والتجربة الإسلامية تنهار تحت وقع ضربات أعداء الإسلام القدامى، إذ استطاعوا أن يتسللوا إلى مراكز النفوذ في التجربة بالتدريج ويستغفلوا القيادة غير الواعية ثم صادروا بكل تجرؤ وعنف تلك القيادة وأجبروا الأمة على الخضوع لقيادتهم فتحولت الزعامة إلى ملك موروث يستهتر بالكرامات ويقتل الأبرياء ويعطل الحدود، وأصبح الفيء والسواد بستاناً لقريش والخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني أميّة.

الطريق الثالث:

وهو الطريق الوحيد الذي بقي منسجماً مع طبيعة الأشياء ومعقولاً على ضوء ظروف الدعوة وسلوك النبي ﷺ وهو أن يقف النبي ﷺ من مستقبل الدعوة بعد وفاته موقفاً إيجابياً، فيختار بأمر من الله سبحانه شخصاً يرشحه عمق وجوده في كيان الدعوة فيعده إعداداً رسالياً وقيادياً خاصاً تتمثل فيه القيادة الفكرية السياسية للتجربة وليواصل بعده بمساندة القاعدة الشعبية الواعية قيادة الأمة وبناءها العقائدي.

وهكذا نجد أن هذا هو الطريق الوحيد الذي كان بالإمكان أن يضمن سلامة مستقبل الدعوة وصيانة التجربة من الإنحراف في خط نموها وهكذا كان.

وليس ما تواتر عن النبي ﷺ من النصوص التي تدل على أنه كان يمارس إعداداً رسالياً وتثقيفاً عقائدياً خاصاً لبعض الأشخاص على مستوى يهيئه للمرجعية الفكرية والزعامة السياسية وأنه ﷺ قد عهد إليه بمستقبل الدعوة وزعامة الأمة من بعده فكرياً وسياسياً، ليس هذا إلا تعبيراً عن سلوك القائد الرسول ﷺ للطريق الثالث الذي كانت تفرضه وتدل عليه قبل ذلك طبيعة الأشياء، كما عرفنا.

ولم يكن هذا الشخص الداعية المرشح للإعداد الرسالي القيادي وتزعمها فكرياً وسياسياً سوى علي بن أبي طالب الذي رشحه لذلك عمق وجوده في كيان الدعوة وأنه المجاهد الأول في سبيلها عبر كفاحها المرير ضد كل أعدائها، وأنه ربيب الرسول الذي

فتح عينيه في حجره، ونشأ في كنفه وتهيأت له فرص التفاعل معه والإندماج بخطه ما لم يتوفر لأي إنسان آخر.

والشواهد من حياة النبي والإمام علي على أن النبي كان يعد الإمام إعداداً رسالياً خاصاً كثيرة جداً، فقد كان الرسول يخصه بكثير من مفاهيم الدعوة وحقائقها ويبدأه بالعطاء الفكري إذا استنفد الإمام أسئلته ويختلي به الساعات الطوال يفتح عينيه على مفاهيم الرسالة ومشاكل الطريق ومناهج العمل إلى آخر يوم من حياته الشريفة.

روى الحاكم في المستدرك بسنده عن أبي إسحاق قال: سألت قثم بن العباس، كيف ورث علي رسول الله؟ قال: «**لأنه كان أولنا به لحوقاً وأشدنا به لزوقاً**».

وروى النسائي عن الإمام عليه السلام أنه كان يقول: «**كنت إذا سألت رسول الله أعطيت وإذا سكت ابتدأني**»، ورواه الحاكم في المستدرك أيضاً.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته وهو يصف ارتباطه الفريد بالرسول وعناية النبي بإعداده وتربيته (وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة...ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالإقتداء به ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة).

كما أن في حياة الإمام علي عليه السلام بعد وفاة القائد الرسول صلى الله عليه وآله أرقاماً كثيرة جداً تكشف عن ذلك الإعداد العقائدي الخاص للإمام علي عليه السلام من قبل النبي صلى الله عليه وآله بما تعكسه من آثار ذلك الإعداد الخاص ونتائجه، فقد كان الإمام هو المفزع والمرجع لحل أي مشكلة يستعصي حلها على القيادة الحاكمة وقتئذٍ ولا نعرف في تاريخ التجربة الإسلامية على عهد الخلفاء الأربعة واقعة واحدة رجع فيها الإمام إلى غيره لكي يتعرف رأي الإسلام وطريقة علاجه للموقف بينما نعرف في التاريخ عشرات الوقائع التي أحست القيادة الإسلامية الحاكمة فيها بضرورة الرجوع إلى الإمام بالرغم من تحفظاتها في هذا الموضوع.

وإذا كانت الشواهد كثيرة على أن النبي كان يعد الإمام إعداداً خاصاً لمواصلة قيادة

الدعوة من بعده فالشواهد على إعلان الرسول القائد ﷺ عن تخطيطه هذا وإسناده زعامة الدعوة الفكرية والسياسية رسمياً إلى الإمام علي عليه السلام لا تقل عنها كثرة كما نلاحظ ذلك في حديث الدار، وحديث الثقلين، وحديث المنزلة، وحديث الغدير وعشرات من النصوص النبوية الأخرى[1].

أسئلة حول الدرس



1 ـ هل يمكن تصوّر أن يخلي الرسول ﷺ الساحة بعده من دون تحديد الخليفة؟ ولماذا؟

2 ـ ما هي الحيثيات التي تعبّر عن واقع المسلمين والتي تؤكد ضرورة التصدي لتعيين خليفة من قبل الرسول ﷺ؟

3 ـ كيف خطط الرسول ﷺ لموضوع الخلافة والخليفة من بعده؟

(1) راجع النصوص وزيادة المعلومات ـ المراجعات للسيد عبد الحسين شرف الدين.

4

بداية الإنحراف وعوامل نشوء الخلاف

بالرغم من أن النبي ﷺ قد أعلن صراحة وفي عشرات المواقف عن تعيين علي عليه السلام لإمامة المسلمين من بعده إلا أنه ﷺ ما أن التحق بالرفيق الأعلى حتى ثار الخلاف بين المسلمين واشتد النزاع بينهم. وانحرفت التجربة الإسلامية عن مسارها الإلهي الذي يخطط له النبي ﷺ قبيل وفاته.

اجتماع السقيفة:

بعد وفاة النبي ﷺ بساعات اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة (بمعزل عن سائر المسلمين وعن علي عليه السلام بجثمان النبي الذي كان لم يدفن بعد.. بسبب انشغاله مع الهاشميين وبعض الأنصار) لتأمير سعد بن عبادة الخزرجي معتبرين أن الخلافة من حقهم. فتكتل ضدهم فريق من المهاجرين في مقدمتهم أبو بكر وعمر حيث أسرعا مع جماعتهما إلى السقيفة بعدما سمعوا باجتماع الأنصار فخطب أبو بكر وقال: «إن رسول الله ﷺ لما بُعِثَ عَظُمَ على العرب أن يتركوا دين آبائهم فخالفوه وشاقوه وخص الله المهاجرين الأولين ومن قواه بتصديقه، فهم أول من عبد الله في الأرض وهم أولياؤه وعترته وأحق الناس بالأمر بعده ولا ينازعهم فيه إلا ظالم».

اقترح الأنصار أن تكون الخلافة دورية بينهم وبين المهاجرين فقال الحباب بن منذر: يا معشر الأنصار املكوا عليكم أمركم، فإن الناس في فيئهم ولن يجترئ مجترئ على خلافكم فإن أبى هؤلاء إلا ما سمعتم، فمنا أمير ومنهم أمير.

فرد عليه عمر قائلاً: هيهات لا يجتمع اثنان في قرن.. لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم.

وفي نص آخر: هيهات لا يجتمع سيفان في غمد، من ذا يخاصمنا في سلطان محمد

وميراثه ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم أو متورط في هلكة. وهدد أحدهما الآخر بالقتل.

وقالت الأنصار أو بعض الأنصار: لا نبايع إلا علياً، حتى أن الزبير اخترط سيفه وهو يقول: والله لا أغمده حتى يبايع علي.

فقال عمر: (عليكم بالكلب) فيؤخذ سيفه من يده أو يضرب به الحجر حتى يكسر.

واشتد النزاع بين بعض الأنصار وبعض المهاجرين حتى نادى عمر على سعد بن عبادة قائلاً: اقتلوا سعداً، قتله الله إنه منافق، صاحب فتنة. فتصدى له قيس بن سعد فأخذ بلحية عمر قائلاً: والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة.

واندفع عمر بن الخطاب بأبي بكر وقدمه في اجتماع السقيفة وأعلن بيعته له بالخلافة وسبعة آخرون وتدافع الناس وكادوا يطئون سعد بن عبادة وكان مريضاً فحمل إلى بيته وأخرج أبو بكر من السقيفة وزف إلى المسجد حيث حمل الناس على مبايعته.

وحين بلغ النبأ الإمام علي عليه السلام رفض البيعة ورفضها معه أنصاره واستمروا على موقفهم ستة أشهر كاملة، بل أن علياً عليه السلام اعتبر اجتماع السقيفة في غيبته تآمراً.

إن ما حدث في السقيفة وما تمخض عنها، كان بداية انحراف خطير في تجربة الإسلام وكان من المنطقي في تسلسل الأحداث أن يتعمق هذا الإنحراف مع استمرار إقصاء أهل البيت عليهم السلام عن الخلافة وتسلم زمامها أشخاص لا يملكون أهلية الإمامة والقيادة.

وكان الخلاف بادئ الأمر يدور حول مسائل تتعلق بشؤون الزعامة والمصالح الشخصية، أكثر مما تتعلق بشؤون الفكر والعقيدة، ولكن الخلاف اتسع فيما بعد واكتسي ثوباً عقائدياً، إذا لم يمض قرن حتى بدأت الخلافة الراشدة والتجربة الإسلامية التي تولى جيل المهاجرين والأنصار قيادتها تنهار تحت وقع الضربات الشديدة التي وجهها أعداء الإسلام القدامى، ولكن من داخل إطار التجربة الإسلامية لا من خارجها إذ استطاعوا أن يتسللوا إلى مراكز النفوذ في التجربة بالتدريج ويستغلوا القيادة غير الواعية ثم صادروا وبكل وقاحة وعنف تلك القيادة وأجبروا الأمة وجيلها

الطليعي الرائد على التنازل عن شخصيته وقيادته، وتحولت الزعامة إلى ملك موروث يستهتر بالكرامات ويعطل الحدود ويجمد الأحكام وأصبحت الخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني أمية»[1].

الرسول ﷺ يمهد لخلافة الإمام علي عليه السلام:

ولا بد من القول بأن النبي ﷺ كان يتوقع حصول مثل هذا الخلاف بين المسلمين بعد وفاته، ولهذا فقد وضع ﷺ - كما مر في الدرس الماضي - مخططاً تشريعياً وسياسياً واسعاً للمنع من وقوع أمثال ذلك، فوضع النبي ﷺ خططاً وقائية وعلاجية للمنع عن الإختلاف قبل أن يحصل الخلاف،فمن الخطط الوقائية التي رسمها الإسلام توجيهات عامة كان يسديها القرآن الكريم والنبي ﷺ في التحذير عن الإختلاف: **﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً، فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾**[2].

﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا، فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾[3].

وانسياقاً مع هذا الجانب وضع النبي ﷺ قبيل وفاته خطة محكمة لمنع وقوع الإختلاف بين المسلمين، فقد قدّر ﷺ أن الخلاف سيقع بعد وفاته بشأن الخلافة، فحاول أن يقصي وجوه الأصحاب ساعة وفاته عن المدينة المنورة، خلا علي عليه السلام ليخلو جو المدينة من المعارضة التي يثيرها وجوه الأصحاب بعد وفاته، ويفرغ علي عليه السلام للأمر من دون معارض ولكن لم تقدر لهذه الخطة أن تنفذ، فتوفى النبي ﷺ، ووجوه الأصحاب في المدينة.

ويضع الإسلام بعد ذلك خططاً علاجية لمعالجة الخلاف وذلك بوضع موازين دستورية لمعرفة الجانب من المسألة إذا التبس الأمر بغيره.

والميزان الأول لمعرفة الحق هو القرآن الكريم، وما تجاوزه فهو زخرف وباطل: **﴿هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾**[4].

(1) بحث حول الولاية، الصدر.
(2) سورة الأنفال، الآية/49.
(3) سورة آل عمران، الآية/99.
(4) سورة الأعراف، الآية/203.

«ولكن القرآن الكريم ذاته فيه محكم ومتشابه، ومتشابه القرآن يتعرض عادة لاختلاف الأهواء، فيتعرض القرآن ذاته لمثل هذا الإختلاف والتضارب... فلا بد أن يشفع الكتاب الكريم بميزان تشريعي آخر يكمل مهمة الكتاب في علاج التضارب والخلاف الذي يحصل في الشؤون الدينية»[1].

وإلى هذا المعنى تشير الأحاديث النبوية التي تربط بين الكتاب وأهل البيت عليهم السلام مما اتفق المسلمون على صدوره عن النبي ﷺ من ذلك قوله ﷺ: «**إني أوشك أن أدعى فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، وأن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**»[2].

«هذا هو الجانب العلاجي من الخطة الحكيمة التي وضعها النبي ﷺ للمنع عن وقوع الخلاف بين المسلمين».

لماذا وقع الخلاف؟ وكيف نشأ الانقسام في الأمة[❖]

إن من يتتبع المرحلة الأولى من حياة الأمة الإسلامية في عصر النبي ﷺ يجد أن اتجاهين رئيسيين مختلفين قد رافقا نشوء الأمة، وبداية التجربة الإسلامية منذ السنوات الأولى وكانا يعيشان معاً داخل إطار الأمة الوليدة التي أنشأها الرسول القائد وقد أدى هذا الإختلاف بين الإتجاهين إلى انقسام عقائدي عقيب وفاة الرسول ﷺ مباشرة شطر الأمة الإسلامية إلى شطرين قدّر لأحدهما أن يحكم، فاستطاع أن يمتد ويستوعب أكثرية المسلمين، بينما أقصي الشطر الآخر عن الحكم، وقدر له أن يمارس وجوده كأقلية معارضة ضمن الإطار الإسلامي العام، وكانت هذه الأقلية هي (الشيعة).

---

(1) الإمامة في التشريع الإسلامي، الآصفي، ص12.

(2) أخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين والترمذي، والنسائي، وأحمد بن حنبل وغيرهم من الحفاظ، عن أكثر من عشرين صحابياً.

(❖) راجع بحث حول الولاية، السيد الصدر، ص73، حيث اعتمدنا، بتصرف على ما جاء في الكتاب المذكور.

والإتجاهان الرئيسيان اللذان رافقا نشوء الأمة الإسلامية في حياة النبي ﷺ منذ البدء هما:

أولا: الإتجاه الذي يؤمن بالتعبد بالدين وتحكيمه والتسليم المطلق للنص الديني في كل جوانب الحياة.

ثانياً: الإتجاه الذي لا يرى أن إيمانه بالدين يتطلب منه التعبد إلا في نطاق خاص من العبادات والغيبيات ويؤمن بإمكانية الإجتهاد، وجواز التصرف على أساسه بالتغيير والتعديل في النص الديني وفقاً للمصالح في غير ذلك النطاق من مجالات الحياة.

وبالرغم من مخالفة ذلك لروح الإسلام، من الضروري التسليم بوجود اتجاه واسع منذ كان النبي ﷺ على قيد الحياة، يميل إلى تقديم الإجتهاد في تقدير المصلحة على التعبد بحرفية النص الديني، وقد تحمل الرسول المرارة في كثير من الحالات بسبب هذا الإتجاه حتى وهو على فراش الموت في ساعاته الأخيرة، كما كان هناك اتجاه آخر في المقابل يؤمن بتحكيم الدين والتسليم له والتعبد بكل نصوصه في جميع جوانب الحياة. من دون أدنى تصرف.

وقد يكون من عوامل انتشار الإتجاه الثاني (الإجتهادي) في صفوف المسلمين أنه يتفق مع ميل الإنسان بطبيعته إلى التصرف وفقاً لمصلحة يدركها ويقدرها، بدلاً عن التصرف وفقاً لقرار لا يفهم مغزاه.

وقد قدّر لهذا الإتجاه ممثلون جريئون من كبار الصحابة من قبيل عمر بن الخطاب الذي ناقش الرسول ﷺ واجتهد في مواضيع عديدة خلافاً للنص، إيماناً منه بأن له مثل هذا الحق.

وبهذا الصدد يمكن أن نلاحظ، موقفه من صلح «الحديبية» واحتجاجه على هذا الصلح، وموقفه من الآذان وتصرفه فيه بإسقاط «حي على خير العمل»، وموقفه من النبي ﷺ حين شرع متعة الحج ومتعة النساء... إلى غير ذلك من مواقفه الإجتهادية.

وقد انعكس كلا الإتجاهين في مجلس الرسول ﷺ في آخر يوم من أيام حياته فقد

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس، قال: «لما حضر رسول الله ﷺ الوفاة وفي البيت رجال، فيهم عمر بن الخطاب قال النبي: هلم أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده، فقال عمر: إن النبي ﷺ قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والإختلاف عند النبي ﷺ قال لهم قوموا: «لا ينبغي عند نبي نزاع»[1].

وهذه الواقعة وحدها كافية للتدليل على عمق الإتجاهين ومدى التناقض والصراع بينهما.

ويمكن أن نضيف إليها ـ لتصوير عمق الإتجاه ورسوخه ـ ما حصل من نزاع وخلاف بين الصحابة حول تأمير «أسامة بن زيد» على الجيش بالرغم من النص النبوي الصريح على ذلك، حتى خرج الرسول ﷺ وهو مريض، وخطب الناس، وقال: «**يا أيها الناس ما مقالة بلغتني عن بعضكم من تأمير أسامة، ولئن طعنتم في تأمير أبيه من قبل، وأيم الله أنه كان لخليقاً بالإمارة وأن ابنه بعده لخليق بها**»[2].

وهذان الإتجاهان اللذان بدأ الصراع بينهما في حياة النبي ﷺ قد انعكسا على موقف المسلمين من أطروحة خلافة علي عليه السلام بعد النبي ﷺ.

فالممثلون للاتجاه التعبدي وجدوا في النص النبوي على هذه الأطروحة سبباً ملزماً لقبولها دون توقف أو تعديل، وأما الإتجاه الثاني فقد رأى أنه بإمكانه أن يتحرر عن الصيغة المطروحة من قبل النبي ﷺ، إذ أدى اجتهاده إلى صيغة أخرى أكثر انسجاماً في تصوره مع الظروف.

وهكذا نرى أن الشيعة ولدوا منذ وفاة الرسول ﷺ مباشرة، متمثلين في المسلمين الذين خضعوا عملياً لأطروحة إمامة علي عليه السلام وقيادته التي فرض النبي ﷺ الإبتداء بتنفيذها من حين وفاته مباشرة.

---

(١) أخرجه البخاري، باب مرض النبي ﷺ مجلد٣، وروى هذه الرواية ابن سعد في طبقاته، والطبري بتاريخه، وابن كثير في بدايته، ومسلم في صحيحه.

(٢) أنظر سيرة ابن هشام، وشرح النهج المجلد الثالث، ص١٧٢.

وقد تجسّد الإتجاه الشيعي منذ اللحظة الأولى في إنكار ما اتجهت إليه السقيفة من تجميد لأطروحة زعامة الإمام علي عليه السلام وإسناد السلطة إلى غيره[3].

وقد تقول: إذا كان الإتجاه الشيعي يمثل التعبد بالنص والإتجاه الآخر المقابل له يمثل الإجتهاد، فهذا يعني أن الشيعة يرفضون الإجتهاد، ولا يسمحون لأنفسهم به، مع إنّا نجد أن الشيعة يمارسون عملية الإجتهاد في الشريعة دائماً.

والجواب: أن الإجتهاد الذي يمارسه الشيعة ويرونه جائزاً بل واجباً وجوباً كفائياً، هو الإجتهاد في استنباط الحكم من النص الشرعي، لا الإجتهاد في رفض النص الشرعي لرأي يراه المجتهد أو لمصلحة يخمنها، فإن هذا غير جائز، والإتجاه الشيعي يرفض أي ممارسة للإجتهاد بهذا المعنى ونحن حينما نتحدث عن قيام اتجاهين منذ صدر الإسلام:

أحدهما: اتجاه التعبد بالنص.

والآخر: اتجاه الإجتهاد. نعني بالإجتهاد الإجتهاد في رفض النص أو قبوله.

وقيام هذين الإتجاهين شيء طبيعي في ظل كل رسالة تغييرية شاملة تحاول تغيير الفاسدين من الجذور، فإنها تتخذ درجات مختلفة من التأثير حسب حجم الرواسب المسبقة ومدى انصهار الفرد بقيم الرسالة الجديدة، ودرجة ولائه لها.

وهكذا نعرف أن الإتجاه الذي يمثل التعبد بالنص يمثل الدرجة العليا من الإنصهار بالرسالة والتسليم الكامل لها وهو لا يرفض الإجتهاد ضمن إطار النص وبذل الجهد في استخراج الحكم الشرعي منه.

هذه هي الخطوط العامة عن تفسير ظاهرة التشيع بوصفه ظاهرة طبيعية في إطار الدعوة الإسلامية، وتفسير ظهور الشيعة كاستجابة لتلك الظاهرة الطبيعية.

(1) ذكر الطبرسي في الإحتجاج عن أبان بن تغلب قال : قلت لجعفر بن محمد الصادق: جعلت فداك هل كان أحدٌ في أصحاب رسول الله أنكر على أبي بكر فعله؟ قال: نعم كان الذي أنكر عليه اثني عشر رجلاً من المهاجرين: خالد بن سعيد ابن أبي العاص، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر، وبريدة الأسلمي، ومن الأنصار: أبو الهيثم التيهان، وعثمان بن حنيف، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وأبي بن كعب، وأبو أيوب الأنصاري.

وإمامة أهل البيت ﷺ، والإمام علي ﷺ، التي تمثلها تلك الظاهرة الطبيعية تعبر عن مرجعيتين:

أحدهما: المرجعية الفكرية.

والأخرى: المرجعية في العمل القيادي والإجتماعي.

وكلتا المرجعيتين كانتا تتمثلان في شخص النبي ﷺ ومن بعده، وقد جاءت النصوص النبوية الشريفة لتؤكد ذلك باستمرار، ومن الأحاديث التي تؤكد على المرجعية الفكرية، حديث الثقلين إذ قال رسول الله: «**إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله.. وعترتي أهل بيتي.. إنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**»[1].

ومن الأحاديث التي تؤكد على المرجعية في العمل القيادي الإجتماعي، حديث الغدير، حيث خطب الرسول ﷺ بغدير خم فقال: «**أيها الناس يوشك أن أدعى فأجيب، وإني مسؤول وأنكم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وجاهدت ونصحت فجزاك الله خيراً، فقال: أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن جنته حق، وأن ناره حق وأن الموت حق، وأن البعث حق بعد الموت، وأن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور؟ فقالوا بلى نشهد بذلك. قال: اللهم اشهد، ثم قال: يا أيها الناس إن الله وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فهذا مولاه. يعني علياً. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه**»[2].

وهكذا جسد هذان النصان النبويان الشريفان في عدد كبير من أمثالهما كلتا المرجعيتين في أهل البيت ﷺ، وقد أخذ الإتجاه الإسلامي القائم على التعبد بنصوص النبي ﷺ بكلا النصين، وآمن بكلتا المرجعيتين، وهو اتجاه المسلمين الموالين لأهل البيت، ولئن كانت المرجعية القيادية الإجتماعية لكل إمام تعني ممارسته للسلطة خلال حياته، فإن المرجعية الفكرية حقيقة ثابتة مطلقة لا تتقيد بزمان حياة الإمام، ومن هنا كان لها مدلولها العملي الحي في كل وقت فما دام المسلمون بحاجة إلى فهم محدد للإسلام

(1) أنظر الحاكم في مستدركه على الصحيحين الترمذي والنسائي وأحمد بن حنبل.

(2) حديث الغدير حديث مستفيض في كتب الحديث عند الشيعة والسنة معاً. رواه أكثر من مائة صحابي وأكثر من ثمانين تابعياً ومن حفاظ القرن الثاني قرابة ستين شخصاً.

وتعرف على أحكامه وحلاله وحرامه ومفاهيمه وقيمه فهم بحاجة إلى المرجعية الفكرية المحددة ربانياً المتمثلة،

أولاً: في كتاب الله تعالى.

وثانياً: في سنة رسول الله ﷺ والعترة المعصومة من أهل البيت التي لا تفترق عن الكتاب كما نص الرسول الأعظم.

وأما الإتجاه الآخر في المسلمين الذي قام على الإجتهاد بدلاً عن التعبد بالنص فقد قرر في البدء عند وفاة الرسول ﷺ تسليم المرجعية القيادية التي تمارس السلطة إلى رجالات من المهاجرين وفقاً لاعتبارات متغيرة ومتحركة ومرنة. وعلى هذا الأساس تسلم أبو بكر السلطة بعد وفاة النبي مباشرة على أساس ما تم تشاور محدود في مجلس السقيفة، ثم تولى الخلافة عمر بنص محدّد من أبي بكر، وخلفهما عثمان بنص غير محدد من عمر، وأدت المرونة بعد ثلث قرن من وفاة الرسول القائد إلى تسلل أبناء الطلقاء الذين حاربوا الإسلام بالأمس إلى مراكز السلطة.

هذا فيما يتصل بالمرجعية التي تمارس السلطة، وأما بالنسبة إلى المرجعية الفكرية فقد كان من الصعب إقرارها في أهل البيت، بعد أن أدى الإجتهاد إلى انتزاع المرجعية القيادية منهم، لأن إقرارها كان يعني خلق الظروف الموضوعية التي تمكّنهم من تسلم السلطة والجمع بين المرجعيتين، كما أنه كان من الصعب أيضاً من الناحية الأخرى الإعتراف بالمرجعية الفكرية لشخص الخليفة الذي يمارس السلطة، لأن متطلبات المرجعية الفكرية تختلف عن متطلبات ممارسة السلطة فالإحساس بجدارة الشخص لممارسة السلطة والتطبيق لا يعني بحال الشعور بإمكانية نصبه إماماً ومرجعاً أعلى بعد القرآن والسنة النبوية لفهم النظرية، لأن هذه الإمامة الفكرية تتطلب درجة عالية من العلم والثقافة، والإحاطة واستيعاب النظرية، وكان من الواضح أن هذا لم يكن متوفراً في أي صحابي بمفرده ـ إذا قطع النظر عن أهل البيت عليهم السلام.

ولهذا ظل ميزان المرجعية الفكرية يتأرجح فترة من الزمن، وظل الخلفاء في كثير من الحالات يتعاملون مع الإمام علي على أساس قريب من ذلك، حتى قال عمر مرات عديدة:

«لولا عليّ لهلك عمر، ولا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو حسن».

ولكن بمرور الزمن بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وتعود المسلمين تدريجاً على النظر إلى أهل البيت والإمام علي بوصفهم أشخاصاً اعتياديين ومحكومين أمكن الإستغناء عن مرجعيتهم الفكرية أساساً وإسنادها إلى بديل آخر، وهذا البديل ليس هو شخص الخليفة بل الصحابة، وهكذا وضع بالتدريج مبدأ مرجعية الصحابة ككل بدلاً عن مرجعية أهل البيت عليهم السلام.

وبهذا فقد أهل البيت عليهم السلام عملياً امتيازهم الرباني وأصبحوا يشكلون جزءً من المرجعية الفكرية بوصفهم صحابة، وبحكم ما قدّر أن عاشه الصحابة أنفسهم من اختلافات حادة وتناقضات شديدة بلغت في كثير من الأحيان إلى مستوى القتال، وهدر كل فريق دم الفريق الآخر وكرامته واتهمه بالإنحراف والخيانة، أقول بحكم هذه الإختلافات والإتهامات بين صفوف الإمامة الفكرية والمرجعية العقائدية نفسها، نشأت ألوان من التناقض العقائدي والفكري في جسم الأمة الإسلامية كانعكاسات لأوجه التناقض في داخل تلك الإمامة الفكرية التي قررها الإجتهاد[1]. عليه السلام

أسئلة حول الدرس



1 ـ الرسول صلى الله عليه وآله دعا إلى ولاية علي عليه السلام منذ بداية دعوته وفي أوسطها وفي نهايتها، كيف حصل ذلك؟

2 ـ ما هي أسباب نشوء الإنقسام في الأمة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله؟

3 ـ ما الفارق بين الإجتهاد المطلوب والإجتهاد بالرأي، ومن يمثّل كل اتجاه؟

(1) راجع كتاب بحث حول الولاية، للسيد الشهيد الصدر، ص73ـ 89.

5

مسلسل الإنحراف في عهد الخلفاء الثلاثة (1)

تمهيد:

قبل الحديث عن دور الإمام علي عليه السلام بعد وفاة النبي ﷺ ومواقفه من الأحداث وكيفية معالجته لها، علينا أن نلم ولو بإيجاز عن تلك الظروف الإجتماعية والسياسية التي سبقت حكمه .. والتي بدأت الأمة المسلمة، تشهد فيها انحرافاً صريحاً عن مبادئ الإسلام وتعاليمه.

ويمكن أن نشهد هذا التحول والإنحراف بوضوح أكثر، منذ بداية النصف الثاني من عهد عثمان بن عفان .. هذا الإنحراف نفسه صار فيما بعد أساساً للظروف والملابسات الإجتماعية والسياسية التي عاشها الإمام علي، فتصدى لها عليه السلام منذ اللحظة الأولى من تسلمه لزمام مسؤولية الخلافة في الدولة الإسلامية، محاولاً تحصين الأمة ضد صدمة الإنحراف والعودة بها إلى الحياة الإسلامية الكريمة.

ونشير هنا إلى مسلسل الإنحراف الذي حدث في عهد الخلفاء الثلاثة وأهم مفرداته، وإلى أهم تلك الأحداث والظروف التي ساهمت في التمهيد للتطورات الكبرى في عهد عثمان والتي عاش آثارها السيئة، الإمام علي عليه السلام وهي:

1 ـ السقيفة:

فقد اجتمع الأنصار بعد وفاة النبي ﷺ في سقيفة بني ساعدة يتداولون بمعزل عن سائر المسلمين ـ في مسألة الخلافة بعد النبي ﷺ ورأوا أنها من حقهم، بينما تكتل ضدهم فريق من القرشيين المهاجرين ينازعهم هذا الأمر، وأسفر هذا الإجتماع عن تنصيب أبي بكر ومبايعته من قبل بعض المجتمعين مع العلم أن النبي ﷺ لم يفارقهم إلا بعد أن عهد بالحكم من بعده إلى علي بن أبي طالب عليه السلام الذي لم يشترك في أحداث

السقيفة بسبب انشغاله مع الهاشميين وبعض الأنصار بجثمان النبي ﷺ الذي كان لم يدفن بعد.

وقد قلنا في الدرس الماضي أن هذه الأحداث كانت بداية الإنحراف عن مبادئ الإسلام وتعاليمه.

وإذا فحصنا المنطق الذي استخدم في الجدل الذي دار آنذاك بين المهاجرين والأنصار نجد أن الروح القبلية ظاهرة فيه ظهوراً بيناً، فقد أثار كلام أبي بكر الأحقاد والإحن الكامنة بين الأوس والخزرج، وأغرى بينهما حين تحدث عما بين الحيين من القتلى، وعن الجراح التي تداوى، بينما نرى أن الحباب بن المنذر ـ خطيب الأنصار ـ قد تكلم بنفس جاهلي صرف حين تحدث إلى الأنصار يهيجهم ويشد من عزائمهم. ولم يخرج لسان المهاجرين عن هذه الروح حين قال: «من ينازعنا سلطان محمد ونحن أولياؤه وعشيرته».

وقد سارت الأحداث في الإتجاه الذي رسمه أبو بكر، فانقسم الأنصار، بتأثير الروح القبلية التي تأججت، وانخذل سعد بن عبادة الخزرجي ـ مرشحهم للخلافة ـ حين بادرت الأوس فبايعت أبا بكر[1].

هذه الروح القبلية التي عبرت عن نفسها يوم السقيفة فتحت على المسلمين باباً من أبواب الفتنة كما يصرح بذلك عمر بقوله: «إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه، فأيما رجل بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فإنهما تغرَّة يجب أن يقتلا»[2].

فقد خرجت قريش من هذه التجربة وهي ترى أن الحكم حق من حقوقها. وأن الخلافة وراثة آلت إليها بحكم كون نبي المسلمين منها. مما سبب أسوأ الآثار في فهم القريشيين لمهمة الحكم في الإسلام. وستظهر هذه الآثار واضحة في عهد عثمان.

---

(1) مما لا يخلو من مغزى أن عمر حين فرض العطاء على مبدئه في تفضيل بعض المسلمين على بعض، فضل الأوس على الخزرج في ذلك، راجع: فتوح البلدان، 437.

(2) الملل والنحل للشهرستاني.

2 ـ مبدأ عمر في العطاء:

سوّى النبي ﷺ بين المسلمين في العطاء، فلم يفضل أحداً منهم على أحد، وجرى على مبدأ التسوية في العطاء أبو بكر مدة خلافته.

أما عمر فقد جرى ـ حين فرض العطاء في سنة عشرين للهجرة ـ على مبدأ التفضيل: «ففضل السابقين على غيرهم، وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضل المهاجرين كافة على الأنصار كافة وفضل العرب على العجم، وفضل الصريح على المولى»[1].

وفضل مضر على ربيعة، ففرض لمضر في ثلاثمائة ولربيعة في مائتين[2]، وفضل الأوس على الخزرج[3].

وقد ولد هذا المبدأ فيما بعد أسوأ الآثار في الحياة الإسلامية. حيث أنه وضع أساس تكون الطبقات في المجتمع الإسلامي، وجعل المزية الدينية من سبل التفوق المادي، وزود الأرستقراطية القرشية التي مكنت لنفسها من جديد بتمكن أبي بكر من الحكم بمبرر جديد للإستعلاء والتحكم بمقدرات المسلمين، فجميع اعتبارات التفضيل تجعل القريشيين أفضل في العطاء من غير القريشيين[4] وهذا يعني أن قريشاً هي أفضل الناس لأنها قريش، وكفى بهذا مبرراً للحكم والإستعلاء.

وقد كون هذا المبدأ سبباً جديداً من أسباب الصراع القبلي بين ربيعة ومضر وبين الأوس والخزرج بما تضمن من تفضيل سائر مضر على سائر ربيعة، وتفضيل الأوس على الخزرج. ونظن أن هذا المبدأ قد أرسى أول أساس من أسس الصراع العنصري بين المسلمين العرب وغيرهم من المسلمين بما جرى عليه عمر من تفضيل العرب على العجم والصريح على المولى.

وكأن عمر قد أدرك في آخر أيامه الأخطار السياسية والإجتماعية التي يؤدي إليها مبدؤه هذا، ولذلك أعلن عزمه على الرجوع إلى المبدأ النبوي في العطاء فقال: «إني كنت تألفت الناس بما صنعت في تفضيل بعض على بعض، وإن عشت هذه السنة

---

(1) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة 111/8.
(2) تاريخ اليعقوبي: 106/2.
(3) فتوح البلدان، 437.
(4) فهم عرب، وقريشيون، ومضرويون، ومهاجرون.

ساويت بين الناس فلم أفضل أحمر على أسود، ولا عربياً على عجمي، وصنعت كما صنع رسول الله وأبو بكر»[1].

ولكن عمر قتل قبل أن يرجع عن هذا المبدأ، فجاء عهد عثمان وسار عليه، فظهرت آثاره الضارة في الحياة الإسلامية، وكان من أهم العوامل التي مهدت للفتنة بين المسلمين.

3 ـ الشـــورى:

ونعني بها الشورى التي اقترحها عمر لاختيار الخليفة من بعده، فقد جعل عمر الشورى في ستة نفر من قريش كمرشحين للخلافة من بعده وهم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان. وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وطلب منهم أن يتشاوروا في مهلة أقصاها ثلاثة أيام من وفاته حتى يختاروا واحداً منهم.

وعندما اجتمع المرشحون ليختاروا واحداً منهم بادر عبد الرحمن بن عوف فخلع نفسه من الشورى ليكون في موقف المحايد وحصر الترشيح في علي وعثمان ليختار هو بينهما بعد ما انسحب الآخرون من الشورى. فبدأ عبد الرحمن بعلي، وقال له: أُبايعك على كتاب الله وسنّة رسول الله، وسيرة الشيخين: أبي بكر وعمر.

فقال : «**بل على كتاب الله وسنّة رسوله واجتهاد رأيي**».

فعدل عنه إلى عثمان وطلب منه نفس ما طلب من الإمام علي، فأجابه عثمان على الفور بالموافقة.. فضرب بيده على يده وبايعه.. وتمت له الخلافة[2].

ولا ريب في أن البيعة لعثمان كانت على خلاف إرادة الأكثرية من الناس، لأن أكثرية الناس كانوا يريدون علي بن أبي طالب.

يقول ابن أبي الحديد وهو يصوّر لنا توزع القوى السياسية بين المرشحين للخلافة

---

(1) تاريخ اليعقوبي 107/2، وشرح نهج البلاغة (بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم) 131/2ـ132، وابن الطقطقي في الفخري، 73.

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج 1، ص188.

بعد عمر: «.. فخرج عبد الرحمن ـ ابن عوف ـ فمكث ثلاثة أيام يشاور الناس ثم رجع، واجتمع الناس وكثروا على الباب، لا يشكون أنه يبايع علي بن أبي طالب[1]، وكان هوى قريش كافة ـ ما عدا بني هاشم ـ في عثمان، وهوى طائفة من الأنصار مع علي، وهوى طائفة أخرى مع عثمان، وهي أقل الطائفتين»[2].

فالناس يريدون علياً لأنهم يخشون سلطان بني أمية، أما قريش فهي تخشى علياً وعدله واستقامته، ولعل كثيرين منهم كانوا على علم ببعض آرائه في المال والإجتماع والولايات، وأما الأنصار فكثرتهم مع علي وقلتهم مع عثمان، وهذا طبيعي بسبب خوفهم من تسلط قريش على جميع مقدرات الدولة.

فعلي كان مرشح الأكثرية المسلمة، ولكن عثمان ـ مرشح الأرستقراطية القرشية ـ فاز بالبيعة دون علي بن أبي طالب.

فقد آلت الشورى، إذن في النتيجة إلى استيلاء الأمويين ـ في شخص عثمان ـ على الحكم، ولكنها خلقت مواقف مختلفة من هذه النتيجة، حيث بدأ التفكير في الخلافة يتسرب إلى نفوس هؤلاء المرشحين من رجال الشورى، وغدا كل واحد منهم يرجوها لنفسه بعد أن رشحه لها عمر. وطمح إلى الخلافة رجال غير رجال الشورى من قريش، لأنهم رأوا أن بعض من رشحهم عمر لا يفضلونهم في شيء، بل ربما امتازوا عليهم في أشياء كثيرة.

وقد روى ابن عبد ربه حديثاً لمعاوية بن أبي سفيان اعترف فيه بأنه: «لم يشتت بين المسلمين ولا فرق أهوائهم إلا الشورى التي جعلها عمر في ستة نفر... فلم يكن رجل منهم إلا رجاها لنفسه، ورجاها له قومه، وتطلعت إلى ذلك نفسه»[3].

وكان لنظام الشورى أسوأ الأثر في نفسيات الأنصار، هؤلاء الذين وعدوا في السقيفة بأن يكونوا وزراء وشركاء في الحكم وإذا بهم يحرمون من كل شيء حتى من

(1) وليس هنا شيء جديد بالنسبة إلى موقف الناس من علي. فهذا هو موقفهم منه منذ السقيفة، ففي تاريخ اليعقوبي 83/2 «وكان المهاجرون والأنصار لا يشكون في علي».

(2) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، 52/9.

(3) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد ـ بتحقيق: محمد سعيد العريان ج5، ص31ـ32.

حق المشورة، أضف إلى هذا أن النتيجة التي آلت إليها لم تكن مرضية لهم، فقد رأوا في انتصار الأمويين انتصار لأعدائهم القدماء من مشركي مكة.

وقد عبّر علي بن أبي طالب عليه السلام عن عدم رضاه عن هذه النتيجة وتسليمه بالأمر الواقع قائلاً: «**لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا علي خاصة**»[1].

أسئلة حول الدرس



1 ـ ما هي الإشكالية الكبرى التي عبّرت عنها حادثة السقيفة؟

2 ـ كيف تعاطى الخليفة الثاني مع موضوع العطاء وبيت المال؟

3 ـ ما هو المقصود بالشورى؟ من هم أربابها وما هي نتيجتها؟

6

مسلسل الانحراف في عهد الخلفاء الثلاثة (2)

سياسة عثمان:

سار عثمان حين ولي الخلافة على سياسة في المال وتنصيب الولاة لم يعهدها المسلمون ممن تقدمه، ولم يألفوها. فقد راح يغدق الهبات الضخمة على آله وذويه وغيرهم من أعيان قريش، وعلى بعض أعضاء الشورى بصورة خاصة. ولو كانت هذه الهبات من أمواله الخاصة لما أثارت اعتراض أحد، ولكنها كانت من بيت المال الذي يشترك فيه المسلمون جميعاً. وقد سار عمال عثمان في أنحاء دولة الخلافة سيرته في المدينة. فانكفئوا على بيوت الأموال المحلية ينفقونها على آلهم وأنصارهم والمقربين إليهم[1] ...

وقام عثمان بإجراء مالي فتح به للطبقة الثرية التي كان يخصها بهباته وعطاياه أبواباً من النشاط المالي، وأتاح لها فرص التمكين لنفسها وتنمية ثرواتها. وذلك حين اقترح أن ينقل الناس فيئهم من الأرض إلى حيث أقاموا، فلمن كان له أرض في العراق أو في الشام أو في مصر أن يبيعها ممن له أرض بالحجاز أو غيره من بلاد العرب. وقد سارع الأثرياء إلى الإستفادة من هذا الإجراء، فاشتروا بأموالهم المكدسة أرضين في البلاد المفتوحة، وبادلوا بأرضهم في الحجاز أرضين في البلاد المفتوحة وجلبوا لها الرقيق والأحرار يعملون فيها ويستثمرونها. وبذلك نمت هذه الثروات نمواً عظيماً، وازدادت هذه الطبقة الطامحة إلى الحكم والطامحة إلى السيادة قوة إلى قوتها.

وقد ذكر المسعودي وغيره بعض الأمثلة على هذه الثروات الضخمة في ذلك الوقت.

---

(1) المسعودي، مروج الذهب 341/2 - والبلاذري، أنساب الأشراف 25/5ـ28و48، 52، وغيرهما.

«فقد بلغت ثروة الزبير خمسين ألف دينار وألف فرس، وألف عبد وضياعاً وخططاً في البصرة والكوفة ومصر والإسكندرية.

وكانت غلة طلحة بن عبيد الله من العراق كل يوم ألف دينار، وقيل أكثر، وبناحية الشراة أكثر مما ذكرنا.

وكان على مربط عبد الرحمان بن عوف مائة فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف شاة، وبلغ رُبع ثُمن ماله بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً.

وحين مات زيد بن ثابت خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار.

ومات يعلى بن منية وخلف خمسمائة ألف دينار، وديوناً وعقارات وغير ذلك ما قيمته ألف دينار.

أما عثمان نفسه فكان له يوم قتل عند خازنه مائة وخمسون ألف دينار، ومليون درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف خيلاً كثيراً وإبلاً.

ثم قال المسعودي بعد ذلك: وهذا باب يتسع ذكره، ويكثر وصفه فيمن تملك الأموال في أيامه»[1].

وقد وجدت إلى جانب هذه الطبقة الثرية طبقة أخرى فقيرة، لم تملك أرضاً ولا مالاً، وليس لها عطاءات ضخمة، تلك هي طبقة الجنود المقاتلين وأهلهم وزراريهم. وقد تكونت هذه الطبقة باستئثار عثمان وعماله بالفيء والغنائم لأنفسهم والمقربين منهم وحرمان المقاتلين منها. مدعين أن الفيء لله وليس للمحارب إلا أجر قليل يدفع إليه[2].

أما السواد، سواد العراق، أي أرضها وخراجها فهو على حد تعبير سعيد ابن العاص والي عثمان على الكوفة: «بستان لقريش، ما شئنا أخذنا منه وما شئنا تركناه»[3].

وأما أموال بيت المال فقد قال عثمان نفسه عنها: «لنأخذن حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أنوف أقوام»[4].

(1) المسعودي، مروج الذهب 2/341ـ343.
(2) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام 1/358.
(3) المسعودي، مروج الذهب 2/346.
(4) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة 3/49.

ومضت الأيام والأحداث تزيد الهوة اتساعاً بين هاتين الطبقتين، فبينما تزداد الطبقة الأرستقراطية الثرية ثراء، وتسلطاً، وتمعن في اللهو والبطالة والعبث، بحيث يشارك بعض أولاد الخليفة نفسه في اللهو الحرام والمجون[1] تزداد الطبقة الأخرى فقراً، وإحساساً بهذا الفقر.

وأما سياسته في الإدارة وتنصيب الولاة، فقد ولّى على البلدان الإسلامية شباناً من بني أمية لا يحسنون الحكم ولا السياسة، ولم يكن المسلمون بحاجة إلى وقت طويل ليتبين لهم أنهم حين بايعوا عثمان قد سلموا السلطان الفعلي على المسلمين إلى آله وذوي قرابته من بني أمية وآل أبي معيط. فقد اتضح في وقت مبكر أن عثمان ليس إلا واجهة يكمن خلفها الأمويون. وسرعان ما عززت الأحداث هذا. وذلك أن عثمان أسند إلى آله وذويه الولايات الكبرى في دولة الخلافة، وهي البصرة والكوفة والشام ومصر، وهذه الولايات الأربع هي الولايات ذات المنزلة العظيمة في الحرب والإقتصاد والإجتماع، فهي مركز الثروة المالية والزراعية لدولة الخلافة منها تحمل الأموال والأقوات، وهي مركز تجمع الجيوش الإسلامية الوافدة من شتى بقاع الدولة، وهي مركز عمليات الفتح الكبرى التي كانت إذ ذاك لا تزال في أوجها، وما عدا هذه الولايات فذو شأن ثانوي لا يؤبه له ولا يلتفت إليه.

لقد ولى عثمان على البصرة ابن خاله عبد الله بن عامر بن كريز، وعمره خمس وعشرون سنة، وولى على الكوفة أخاه الوليد بن أبي معيط، ثم عزله تحت ضغط الرأي العام بعد أن ثبت عليه شرب الخمر والتهتك، وولى مكانه سعيد بن العاص وكان معاوية عاملاً لعمر على دمشق والأردن فضم إليه عثمان ولاية حمص وفلسطين والجزيرة، وبذاك مدّ له في أسباب السلطان إلى أبعد مدى مستطاع، وولى مصر أخاه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

كان هؤلاء الولاة جميعاً من قرابة عثمان، ولم يكن سلوكهم الديني أو الإداري أوهما معاً في أمصارهم ومع رعيتهم مرضياً ومقبولاً، فقد كانوا جميعاً من قريش، وكانوا في

---

(1) «قتل عثمان وابنه الوليد ـ وكان صاحب شراب وفتوة ومجون ـ وهو مخلق الوجه، سكران، عليه مصبغات واسعة» مروج الذهب 341/2. والمعارف لابن قتيبة (دار الكتب 1960) 202.

تصرفاتهم لا يخفون قبليتهم وتعصبهم على غير قريش من قبائل العرب، ففي الكوفة تجبر سعيد بن العاص، وتعصب لقريش، وقال: «إنما السواد بستان لقريش ما شئنا أخذنا منه وما شئنا تركناه».

ولم يكن ولاة عثمان هؤلاء من ذوي السابقة في الدين والجهاد في الإسلام، وإنما كانوا متهمين في دينهم، بل كان فيهم من أمره في الفسق ورقة الدين معروف مشهور. كان فيهم عبد الله بن سعد الذي بالغ في إيذاء النبي والسخر منه، وبالغ في الهزءِ بالقرآن حتى نزل القرآن بكفره، والوليد بن عقبة ممن أمرهم في الفسق معروف مشهور، وقد نزل فيه قرآن يعلن فسقه.

وكان المسلمون ـ أعيانهم وعامتهم ـ يراجعون عثمان في شأن هؤلاء الولاة من أقاربه، ويطلبون منه عزلهم فلا يعزلهم، ولا يسمع فيهم أية شكوى إلا كارهاً.

معارضة سياسة عثمان:

هذه السياسة التي سلكها عثمان في الولايات أثارت عليه وعلى عهده موجة عامة من السخط بين المسلمين. لما رأوه فيه من عصبية قبلية يمارسها هو وولاته من قريش.

وأثارت عليه سخط المسلمين والمعاهدين من غير العرب لما عوملوا به من امتهان وقسوة من قبل ولاته وعماله.

وأثارت عليه سخط الصحابة لأنه ولى أمور المسلمين وأموالهم هؤلاء الغلمة القرشيين الذين لا يحترمون الدين ولا يأبهون له، والذين يظلمون دون أن يردوا من قبل عثمان.

وأثارت عليه سخط الأنصار لأنهم حرموا من الولايات بعد أن وُعدوا بأن يكونوا شركاء في الحكم، ولم ينس الأنصار يوماً أن سيوفهم وقتلاهم وأموالهم هي التي بوأت قريشاً هذه المنزلة.

وأثارت سخط شباب قريش والطامحين إلى الحكم من أعضاء الشورى لأنهم أهملوا ولم ينالوا ولاية من هذه الولايات.

❖❖❖❖❖

ولقد كان سلوك عثمان إزاء معارضي سياسته في المال والإدارة من كبار الصحابة سبباً في مضاعفة النقمة عليه في قريش وفي عامة المسلمين، وعاملاً مهماً من عوامل تعقيد الأزمة التي عاناها عثمان وعاناها المسلمون في عهد عثمان.

فقد عارض سياسة عثمان في المال والإدارة عبد الله بن مسعود الهذلي حليف بني زهرة، وكان خازناً لبيت المال، فاعترضه عثمان بقوله: «إنما أنت خازنٌ لنا».

ثم اشتدت معارضة ابن مسعود فأمر عثمان بضربه حتى كسر بعض أضلاعه.

وعارضه أبو ذر الغفاري فنفاه إلى الشام، فلم يكف عن المعارضة، بل أمدته أساليب معاوية في حكم الناس بمادة جديدة، فأخذ ينتقد أساليب معاوية في إنفاق الأموال العامة، وصادف كلامه هوى في نفوس رعية معاوية، فكتب بشأنه إلى عثمان، فأرسل إليه عثمان: «أرسل إلي جندباً ـ وهذا اسم أبي ذر ـ على أغلظ مركب وأوعره».

فوصل أبو ذر إلى المدينة وقد تآكل لحم فخذيه من عنف السير، ولكنه لم يكف عن المعارضة أيضاً، فنفاه عثمان إلى الربذة، ولبث فيها حتى مات غريباً وحيداً سنة ٣٢ هـ.

وعارضه عمار بن ياسر حليف بني مخزوم، فشتمه عثمان وضربه حتى غشي عليه سائر النهار، ولكن هذا العنف لم يثن عماراً فاستمر في معارضته، فشتمه عثمان وأمر به فطرح على الأرض، ووطأه برجليه وهما في الخف حتى أصابه الفتق.

وعارضه غير هؤلاء من الصحابة من المهاجرين والأنصار في الأحداث التي كان يقدم عليها، والسياسة التي كان ينتهجها، فلم يسمع منهم ولم يستجب لهم.

وقد كانت هذه المعارضة تشيع في المسلمين فينتظرون من عثمان أن يستجيب لها، لأنها كانت معارضة قائمة على إدراك حاجات المجتمع، وكانت تعبيراً عن عدم رضا المسلمين عن السياسة التي كانوا يساسون بها. ولكنهم بدل ذلك، كانوا يرون ويسمعون أن عثمان وآله قد نكلوا بالمعارضين هذا التنكيل الشديد، ومسوهم بهذا الأذى البالغ، ولم يستجيبوا إلى شيء مما دعوا إليه.

وقد أثار موقفه هذا سخط عامة المسلمين، فهؤلاء المعارضون من أعلام الصحابة وأركان الدعوة، يمتهنهم عثمان ويضطهدهم لدعائهم إلى الإصلاح في الوقت الذي

يسمع فيه من مروان ابن الحكم وأشباهه من بني أمية وأنصارهم من مسلمة الفتح الذين ليس لهم سابقة ولا مكانة في الإسلام.

وهؤلاء المعارضون الذين آذتهم سياسة عثمان في كرامتهم وأرزاقهم ولم يفسر المسلمون موقف عثمان عن المعارضين إلا بأنه عازم على المضي في سياسته دون الإلتفات إلى أي نصح أو تحذير.

وإلى جانب هذه المعارضة الصادقة المخلصة. الهادفة إلى خير المسلمين جميعاً كانت توجد معارضة أخرى مدفوعة بأسباب مغايرة وتستهدف نتائج مغايرة. وقد رأى زعماء هذه المعارضة في فساد الأوضاع العامة، وشيوع التذمر والنقد فرصة يستغلونها لاستعجال نهاية عهد عثمان التي تمكنهم من الوصول إلى مآربهم، فأخذوا يساهمون في نشر روح التذمر وتعميقها.

وقد مكن عثمان بسياسته الإدارية لهذه الطائفة من معارضيه بأسباب القوة والنفوذ، وذلك حين أطلق لها أن تنمي ثرواتها إلى أبعد مدى بإجرائه الذي قدمنا الحديث عنه في الأراضي وتكوين الإقطاعات الضخمة وحين أطلق لها أن تغادر المدينة إلى البلاد المفتوحة حيث راح أفرادها يستكثرون لأنفسهم من الأموال، ويستكثرون من الأتباع، ويمنون أنفسهم بالوصول إلى الخلافة. ويمنيهم بذلك أتباعهم وقبائلهم.

وقد أشار الطبري في أحداث سنة خمس وثلاثين إلى هذه الحقيقة فقال: «كان عمر بن الخطاب قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذن وأجل[1].

فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذي كان يأخذهم به عمر فانساحوا في البلاد، فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع من لم يكن له طول ولا مزية في الإسلام فكان مغموراً في الناس، وصاروا أوزاعاً إليهم، وأملوهم وتقدموا في ذلك، فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم، وتقدمنا في التقرب والإنقطاع إليهم؛ فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام وأول فتنة كانت في العامة ليس إلا ذلك»[2].

(1) قال عمر لما استأذنه الزبير بن العوام في الغزو: «ها إني ممسك بباب هذا الشعب أن يتفرق أصحاب محمد في الناس فيضلوهم» شرح نهج البلاغة 20/20.
(2) الطبري 134/5.

وقال في موضع آخر: «فلما ولي عثمان خلى عنهم، فاضطربوا في البلاد، وانقطع إليهم الناس...»[1].



أسباب الثورة على عثمان:

فإذا لاحظنا أن عثمان فتح باب الهجرة أمام قريش، فانساحوا في البلاد يستصلحون الأموال، ويكونون الثروات، ويجمعون حولهم الأنصار بالمال وبالأصهار إلى قبائل العرب وبسمعتهم الدينية التي جاءتهم من صحبتهم للنبي صلى الله عليه وآله وسبقهم إلى الإسلام. وجهادهم في سبيله. وأن سلوك عمال عثمان على الأمصار الكبرى، وسلوك عثمان نفسه في المدينة مع ناصحيه والمشفقين عليه وعلى الناس من سلوكه كان يقدم للمسلمين أسباب التذمر والشكوى، وأن هؤلاء الصحابة من قريش كانوا يرون هذا ويسمعون ويشاركون فيه، فإذا أضفنا إلى ذلك ما خلفه تدبير الشورى لدى هؤلاء من طموح إلى الخلافة، وسعي في سبيلها ... إذا لاحظنا هذا كله اتسقت لأعيننا الخطوط البارزة، والعوامل الأساسية في ثورة المسلمين على عثمان وعلى عهده:

طبقة أرستقراطية دينية كونتها السقيفة بما بعثت من مركز قريش، غدت ـ بالإضافة إلى أرستقراطيتها الدينية ـ تتمتع بثروات طائلة بسبب مبدأ التفضيل في العطاء، وسياسة عثمان في المال والأرض والهجرة، وقد كون مبدأ الشورى في نفوس كثير من أفرادها الطموح إلى الحكم مما دفعهم إلى استغلال كل الظروف المؤاتية للوصول إلى هذا الهدف، يقابل هذه الطبقة طبقة المحاربين والمسلمين الجدد المحرومة من كافة الإمتيازات، والتي كانت أسباب تذمرها متوفرة.

لقد كانت جماهير المحاربين هي مادة الثورة، أما وقودها فهو تصرفات عثمان وولاته وآل بيته، وأما الذي أججها فهم أصحاب المصلحة فيها: هم هؤلاء الزعماء الذين أوتوا من الطموح ما جعل الخلافة هدفهم، ومن المال والمنزلة الدينية ما مكنهم من جمع الأنصار حولهم، ومن سوء الأوضاع ما سهل عليهم أن يعدوا الناس بخير مما هم فيه.

(1) الطبري 134/5.

وقد تمخضت هذه الملابسات والظروف السيئة عن حركة عامة، إن فقدت النظام بالمعنى الحزبي الدقيق، فإنها لم تفقد وحدة الأفكار الدافعة، والأهداف المشتركة.

وقد سلك عثمان وبطانته من الأمويين والمنتفعين تجاه هذه الحركة سلوكاً بعيداً عن الحكمة والعدل، فبدلاً من أن تجاب مطالب الثوار رُدوا بعنف، واستهين بهم، وجوبهوا بسياسة قاسية هي هذه السياسة التي تمخض عنها مؤتمر عثمان مع عماله على الأمصار، والتي قدم لنا الطبري صورة عنها: «... فقال له عبد الله بن عامر: رأيي يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك، وأن تجمرهم في المغازي حتى يذلوا لك، فلا يكون همة أحدهم إلا نفسه، وما هو فيه من دبرة دابته وقمل فروه... فرد عثمان عماله على أعمالهم، وأمرهم بالتضييق على من قبلهم، وأمرهم بتجمير[1] الناس في البعوث، وعزم على تحريم[2] أُعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا إليه»[3].

ولكن هذه الإجراءات العنيفة زادت نار المقاومة اشتعالاً،بدل أن تخفف من شدتها، فقد رأى هؤلاء المحاربون الفقراء أنهم خدعوا، فتكتلوا من الكوفة والبصرة ومصر والحجاز، ومن هنا وهناك للقيام بمسعى جماعي لإرغام عثمان على تغيير بطانته التي اعتبروها مسؤولة عن كثير من المآسي، وتبديل عماله الذين أساءوا السيرة، وجاروا على الرعية.. وتغيير سياسته المالية. وبينما كان علي بن أبي طالب يسفر بين الثوار وبين الخليفة، فيهدئ من ثورة أولئك، وينبه عثمان وينصحه بالإستقامة والعدل، ونرى أن الآخرين من الطامحين إلى الخلافة ينتهزون فرصة ثورة الجماهير للوصول إلى هدفهم، فيؤججون الثورة، ويزيدون النقمة اشتعالاً، ويبذلون الأموال الطائلة في تمويل الثورة، واصطناع قادتها، وتسليح أفرادها.

وبلغت المأساة قمتها بمقتل عثمان.

---

(1) جمر الناس: جمعهم، وجمر الجيش: حبسهم في أرض العدو، ولم يقفهم (قاموس) يريد عثمان من عماله أن يجمعوا الناس في البعوث العسكرية الطويلة الأمد، ولا يردوهم إلى أوطانهم.

(2) حرم: منع.

(3) الطبري: 3/373ـ374.



أسئلة حول الدرس

1 ـ حدد مظاهر الفساد المالي في عهد الخليفة الثالث؟

2 ـ حدد مظاهر الفساد الإداري في عهد الخليفة الثالث؟

3 ـ لماذا ثار الجند على عثمان وماذا كانت النتيجة؟

7

نهج الإمام علي عليه السلام في مواجهة انحراف الدولة

كان أَمَام علي عليه السلام: عدة طرق يمكن سلوكها إزاء الإنحراف والأحداث التي وقعت بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله نذكر منها:

1 ـ إعلان الثورة وشهر السيف واسترداد الخلاصة بالقوة.

2 ـ الإحتجاج بالنصوص على أحقيته بالإمامة.

3 ـ الإكتفاء بالمعارضة والضغط والتوجيه وحماية الإسلام وتحصين الأمة ضد صدمة الإنحراف.

1 ـ إعلان الثورة:

أما الطريق الأول: فلم يكن بالإمكان سلوكه لأن: علياً عليه السلام لو شهر سيفه وحاول تصفية الإنحراف الذي قام به التكتل الحاكم بالقوة فإن سلسلة من المعارضات الدموية الأخرى كانت سوف تنشأ داخل المجتمع الإسلامي.

أما التكتل الحاكم فلن يتراجع ويتنازل بل سيدافع وبكل قوة عن سلطته التي حصل عليها، فهو بعدما وصل إلى سدة الخلافة غير مبال بالنص الإلهي سوف يستميت في الدفاع عن سلطانه الذي وصل إليه ولن يتنازل عن مركزه الجديد بأدنى معارضة، ولذلك فقد يلجأ إلى المواجهة إذا ما فكر أحد الأطراف الثلاثة الأخرى بتجريده من منصب الخلافة.

وأما الأنصار، فهم وإن هددوا بالسيف على لسان زعيمهم سعد بن عبادة ـ الذي خرج مخذولاً من السقيفة وهو يهدد ويقول رافضاً بيعة أبي بكر «**لا والله حتى أرميكم بما في كنانتي وأخضب سنان رمحي وأضرب بسيفي وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني، ولو اجتمع معكم الجن والإنس ما بايعتكم**» ولم يبايع حتى قتل غيلة في الشام في زمن

خلافة عمر إلا أنهم لم يتجرءوا على مواجهة الحزب الحاكم لوحدهم، فيكونوا أول شاهر للسيف في وجه السلطان الجديد، إذ قد يخشون اتحاد المهاجرين أو اتحاد معظم المسلمين بمن فيهم الأمويون ضدهم، أو قد يعتبرون ذلك مما ليس له مسوغ شرعاً ولكنهم إذا ما رأوا علي بن أبي طالب عليه السلام والهاشميين قد شهروا سيوفهم، وإذا ما سمعوا صوتاً قوياً كصوت الهاشميين قد جهر بالثورة، فسوف يزول تهيبهم وسوف تسقط كل المحاذير المتقدمة ويندفعون في مواجهة السلطان الجديد ويمكن أن تكون النتيجة إجلاء عامة المهاجرين عن المدينة بالقوة بمن فيهم الهاشميون، تماماً كما هدد سعد بن عبادة فقد كان هذا التهديد بمثابة إعلان للحرب، ولعله كان ينتظر الفرصة السانحة لينتقم ولعل انتقامه سوف يكون من عامة المهاجرين إذ أن الإنقسام كان في السقيفة بين المهاجرين والأنصار.

وأما الأمويون فقد كانوا متأهبين للمعارضة الدموية وقد صرحوا بذلك لعلي عليه السلام حينما عرضوا عليه تزعم المعارضة لأبي بكر، فلو شهر علي السيف على أبي بكر وعمر فإن الأمويين سوف يشقون عصا الطاعة وقد يفصلون مكة عن المدينة محاولين استعادة سيطرتهم عليها.

إذن فقد كانت الثورة العلوية في تلك الظروف إعلاناً لمعارضة دموية تتبعها معارضات دموية أخرى ذات أهداف وأهواء شتى، وكان فيها تهيئة لظروف قد يستفيد منها المشركون والمنافقون والأمويون لتسديد ضربة قاتلة للإسلام، في الوقت الذي لن تنفع الثورة في إعادة الخلافة إلى علي عليه السلام بل ربما كانت الحرب الداخلية سوف تطول وتستمر وتصبح وبالاً على الإسلام والمسلمين.

فلم تكن ظروف المحنة لتسمح لعلي عليه السلام بأن يرفع صوته أو يشهر سيفه في وجه الحكم القائم بل الذي كان سوف يحصل هو تناحر قوى مختلفة وتقاتل مذاهب متعددة الأهداف والأغراض، مع ما كان سوف ينجم عن ذلك من تضييع للإسلام في اللحظة التي كان ينبغي للمسلمين أن يلتفّوا حول قيادة واحدة مهما كانت حفاظاً على الإسلام في مواجهة جيوش الردة وحالة الارتداد العامة عن الإسلام.

2 ـ الإحتجاج بالنصوص:

وأما الطريق الثاني: وهو الإحتجاج بالنصوص على الإمامة فقد قرر علي عليه السلام تأجيل الإحتجاج بالنص إلى حين وذلك للأسباب التالية:

1 ـ كان الوضع محموماً والأهواء ملتهبة فمن الممكن صدور رد فعل عالي يؤدي إلى نتائج سيئة قد تطيح بالنصوص التي هي الأمانة الغالية التي سوف تصل إلى الأجيال التالية وكان النبي قد أودعها في صدور المهاجرين والأنصار فإذا ما كذبها التكتل الحاكم وأنكرها فإنها يمكن أن تضيع إلى الأبد.

2 ـ لو احتج علي عليه السلام بالنصوص كان سوف يثبت الإمامة الإلهية كمنصب وليس معناه إلا حرمان كل التكتلات الباقية من طموحها في السلطان إذا ما تقررت هذه النظرية وبالتالي سوف تنكر هذه النصوص التي لن تجد صوتاً يدافع عنها طالما الأمويون يطمحون إلى الملك وكان إثباتها يضر بهم في النهاية، والأنصار كذلك من مصلحتهم إنكارها لأنهم يناقضون أنفسهم إذا ما قبلوها، بل نجد أن عمراً يصارح ابن عباس بهذه الأفكار فيقول: «إن قومكم كرهوا أن يجمعوا لكم الخلافة والنبوة» ولعل الحصول على حليف ضد التكتل الحاكم مع تجاهل النص الإلهي كان أيسر كثيراً على علي بن أبي طالب عليه السلام من الحصول على حليف على أساس النصوص.

3 ـ لو انتبه عمر إلى ما انتبه إليه الأمويون فيما بعد عندما استولوا على الخلافة وأسسوا مدرسة الكذب على النبي صلى الله عليه وآله لقطع النصوص من أصولها، إذن سوف يكون احتجاج علي بالنصوص تنبيهاً لعمر لخطرها..

4 ـ حرص علي عليه السلام على عدم تدمير السنة فإن عمر عرّض بالرسول وقال إنه ليهجر وهو ما زال حياً فكيف بعد وفاته.

3 ـ حماية الإسلام:

وأما الطريق الثالث: فهو الطريق الذي سلكه أمير المؤمنين عليه السلام إزاء الإنحراف بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله.

فمن الواضح أن الإمام علي عليه السلام لم يقتنع بما جرى بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله

بالسقيفة.. ولعدم قناعة الإمام عليه السلام بما جرى ظل مؤمناً بحقه في الخلافة، وقد وقف إزاء الإنحراف على خطين:

الخط الأول: هو خط محاولة تسلم زمام الحكم ومحو آثار الإنحراف وإرجاع القيادة إلى موضعها الطبيعي.

الخط الثاني: هو خط حماية الإسلام وتحصين الأمة ضد الإنهيار بعد سقوط التجربة، وإعطائها (الأمة) من المقومات القدر الكافي لكي تبقى وتقف على قدميها وتعيش المحنة بقدم راسخة وبروح مجاهدة وبإيمان ثابت.

على الخط الأول: خط المعارضة ومحاولة تسلم زمام الحكم عمل علي عليه السلام في هذا الخط حتى قيل إنه أشد الناس رغبة في الحكم والولاية، وحتى اتهمه معاوية بأنه طالب جاه وسلطان، واتهمه بكل ما يمكن أن يتهم به شخص يطالب بالزعامة.

وقد بدأ هذا العمل عقيب وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرة، حيث قام عليه السلام بعدة خطوات في هذا المجال نذكر منها:

أ. معارضة التكتل الحاكم ورفض نتائج السقيفة وبيان أنه أحق بالأمر من أولئك الذين استولوا على الخلافة.

فقد رفض علي عليه السلام في البداية مبايعة أبي بكر، وظل ممتنعاً ستة شهور[1] مسجلاً بذلك معارضته لما جرى.. وامتنع عن البيعة قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع علي عليه السلام، منهم العباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، والزبير، والمقداد، وسلمان، وأبو ذر، وعمّار، والبراء بن عازب وغيرهم[2].

وتحصنوا في بيت فاطمة عليها السلام، فبعث إليهم أبو بكر عمر بن الخطاب ليخرجهم بالقوة، فأقبل بقبس من نار على أن يضرم عليهم الدار، فلقيتهم فاطمة عليها السلام، فقالت: **«يا ابن الخطاب، أجئت لتحرق دارنا»؟!**

قال: نعم، أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأمة[3].

وحرصاً من علي عليه السلام على عدم وقوع أية مواجهة قد تؤدي إلى فتنة وحرب داخلية

---

(1) راجع معالم المدرستين ج 1، ص171-172 عن مصادر كثيرة.
(2) المصدر: ج 1، ص161.
(3) المصدر: ج 1، ص167.

ليست في مصلحة الإسلام والمسلمين، انقاد علي عليه السلام وذهب معهم حيث أبو بكر إلا أنه ظل ممتنعاً عن البيعة ومعلناً أحقيته بالإمامة، وعندما قيل له: بايع قال عليه السلام: «**أنا أحق بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم. وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من رسول الله صلى الله عليه وآله، فأعطوكم المقادة وسلّموا إليكم الإمارة، وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار، فأنصفونا إن كنتم تخافون الله من أنفسكم، واعرفوا لنا من الأمر مثل ما عرفت الأنصار لكم، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون**».

فقال عمر: إنك لست متروكاً حتى تبايع!

فقال عليه السلام: «**إحلِبْ حَلَباً لك شطره، والله ما حرصك على إمارته اليوم إلا ليؤثرك غداً**».

فقال له أبو بكر: إن لم تبايعني لم أكرهك.

ثم قال علي عليه السلام: «**يا معشر المهاجرين، الله الله لا تخرجوا سلطان محمد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه، فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أهل البيت أحقّ بهذا الأمر منكم، أما كان منا القارئ لكتاب الله، الفقيه لدين الله، العالم بالسنة، المضطلع بأمر الرعية؟ والله إنه لفينا، فلا تتبعوا الهوى فتزدادوا من الحق بعداً**»[1].

ب. محاولة إيجاد تعبئة وتوعية فكرية عامة في صفوف المؤمنين، وإشعارهم بأن الوضع الذي نشأ بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله هو وضع منحرف ينبغي تغييره.

فقد ذكر المؤرخون أن علياً عليه السلام كان يجول وفاطمة عليها السلام على بيوت المسلمين ورجالات المدينة سراً يعظهم ويعبئهم ويذكرهم ببراهين الحق وآياته ويسألهم النصرة.

وقد أشار معاوية إلى ذلك في كتابه إلى علي عليه السلام حيث يقول: «وأعهدك أمس تحمل قعيدة بيتك ليلاً على حمار ويدك في يدي ابنيك الحسن والحسين يوم بويع أبو بكر الصديق، فلم تدع أحداً من أهل بدر والسوابق إلا دعوتهم إلى نفسك، ومشيت

(1) المصدر نفسه: ج1، ص169.

إليهم بامرأتك، وأدللت إليهم بابنيك، واستنصرتهم على صاحب رسول الله، فلم يجبك منهم إلا أربعة أو خمسة..»[1].

ج ـ حركة السيدة فاطمة عليها السلام في المطالبة بفدك، ومواقفها من موضوع الخلافة.

فنحن نعلم أنه لم يكن دافع السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام هو المطالبة بمزرعة مهما كان وزنها الإقتصادي ومهما كانت غلاّتها ونتاجها، بل كان سعياً نحو هدف سام يقترب من المطالبة باسترداد حق الإمامة المغتصب ومن محاولة تقويم انحراف خطير وقعت فيه الأمة.. وتهديم البنيان الذي بني يوم السقيفة.

فهذه خطبتها أمام أبي بكر وجمع من المهاجرين والأنصار تركز فيها على شخصية علي عليه السلام من خلال مواقفه الجهادية. وعلى حق أهل البيت عليهم السلام ومقامهم، وأن المسلمين أساءوا الإختيار وتركوا الكتاب والسنة وأسندوا الأمر إلى غير أهله.

وكذلك خطبتها في نساء المهاجرين والأنصار.

ولذلك نجد أن جواب أبي بكر ـ بعد ما انتهت الزهراء عليها السلام من خطبتها وخرجت من المسجد ـ ركز فيه على علي عليه السلام حيث هاجمه ونطق فيه بكلام يعبر عن الغضب ولم يذكر فيه شيئاً عن الإرث والنحلة. مما يدل على أن خطوة السيدة الزهراء عليها السلام هذه كانت خطوة تصعيد سياسي في مواجهة الإنحراف، وأن الذي كان يقود هذه المواجهة في الحقيقة هو علي عليه السلام.

إذن فقد كان علي عليه السلام يحاول إزالة الإنحراف وتسلم زمام الحكم وتعبئة المسلمين في هذا الخط، إلا أن هذه المحاولة وهذه التعبئة لم تنجح لأسباب بعضها يرتبط بشخص علي عليه السلام، وبعضها الآخر يرتبط بانخفاض وعي المسلمين أنفسهم، فهم لم يدركوا أخطار ما حصل في السقيفة ولم يدركوا أن يوم السقيفة كان هو اليوم الذي سوف ينفتح منه كل ما انفتح من بلاء للإسلام والمسلمين، بل رأوا وجوهاً ظاهرة الصلاح قد تصدت لزعامة المسلمين ولقيادتهم، وتخيلوا أن من الممكن في ظل هكذا قيادة أن يطبق الإسلام وأن تحفظ الأمة[2].

---

(1) المصدر ج1، ص1، ص170ـ171.

(2) راجع في هذا الصدد: أهل البيت عليهم السلام وحدة هدف وتنوع أدوار، ص81 وما بعدها.

ويرى المؤرخون أن علياً عليه السلام لم يقدم على مصالحة أبي بكر إلا بعد وفاة فاطمة عليها السلام وانصراف وجوه الناس عنه، وعدم وجود الناصر[1] ويقول البلاذري: لما ارتدّت العرب مشى عثمان إلى علي فقال: يا ابن عم، إنه لا يخرج أحدٌ إلى قتال هذا العدو وأنت لم تبايع، فلم يزل به حتى مشى إلى أبي بكر فبايعه[2].

بعد هذا، سكت أمير المؤمنين عليه السلام ولم يبد على مسرح الصراع المكشوف في أيام أبي بكر وعمر وقد تعامل عليه السلام مع الخلافة في هذه المرحلة حسب ما تحكم به المصلحة الإسلامية حفظاً وصوناً لوحدة المسلمين من التمزق والضياع، وتحقيقاً للمصالح الإسلامية العليا التي جاهد من أجلها.

وقد تصدى في هذا الإطار لتوجيه الحياة الإسلامية وفقاً لما تقتضيه رسالة الله تعالى في الحقول التشريعية والتنفيذية والقضائية. ومن أجل ذلك فإن الباحث التاريخي في حياة الإمام عليه السلام لا يلبث إلا أن يلتقي مع مئات المواقف والأحداث في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، التي لا تجد غير الإمام عليه السلام مدبراً لها ومعالجاً وقاضياً بأمر الشريعة فيها.

وللإمام عليه السلام تعليق بهذا الصدد يقول: «**فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وآله فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به عليَّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب أو كما ينقشع السحاب فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمأن الدين وتنهنه**»[3].

وبعد أن تم الأمر لعثمان بشورى عمر، قال علي عليه السلام: «**لأسلمنّ ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن إلا جورٌ عليّ خاصة**»، وبذلك فقد أعلن السكوت بشرط أن تسلم أمور المسلمين وأما إذا تعدى الأمر حدوده الشخصية وأصبح يطال الإسلام والمسلمين فسوف يكون الأمر مختلفاً.

وبذلك الشعار برزت أيضاً رسالية علي عليه السلام الذي بقي ملتزماً بالسكوت إلى أن بدأ

---

(1) معالم المدرستين: ج 1، ص172.

(2) أنساب الأشراف: ج 1، ص587.

(3) نهج البلاغة/تبويب، د. صبحي الصالح، ص451.

الإنحراف العثماني وأسفر بشكل مفضوح، وهنا أسفر علي عليه السلام عن معارضته وأخذ بمواجهة عثمان.

وأما على الخط الثاني:

فقد كانت الأمة تواجه خطراً محدقاً من جهة أن التجربة الإسلامية قصيرة العمر وسوف تسرع القيادة المنحرفة في إفنائها ومن جهة أن تطبيقات التجربة كانت سوف تأتي مشوهة على يدي هذه القيادة.

فجاهد الإمام على الجبهتين فحاول إطالة عمر التجربة الإسلامية الصحيحة وإفساح المجال لها لتثبيت جدارتها كما حاول تحطيم التجربة المنحرفة وتحجيمها. وقد كان له عليه السلام أسلوبان:

الأسلوب الأول:

فقد واجه قادة التجربة المنحرفون قضايا ومشاكل كثيرة وكانوا لا يحسنون مواجهتها ولا حلها، ولو حاولوا لوقعوا في أشد الأضرار والأخطار ولأوقعوا المسلمين في أشد التناقضات ولأصبحت التجربة أقرب إلى الموت والفناء وأسرع إلى الهلاك.. وهنا كان الإمام عليه السلام يتدخل تدخلاً إيجابياً موجهاً في سبيل إنقاذ التجربة من المزيد من الضياع ومن السير في الضلال..

فكان مثلاً يعين تلك القيادات التي تولت التجربة على مواجهة المشاكل العقائدية التي كانت تثيرها الأديان الأخرى التي بدأت تعاشر المسلمين ولم تكن تلك القيادات بمستوى القدرة على حلّها..

ونجده يتدخل حينما وقع البحث بين المسلمين بعد فتح العراق في أنه هل توزع أراضي العراق على المجاهدين أم تبقى ملكاً عاماً للمسلمين؟ وكان هناك اتجاه واضح كبير بينهم إلى الحل الأول ومعنى ذلك تشريع قاعدة عامة سوف تعطي إيران وسوريا ومصر والعراق وإفريقيا وأوروبا وكل البلاد التي سوف تفتح بعد ذلك لآلاف من المجاهدين المسلمين وبذلك سوف ينشأ إقطاع لا نظير له في التاريخ.. وبقي عمر متحيراً لأنه لا يعرف ماذا يصنع لأنه لا يعرف الأصلح في هذه المسألة فتدخل علي بن

أبي طالب عليه السلام وحسم الخلاف وبيّن وجهة النظر الإسلامية فأخذ عمر بنظر الإمام وأنقذ الإسلام من الدمار الكبير...

وكذلك عندما أراد عمر إعلان النفير العام والخروج من المدينة مع جميع المسلمين فيها إلى الجهاد فأسرع علي عليه السلام إلى المسجد وقال له لا تنفر نفيراً عاماً..

وحذره من ذلك وبيّن له أخطاره وأن العاصمة الإسلامية سوف تفرغ وتهدد حينئذٍ بالغزو من قِبَل المشركين والكافرين، وبهذا يمكن أن يقضى على الدولة الإسلامية، فامتنع عمر عن إعلان النفير العام..

بذلك طوّل علي عليه السلام عمر التجربة الإسلامية ومنع القيادة المنحرفة من تقصير عمرها ودفعها نحو الضياع واليأس..

الأسلوب الثاني:

فقد كان معارضة القيادات المنحرفة وتهديدها من أجل منعها من المزيد من الإنحراف ولكن على سبيل التوجيه. فالأسلوب الأول كان يفترض الحاكم ضالاً وفارغاً دينياً فيحتاج إلى توجيه وأما الأسلوب الثاني فالحاكم فيه ضال وخطير لا يقبل التوجيه فيحتاج إلى المواجهة والمعارضة لأجل إيقافه عند حده ومنعه من التمادي في الإنحراف.

ففي إحدى المرات صعد عمر على المنبر وقال: ماذا كنتم تعملون لو أنا صرفناكم عما تعلمون إلى ما تنكرون؟ كان يريد أن يقدّر الموقف فيما لو ارتكب ما يصرف الأمة عما تعلم إلى ما تنكر أي فيما لو انحرف انحرافاً عن الرسالة بحيث تراه الأمة وتكشفه، فهنا يريد استطلاع موقف الأمة وماذا سيكون رد فعلها، فلم يقم له إلا علي عليه السلام له: لو فعلت ذلك لعدّلناك بسيوفنا..

فالبرغم من أن الشعار العام للإمام عليه السلام في زمن عمر وأبي بكر لم يكن التنزّل إلى مستوى استعمال السيف إلا أنه من أجل ضبط هذا الحاكم كان يلوّح بالسيف فقط ولكنه في زمن عثمان يقود المعارضة بعد أن كشّر الإنحراف عن أنيابه فأخذ يعلن معارضته ليتحول إلى عنصر استقطاب لآمال المسلمين ومشاعرهم واتجاههم نحو حكم صحيح، وقد كان هو المرشح الأساسي والوحيد لذلك..



أسئلة حول الدرس

1 ـ هل استخدم الإمام علي عليه السلام وسيلة الإحتجاج بالنص لإثبات حقه ولماذا؟

2 ـ ما هي نوعية المعارضة التي اتبعها الإمام علي عليه السلام مع الخلفاء؟

3 ـ ما هي الأولوية التي حكمت التعاطي السياسي للإمام علي عليه السلام؟ بيّن ذلك؟

8

الإمام علي عليه السلام في الحكم

موقف الإمام من تولي الحكم:

بعد مقتل عثمان، توجهت أنظار الثوار إلى الإمام علي عليه السلام يطلبون منه أن يلي الحكم ولكنه أبى عليهم ذلك، لا لأنه لم يأنس من نفسه القوة على ولاية الحكم وتحمل تبعاته. فقد كان عليه السلام على أهبة الإستعداد لذلك، ولكنه كان يدرك - نتيجة لوعيه العميق للظروف الإجتماعية والنفسية التي كانت تجتاح المجتمع الإسلامي في ذلك الحين - أن المدّ الثوري الذي انتهى بالأمور إلى ما انتهت إليه بالنسبة إلى عثمان يقتضي عملاً ثورياً إصلاحياً يتناول دعائم المجتمع الإسلامي من النواحي الإقتصادية والإجتماعية والسياسية قد لا يتحمل أعباءه كثير من الناس.

لذلك امتنع من الإستجابة الفورية لضغط الجماهير والصحابة عليه بقبول بيعتهم له بالخلافة، فقد أراد أن يضعهم أمام اختبار يكتشف به مدى استعدادهم لتحمل أسلوب الثورة في العمل لإزالة الإنحراف الذي حصل في العهود السابقة، لئلا يروا فيما بعد أنه أستغفلهم، واستغل اندفاعهم الثوري حين يكتشفون صعوبة الشروط التي يجب أن يناضلوا الفساد الذي ثاروا عليه في ظلها[1].

ولهذا أجابهم الإمام عليه السلام بقوله: «**دعوني والتمسوا غيري، فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل، وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزير خير لكم مني أمير**»[2].

ولكن الناس أبوا عليه إلا أن يلي الحكم، فاستجاب لهم.

---

(1) راجع للتوسع ثورة الحسين، لمحمد مهدي شمس الدين ص35-38. (2) نهج البلاغة، ج1، ص217.

سياسة الإمام عليه السلام في الحكم:

تسلم الإمام الحكم في مجتمع ورث الفساد وكانت تنتظره مشاكل معقدة كثيرة على مختلف الأصعدة، فعالنهم الإمام عليه السلام بسياسته الثورية الجديدة التي قرر أن يتبعها من أجل تحقيق الأهداف التي قبل الحكم لأجلها. ولم تكن هذه السياسة شيئاً مرتجلاً اصطنعه لنفسه يوم ولي الخلافة، وإنما كانت منهجاً مدروساً ومنتزعاً من الواقع الذي كان يعانيه المجتمع الإسلامي آنذاك، ومعدة للسير بهذا المجتمع إلى الأمام، ومهيئة لتمنح هذا المجتمع المطامح التي كان يتطلع إليها.

وقد تناولت سياسته الثورية ثلاثة ميادين هي:

1 ـ الميدان الحقوقي.

2 ـ الميدان المالي.

3 ـ الميدان الإداري.

1 ـ الميدان الحقوقي:

ففيما يرجع إلى سياسته في الحقوق نادى عليه السلام بأن المسلمين سواء في الحقوق والواجبات في الإسلام، وقد كانت هناك فروق حقوقية جاهلية قضى عليها الإسلام وأعيدت في عهود لاحقة، فقريش ذات الماضي العريق في السيادة على القبائل العربية عادت في عهد عثمان إلى إيمانها بتلك الفروق، فغدا أناس ليس لهم ماضٍ مشرّف بالنسبة إلى الإسلام ونبيه صلى الله عليه وآله يتعالون على أعظم المسلمين جهاداً وسابقة وبلاء لمجرد أنهم قرشيون.. هذه الفروق المعنوية الجاهلية قضى عليها الإمام فقال عليه السلام: «**الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه**»[1].

وقال عليه السلام في خطاب آخر: «**أيها الناس، أعينوني على أنفسكم، وأيم الله لأنصفن المظلوم من الظالم بخزامته حتى أورده منهل الحق وإن كان كارهاً**»[2].

(1) نهج البلاغة، ج 1، ص217.
(2) نهج البلاغة.

2. الميدان المالي:

وفيما يرجع إلى سياسة المال وقف عليه السلام موقفاً صارماً ومتشدداً. وقد ركز في سياسته المالية على نقطتين هامتين:

إحداهما: الثروات التي تكونت في أيام عثمان بأسباب غير مشروعة.

والثانية: أسلوب توزيع العطاء.

ففيما يتعلق بالنقطة الأولى: قام عليه السلام بمصادرة جميع ما أقطعه عثمان من القطائع، وما وهبه من الأموال العظيمة لطبقة الأرستقراطيين.

قال عليه السلام: «**أيها الناس إني رجل منكم، لي ما لكم وعليَّ ما عليكم، وإني حاملكم على منهج نبيكم، ومنفذ فيكم ما أمر به، ألاَ وإن كل قطيعة أقطعها عثمان، وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال، فإن الحق لا يبطله شيء، ولو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء وفرق في البلدان لرددته، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق**»[1].

وفيما يتعلق بالنقطة الثانية: فقد تناولت سياسته المالية إلغاء مبدأ التفاضل في العطاء، وإعلان مبدأ المساواة، حيث ساوى في العطاء بين المعتقين والأحرار، والسابقين في الإسلام والمسلمين الجدد. ولم يفضل أحداً على أحد.

وبهذا الإجراء جسَّد الإمام عليه السلام مفهوم التسوية في العطاء بين جميع الناس الذين يتمتعون بحق المواطنة الإسلامية من دون تمييز، وقضى على شرعية التفاوت الطبقي بما له من ذيول اقتصادية ودينية، وألغى كل أشكال التمييز في توزيع الأموال على الناس مؤكداً أن التقوى والسابقية في الإسلام أمور لا تمنح أصحابها امتيازات في الدنيا، ومن كان له فضل في الإسلام لأسبقيته فالله يتولى جزاءه يوم القيامة، أما في هذه الدنيا فالناس سواسية في الحقوق والواجبات.

قال عليه السلام في إحدى الخطب الأولى التي استهل بها حكمه: «**ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يرى أن الفضل له على سواه لصحبته،**

---

(1) نهج البلاغة، ج 1، ص59 - وشرح النهج ج 1، ص269- ٢٧٠.

فإن الفضل النير غداً عند الله، وثوابه وأجره على الله، وأيما رجل استجاب لله وللرسول فصدّق ملتنا ودخل في ديننا، واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية، لا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء وأفضل الثواب؛ لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً، وما عند الله خيرٌ للأبرار. وإذا كان غدٌ إنشاء الله فاغدوا علينا ؛ فإن عندنا مالاً نقسمه فيكم، ولا يتخلفنّ أحدٌ منكم؛ عربيٌّ ولا عجميٌّ كان من أهل العطاء أو لم يكن ؛ إلا حضر، إذا كان مسلماً حراً».

فلما كان من الغد، غدا وغدا الناس لقبض المال، فقال لعبيد الله ابن أبي رافع كاتبه: **«ابدأ بالمهاجرين فنادهم، وأعط كل رجل ممن حضر ثلاثة دنانير، ثم ثنّ بالأنصار فافعل معهم مثل ذلك؛ ومن حضر من الناس كلهم؛ الأحمر والأسود فاصنع به مثل ذلك».**

فقال سهل بن حنيف: يا أمير المؤمنين، هذا غلامي بالأمس وقد أعتقته اليوم؛ فقال عليه السلام : **«نعطيه كما نعطيك، فأعطى كل واحد منهما ثلاثة دنانير».**

ولم يفضّل أحداً على أحد. وتخلف عن هذا القسم يومئذٍ طلحة والزبير، وعبد الله بن عمر، وسعيد بن العاص، ومروان بن الحكم، ورجال من قريش وغيرها[1] .

3. الميدان الإداري

باشر الإمام عليه السلام سياسته الإدارية بعملين:

1 ـ بعزل ولاة عثمان على الأمصار: هؤلاء الولاة الذين كانوا من الأسباب الهامة في الثورة على عثمان لظلمهم وبغيهم وعدم درايتهم بالسياسة وأصول الحكم.

وقد قال الإمام عليه السلام في شأنهم: **«ولكنني آسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجّارها، فيتخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً، والصالحين حرباً، والفاسقين حزباً، فإن منهم الذي قد شرب فيكم الحرام، وجلد حداً في الإسلام. وإن منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الإسلام الرضائخ»**[2] .

(1) شرح نهج البلاغة، 7/37ـ38.
(2) نهج البلاغة.

فقد سبق لعثمان أن قرَّب أشخاصاً كان الرسول ﷺ قد طردهم أو أقصاهم، لقد رد عمه الحكم ابن أمية إلى المدينة بعد أن طرده الرسول ﷺ وأصبح يسمى طريد رسول الله، وآوى عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان النبي ﷺ قد أهدر دمه وولاه عثمان مصر، كما ولى عبد الله بن عامر البصرة فأحدث فيها من الأحداث ما جعل المؤمنين ينقمون عليه وعلى عثمان[1].

2 ـ إسناد ولايتها إلى رجال من أهل الدين والعفة والحزم، ممن تتوافر في شخصيتهم المواصفات التي تحدث عنها علي عليه السلام في قوله: «**إنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل، فتكون في أموالهم نهمته (شهوته) ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف (الظالم) للدول (المال) فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق، ويقف بها دون المقاطع (حدود الله) ولا المعطّل للسنة فيهلك الأمة**»[2].

فولّى على البصرة عثمان بن حنيف، وعلى الشام سهل بن حنيف، وعلى مصر قيس بن سعد بن عبادة، وثبّت أبا موسى الأشعري على الكوفة، وهذه هي الأمصار الكبرى في دولة الخلافة آنذاك.

❖❖❖❖❖

وبقدر ما كانت هذه السياسات مصدر فرح للطبقة المستضعفة الفقيرة الرازحة تحت أثقال من الظلم كانت أيضاً صفعة لقريش ولغرورها وخيلائها واستعلائها على الناس، فمن أين لها بعد اليوم أن تحوز الأموال العظيمة دون أن تنفرج شفتان لتقولا لها: من أين لك هذا؟.

وكيف لها بعد اليوم أن تستعلي وتستبد، وتفرض على الناس في ظل الإسلام سلطانها عليهم في الجاهلية؟.

ولعل قادة الطبقة الثرية وزعماءها فكروا في أن يساوموا علياً على بذل طاعتهم له على أن يغضي عما سلف منهم، ويأخذهم باللين والهوادة فيما يستقبلون، فأرسلوا إليه

(1) النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، د. صبحي الصالح، ص91.
(2) نهج البلاغة، صبحي الصالح، رقم 131، ص189.

الوليد بن عقبة ابن أبي معيط، فجاء إليه وقال: «يا أبا الحسن، إنك قد وترتنا جميعاً. ونحن اخوتك ونظراؤك من بني عبد مناف. ونحن نبايعك اليوم على أن تضع عنا ما أصبناه من المال أيام عثمان، وأن تقتل قتلته، وإنا إن خفناك تركناك فالتحقنا بالشام».

فقال عليه السلام: **«أما ما ذكرتم من وتري إياكم فالحق وتركم، وأما وضعي عنكم ما أصبتم فليس لي أن أضع حق الله عنكم ولا عن غيركم...»**[1].

وقد كلمه الكثيرون ومنهم المغيرة بن شعبة بشأن ولاة عثمان فأشار عليه بأن يثبت هؤلاء الولاة على أعمالهم، ولكنه أبى عليه ذلك، وعزلهم بمن فيهم معاوية، وكلمه طلحة والزبير بشأن ولاية الكوفة والبصرة فردهما رداً رفيقاً.

ولما أيقن هؤلاء ومعهم الطبقة الثرية أنهم لن يفلحوا عن طريق المساومة والتهديد لجئوا إلى السعي لنقض البيعة، وقد جاء من أخبر علياً عليه السلام بأنهم يدعون الناس إلى رفض البيعة مدفوعين إلى ذلك بالإمتيازات الإقتصادية والإجتماعية التي فقدوها.

فخطب الناس، وكأنه أراد بذلك أن يكشف عناصر الفتنة الجديدة، ويخرج بالمسألة من حدود الهمس والعمل في الظلام إلى الصعيد العام، ويسلط عليها وعلى زعمائها النور ويفضح أهدافهم، ويطلع الأمة على المناورة التي تريد أن تحول نتائج الثورة إلى مغانم شخصية، وتعيد الأوضاع القديمة كما كانت، فلا تحصل الأمة من ثورتها إلا على تبديل الوجوه.

وقد أكد في هذه الخطبة عزمه على مواصلة تطبيق سياسة المنهج الذي بدأ به، فقال عليه السلام: **«فأما هذا الفيء فليس لأحد على أحد فيه أثرة؛ وقد فرغ الله من قسمته، فهو مال الله، وأنتم عباد الله المسلمون؛ وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا، وعهد نبينا بين أظهرنا فمن لم يرضَ به فليتولَّ كيف شاء»**[2].



ولكن الأرستقراطية الجديدة لم تقف مكتوفة اليدين إزاء سياسة علي عليه السلام

(1) شرح نهج البلاغة، 7/38ـ39.
(2) المصدر السابق، 7/39ـ40.

الشرعية هذه، فقامت بحركة التمرد الأولى في البصرة (حرب الجمل) بقيادة طلحة والزبير تحت ستار الثأر لعثمان، وما هي في واقعها إلا تدبير دبّره من لم يماش الحكم الجديد أهواءهم من بني أُمية وغيرهم من المنتفعين بعهد عثمان، وقد كان القائمون بهذه الحركة يريدون أن يعطفوا أزمة الحكم إلى جانبهم بعد أن يئسوا من مساعدة الإمام عليه السلام لهم على ما يبتغون، ولكن الإمام عليه السلام قضى على الحركة في مهدها، وفر من بقي من أنصارها إلى الشام، حيث قامت حكومة برياسة معاوية بن أبي سفيان، انضوت إليها جميع العناصر المنتفعة بعهد عثمان، والتي رأت في الحكم الجديد خطراً عليها وعلى امتيازاتها الطبقية وبينما كانت حكومة الإمام تسير على نهج إسلامي خالص، أي أنها كانت تحقق للأمة أقصى قدر مستطاع ـ في ظروفها السياسية والإقتصادية والعسكرية ـ من الرفاهية والعدالة والأمن كان معاوية يسير على نهج آخر في الحكم يقوم على شراء الضمائر بالمال، وتفضيل طائفة بحرمان طائفة أخرى، وتعطيل السبل وتعكير الأمن. ولم يكن معاوية ليبالي في أن ينزل بدافعي الضرائب من الزراع والتجار أفدح الظلم في سبيل أن يحصل منهم على مبلغ من المال يغذي به أطماع حفنة من رؤساء القبائل العربية يؤلفون جهازه العسكري المتأهب دائماً لقمع أي حركة تحررية تقوم بها جماعة من الناس.

وقد كان من الطبيعي أن تقوم حركة تمرد أخرى وراء الواجهة نفسها بزعامة معاوية، فكانت صفين، وكان التحكيم ثم النهروان. ثم قتل عليه السلام بثمرة من ثمرات التحكيم بعد أن غرس في عقول الناس وقلوبهم المبادئ الإسلامية في الحكم وسياسة الجماعات.

خصائص حكومة علي عليه السلام:

... ليس علي بن أبي طالب بالشخصية التاريخية فحسب، إنما هو أمير المؤمنين، أي أنه بالنسبة لنا الأسوة والقدوة والنموذج. نموذج للحكومة التي ينبغي على حكامها وقادتها أن يقتدوا بسلوكه ومنهجه. وعلى الإسلاميين أن يتخذوا سلوك ومنهج علي بن أبي طالب قدوة ونموذجاً لهم.

والآن إذا أردنا أن نقف على المحطات البارزة واللامعة في حياة مولى المتقين وأن

نتعرف على شخصيته وحكومته، أظن أنه علينا أن ندرس نقطتين أساسيتين وحساستين. وأتصور أن شخصية أمير المؤمنين عليه السلام بعنوان أنه الحاكم وخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله تدخل في صلب هذه النقاط، طبعاً لن نتعرض في هذا البحث إلى شخصية علي عليه السلام المعنوية والعرفانية، تلك الشخصية التي كانت دائماً مرتبطة بالفيض واللطف الدائم لله سبحانه، بل سنتحدث عن علي عليه السلام كحاكم إسلامي حكم الأمة الإسلامية لفترة من الزمن.

النقطة الأولى: البارز في حياة أمير المؤمنين كحاكم هو التزامه وتعبده الكامل بما جاء به الإسلام وما ورد في شريعته، فأمير المؤمنين الذي تربّى في كنف الإسلام وفي الوقت الذي كان الرسول يتولى الحكومة ويتحمل الأذى والمصاعب في سبيل الإسلام، كان علي عليه السلام الشاب المقاتل المقدام الذي لم يجلس في بيته وينتظر وقوع الحوادث، بل كان حاضراً في كل المواجهات والتحديات. فلقد سخّر كل إمكاناته وكمالاته الإنسانية في خدمة الإسلام حيث شارك في كل الحروب والغزوات التي جرت في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله باستثناء حرب واحدة لم يشارك فيها بناءاً على طلب الرسول حيث طلب منه البقاء في المدينة. فقدم حياته للإسلام وكان حاضراً دائماً ليضحي بروحه دفاعاً عن الإسلام.

وفي ذلك اليوم الذي اجتمع فيه المسلمون على شخص غير علي عليه السلام ليسلموه الأمرة والخلافة حيث اتبع جمع الناس مجموعة صغيرة انسلخت لتبايع غير علي عليه السلام، وعلي الذي كان يرى ويعلم بأن الخلافة من حقه وهو اللائق بها، وكان يستطيع إن أراد أن يواجه أولئك ويقوم بدعوة الناس وتحريضهم، لكنه عليه السلام لم يقم بذلك وضحى لمصلحة الإسلام. وكذلك فعل أيضاً بعد وفاة الخليفة الثاني، حيث قال له نبايعك ولكنه عليه السلام رفض ذلك فهذا مخالف لما يؤمن به ويتعارض مع تكليفه والتزامه. وأدى هذا الرفض به إلى أن يتأخر باستلام الخلافة ١٢ عاماً أخرى. وطوال فترة حياته التي سبقت تسلمه الخلافة كان دائماً يجاهد ويتحرك في سبيل خدمة الإسلام والشريعة لذا فمن الطبيعي أن يعمل على تطبيق الأحكام الإسلامية حين تسلمه للخلافة وعلى تحكيم الثوابت الإسلامية وهذه هي الخصوصية الأولى للأمير عليه السلام، وأنتم إذا أردتم

أن تقارنوا بين علي وبين الأشخاص الذين وقفوا في وجهه، ستجدون فرقاً أساسياً، فعلي عليه السلام لم يكن حاضراً إلا ليتحرك ويعمل لأجل الإسلام الذي قد عرفه وآمن به.

النقطة الثانية: في شخصية أمير المؤمنين عليه السلام والتي ترتبط بكونه حاكماً إسلامياً. فعلي الحاكم لم يكن مستعداً على الإطلاق أن يهادن ويصالح الأشخاص الذين لم يكونوا يتحركون في ضمن خطه ومسيرته. أي الذين لم يتحركوا في خط الإسلام وفي سبيل الله، وحياة علي تشير إلى ذلك، فعليٌّ عليه السلام تلميذ النبي صلى الله عليه وآله، لم يكن مستعداً للمسايرة كالنبي صلى الله عليه وآله نفسه، الذي كان يتحرك في سبيل تحقيق الأهداف المقدسة. وحياة النبي كلها شاهدة على رفض المهادنة والأهواء والأنانيات، ولو كان أمير المؤمنين عليه السلام مستعداً أن يهادن لكان استطاع أن يحد من نفوذ القادة والشخصيات المعادية له والبارزة في وسط الناس والتي تتمتع بقدر من الإحترام لديهم، وأن يخرس ألسنة الذين انتقدوه، ولو كان أيضاً مستعداً أن يخفف من مواجهته لأعداء الإسلام والحكومة الإسلامية فمن المؤكد لم تكن لتواجهه كل هذه المشاكل والمصاعب له.

وهنا كان امتياز علي عليه السلام الحاكم، عن غيره من الحكام، فأولئك كانوا مستعدين أن يتحالفوا مع أي طرف ضد عدوهم فنرى معاوية وعمرو بن العاص المتنافسين والمتخالفين مع بعضهما، يقفان جنباً إلى جنب لمواجهة علي عليه السلام. وكذلك إذا نظرنا إلى طلحة والزبير من جهة وإلى معاوية من جهة أخرى. فلقد كانوا متعادين، لكنهم كانوا مستعدين أن يتحدوا وأن يقفوا جنباً إلى جنب لمحاربة علي بن أبي طالب عليه السلام بينما علي عليه السلام رفض أن يتحالف مع طلحة والزبير ضد معاوية. فبالنسبة لأمير المؤمنين عليه السلام هذا التحالف مخالف للنهج الإسلامي، معاوية عدو ومخالف وبنفس الدليل فطلحة والزبير أعداء لا يمكن مسايرتهم والتحالف معهم، هذه أيضاً من خصوصيات علي عليه السلام.

الإمام الخامنئي دام ظله «الدروس العظيمة»



أسئلة حول الدرس

1 ـ لماذا لم يقبل الإمام علي عليه السلام الخلافة مباشرة بعد مقتل عثمان؟ وماذا اشترط؟

2 ـ ما هي طبيعة الإصلاحات المالية التي قام بها الإمام علي عليه السلام بعد توليه الخلافة؟

3 ـ ما هي الخصائص العامة لحكومة الأمير عليه السلام؟

9

رفض الإمام عليه السلام للمساومات

ثمة ظاهرة واضحة في حياة الإمام علي عليه السلام السياسية هي أنه وطوال الأربع أو الخمس سنوات التي مارس فيها الحكم وإلى أن سقط شهيداً في محراب العبادة في مسجد الكوفة لم يكن مستعداً بأي شكل من الأشكال وبأي صيغة من الصيغ لتقبل فكرة أنصاف الحلول بالنسبة إلى تصفية الانحراف أو لتقبل أي معنى من معاني المساومة على حساب الأمة.

فقد كلمه الكثيرون ومنهم المغيرة بن شعبة بشأن ولادة عثمان، فأشار عليه أن يثبت هؤلاء الولاة على أعمالهم، وأن يبقي معاوية والياً على الشام ولو مؤقتاً ريثما تستتب الأمور وتصبح الظروف مهيئة لاستبداله، وكلمه طلحة والزبير بشأن ولاية الكوفة والبصرة، وربما أشار عليه البعض العودة عن قراره باسترداد الأموال التي حازتها الطبقة الأرستقراطية في عهد عثمان وعدم المطالبة بها حتى حين.

ولكنه عليه السلام رفض كل هذه الصيغ واستمر في نهجه السياسي يرفض كل مساومة ومعاملة من هذا القبيل.

وقد استرعى هذا النهج الانتباه من ناحيتين:

أولاً: من الناحية السياسية: فقد لوحظ عليه السلام أن عدم تقبله بأي شكل من الأشكال لهذه المساومات وأنصاف الحلول كان يُعَقّد عليه الموقف ويثير أمامه الصعاب ويجعله عاجزاً عن مواجهته لمهمته السياسية والمضي بخط تجربته إلى حيث يريد، ومن هنا قال معاصروه وغير معاصريه إنه كان بإمكانه أن يسجل نجاحاً كبيراً، وأن يحقق توفيقاً من الناحية السياسية أكثر، لو أنه قبل أنصاف الحلول، ومارس هذا النوع من المساومات ولو بشكل مؤقت..

ثانياً: من الناحية الفقهية: وهي ناحية ما يعرف في الفقه الإسلامي بقانون التزاحم

الذي يعني: أن الواجب الأهم إذا توقف على مقدمة محرمة، لا يجوز تركه بحجة حرمة المقدمة، بل يجب المحافظة على الواجب الأهم وتقديمه على الحرام، فمثلاً: عندما يتوقف إنقاذ إنسان من الغرق على اجتياز أرض لا يرضى صاحبها باجتيازها، ففي هذه الحالة يجيز لنا الشارع المقدس اجتياز الأرض، حتى ولو بدون رضى المالك وتسقط حرمة هذه الملكية، لأن عملية الإنقاذ أهم من المقدمة المحرمة وهي اجتياز الأرض دون رضى المالك، وذلك كما فعل الرسول ﷺ في بعض غزواته، عندما كان جيشه يضطر لاجتياز أراض مزروعة يمتلكها أصحابها، وكانوا يطالبون الرسول ﷺ بالتعويض عما أصاب جيش الرسول محصولاتهم الزراعية كلها، فالرسول كان يعمل هذا لأن النتيجة كانت أهم من المقدمة، إذ كان هذا الجيش يسير من أجل أن يغير وجه الدنيا ويظهر الدين كله، فما قيمة تلف مزرعة صغيرة، إذ كان الجيش الإسلامي بأهدافه العظيمة سوف يحفظ لنا المبدأ الإسلامي العادل في توزيع الثروات في العالم على الخط الطويل.

إذن لماذا لم يطبق الإمام عليه السلام هذه القاعدة الفقهية في تصرفاته ومواقفه السياسية؟. فيمضي ولاية معاوية على الشام مؤقتاً، ويسكت عن الأموال التي حازتها الطبقة الأرستقراطية بطريقة غير مشروعة في عهد عثمان في سبيل الحصول على ما هو أهم وهو تملك زمام قيادة المجتمع الإسلامي وإقامة حكومة الله على الأرض؟؟

الواقع هو أنه كان لا بد للإمام عليه السلام أن ينهج الطريق الذي انتهجه ولم يكن بإمكانه أن يقبل هذه المساومات وأنصاف الحلول ولو كمقدمة، وقانون باب التزاحم الفقهي هنا ليس صالحاً للانطباق على موقفه عليه السلام وذلك للنقاط التالية:

أولاً: كان من أهم أهداف الإمام عليه السلام هو ترسيخ قاعدة حكمه في قطر جديد من أقطار العالم الإسلامي ألا وهو العراق، وكان شعب العراق مرتبطاً روحياً وعاطفياً بالإمام عليه السلام ولم يكن يعي رسالة علي عليه السلام وأهدافه وعياً حقيقياً كاملاً. ولهذا كان الإمام بحاجة ملحة لبناء طليعة واعية وجيش عقائدي يعتمد عليه الإمام في تسيير حكمه، ويكون أميناً على الرسالة وأهدافها، وساعداً له، وعاملاً على ترسيخ هذه الأهداف في كل أرجاء العالم الإسلامي.

والإمام ﷺ لم يكن يملك هذه الطليعة بل كان بحاجة إلى أن يبنيها ويربيها، ومن المحتوم أنه لا يمكن بناء وتربية هذه القاعدة في جو من المساومات وأنصاف الحلول حتى لو كانت هذه المساومات جائزة شرعاً ومستوفية لشروط التزاحم، وذلك لأن التربية الروحية التي استهدف الإمام في طليعته الواعية لا يمكن أن تنمو بذورها في أوساط قواعده الشعبية، وهو يعيش جو المساومات وأنصاف الحلول حتى ولو كانت جائزة من الناحية الشرعية لأن جوازها لا يغير من مدلولها التربوي شيئاً، ولا من دورها في تكوين نفسية الأشخاص من حوله.

ولهذا كان لا بد من الحفاظ على صفاء وطهر عملية التربية لبناء هذا الجيش العقائدي، كان لا بد لآلاف من مالك الأشتر أن يشهدوا إنساناً لا تزعزعه المغريات ولا يتنازل إلى أي نوع من أنواع المساومات حتى يستطيعوا من خلال حياة هذا الرجل العظيم أن يتبينوا المدلول الرسالي الكامل لأطروحته والأبعاد الواسعة للصيغة الإسلامية للحياة... وحتى يستطيعوا احتضان أهدافه من أجلها في حياته وبعد وفاته...

ولم يكن بالإمكان ممارسة بناء نفسي وروحي وفكري وعاطفي حقيقي لشخص يعيش في جو من المساومات وأنصاف الحلول وجعله يكتسب روحية أبي ذر أو مالك الأشتر، أي يكتسب روحية معركة ليست للذات وإنما هي للأهداف الكبيرة التي هي أكبر من الذات، فإن ذلك يعني حصول نكسة بالنسبة إلى عملية التربية لهذا الجيش العقائدي، وكان فقدان هذا الجيش العقائدي يعني فقدان القوة الحقيقية التي يعتمد عليها الإمام ﷺ في بناء دولته.

ثانياً: جاء أمير المؤمنين ﷺ في أعقاب ثورة، ولم يجيء في حالة اعتيادية، ومعنى ذلك أن البقية الباقية من العواطف الإسلامية قد تجمعت ثم ضغطت ثم انفجرت في لحظة ارتفاع ثورية.. وماذا ينتظر القائد الرسالي غير لحظة ارتفاع في حياة الأمة لكي يستثمرها في سبيل إعادة هذه الأمة إلى سيرها الطبيعي..

ولم يكن المزاج النفسي والروحي وقتئذٍ لشعوب العالم الإسلامي ذلك المزاج الاعتيادي الهادئ الساكن لكي يمشي حسب مخطط تدرجي، وإنما كان مزاجاً ثورياً

استطاع أن يرتفع إلى مستوى قتل الحاكم والإطاحة به لأنه انحرف عن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ولم يكن من الهيّن إعادة هذا الارتفاع.

وبعد ذلك كان لا بد للحاكم الثوري الذي يستلم زمام المسؤولية في مثل هذه اللحظة أن يعمق هذه اللحظة ويمددها ويرسخ مضمونها العاطفي والنفسي عن طريق هذه الإجراءات الثورية التي قام بها أمير المؤمنين عليه السلام...

لو أن الإمام علي عليه السلام أبقى الباطل مؤقتاً وأمضى التصرفات الكيفية التي قام بها الحكام من قبل، وسكت عن معاوية وعن أحزاب أخرى مشابهة له، إذن لهدأت العاصفة ولانكمش هذا التيار العاطفي الثوري، وبعد انكماشه سوف لن يكون بمقدور الإمام عليه السلام أن يقوم بمثل هذه الإجراءات.

ثالثاً: كان الإمام عليه السلام حريصاً على أن تدرك الأمة أن المعركة بينه عليه السلام وبين خصومه وبينه وبين معاوية ليست معركة بين شخصين أو بين قبيلتين، وإنما هي معركة بين الإسلام والجاهلية، وكان هذا الحرص سوف يمنى بنكسة كبيرة لو أنه عليه السلام اقرَّ معاوية ومخلفات عثمان السياسية والمالية ولو إلى برهة من الزمن، إذ سوف يترسخ حينئذٍ في أذهان المسلمين بشكل عام شك في أن القضية رسالية، وسوف تظهر وكأنها قضية أهداف حكم، وسوف يتأكد ذلك الشك الذي نما عند الأمة في أمير المؤمنين عليه السلام، بالرغم من أنه لم يكن يوجد له أي مبرر موضوعي، فبالرغم من أن المبرر الوحيد للشك كان مبرراً ذاتياً فقد استفحل هذا الشك، وامتحن هذا الإمام العظيم عليه السلام بهذا الشك ومات واستشهد والأمة شاكة... ثم استسلمت الأمة بعد هذا وتحولت إلى كتلة هامدة بين يدي الإمام الحسن عليه السلام بالرغم من أن الشك لم يكن له مبرر موضوعي فكيف إذا افترضنا وجود مبررات موضوعية له ولو بحسب الصورة الشكلية؟!

رابعاً: لم يكن علي عليه السلام يتعامل مع الفترة الزمنية القصيرة التي عاشها فقط، وإنما كان يحمل هدفاً أكبر وأوسع وأعمق من ذلك، كان يحس بأنه قد أدرك المريض وهو في آخر مرضه حيث لا ينفع العلاج ولكنه كان يفكر في أبعاد أطول وأوسع للمعركة فالإسلام كان بحاجة إلى أن يقدم له في خضم الانحراف بين يدي الأمة أطروحة

واضحة صريحة نقية لا شائبة فيها ولا غموض ولا التواء ولا تعقيد ولا مساومة ولا نفاق ولا تدجيل.

لأن الأمة كتب عليها منذ نجحت السقيفة في أهدافها إلى أيام معاوية وعبد الملك بن مروان وهارون أن تعيش الحكم الإسلامي المنحرف مشوهاً ممسوخاً لا يحفظ الصلة العاطفية والروحية والفكرية بين الأمة ككل وبين الرسالة التي هي أشرف رسالات السماء.

فكان لا بد لحفظ هذه الصلة بين جماهير الأمة الإسلامية وهذه الرسالة من إعطاء صورة واضحة للإسلام وقد أعطيت هذه الصورة نظرياً على مستوى ثقافة أهل البيت عليهم السلام وعملياً على مستوى تجربة الإمام عليه السلام فكان الإمام عليه السلام في تأكيده على العناوين الأولية في التشريع الإسلامي وفي تأكيده على الخطوط الرئيسية في الصيغة الإسلامية للحياة، يريد أن يقدم المنهاج الإسلامي واضحاً غير ملوث بلوثة الانحراف التي كتبت على تاريخ الإسلام مدة طويلة من الزمن، ولكي يتحقق هذا الهدف كان عليه أن يعطي هذه التجربة بهذا النوع من الصفاء والنقاء والوضوح دون أن يعمل ما أسميناه بقوانين باب التزاحم.

وهكذا ظل الإمام عليه السلام صامداً مواجهاً لكل المؤامرات التي كانت الأمة تساهم في صنعها لجهلها وعدم وعييها وعدم شعورها بالدور الحقيقي الذي كان يمارسه عليه السلام في سبيل حماية وجودها من الضياع وكرامتها من الابتزاز حتى خرَّ صريعاً شهيداً في محراب العبادة على يد أشقى الأولين والآخرين عبد الرحمن بن ملجم، حيث تولى الإمام الحسن عليه السلام الإمامة من بعده.

أسئلة حول الدرس

1 ـ لماذا لم يطبق الإمام علي عليه السلام قاعدة التزاحم في تصرفاته ومواقفه السياسية؟

2 ـ من هي الشخصيات التي حاولت فرض المساومة على الإمام علي عليه السلام؟ وكيف تعاطى الأمير معها؟

3 ـ ما هي الفئات التي واجهها الأمير عليه السلام في حكمه وكيف تعاطى معها؟

10

الإمام الحسن بن علي عليه السلام

لقد اشترك الإمام الحسن مع أبيه في حياته السياسية والعسكرية وكان بجانبه في كل حروبه وكان له دور حاسم فيها، حيث خاض تلك المعارك وأخمد تلك الفتن مجرداً من كل دافع سوى دافع الحرص على نقاء الإسلام.

الإمام الحسن بعد استشهاد أبيه عليه السلام:

قبل استشهاد الإمام علي عليه السلام، وفي أيام جرحه أوصى الإمام الراحل إلى ولده الحسن عليه السلام قائلاً له: «**يا بنيّ إنه أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله أن أوصي إليك وأدفع إليك كتبي وسلاحي، كما أوصى إليّ ودفع إليّ كتبه وسلاحه وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين...الخ**»[1].

اتجه الإمام الحسن عليه السلام في اليوم الذي تمت فيه مراسم دفن الإمام علي عليه السلام إلى مسجد الكوفة، وقد سبقته الجماهير في حشود هائلة إلى الجامع، وهي تعيش صدمة هول المصاب، باستشهاد قائدها وإمامها الإمام علي عليه السلام وقد غص بهم الجامع على سعته فوقف الحسن عليه السلام خطيباً، وحوله من بقي من وجوه المهاجرين والأنصار، وهو يوجه أول بيان له بعد رحيل القائد العظيم عليه السلام مؤبناً أباه ومعرفاً بنفسه للجماهير قائلاً: «**لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ولم يدركه الآخرون بعمل، لقد كان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله فيقيه بنفسه وأينما وجهه رسول الله كان جبرائيل عن يمينه، وميكائيل عن يساره فلا يرجع حتى يفتح الله عليه**».

---

(1) أعلام الورى، للطبرسي ص206 - وكشف الغمة في معرفة الأئمة، ج2، ص155 - والبحار، ج42، ص250.

ثم تمثل له أبوه وما عاناه في حياته من الآلام والمتاعب، ليتوقف عن الإسترسال بخطبته حتى بكى وبكى معه الناس.

ثم استأنف ﷺ بيانه معرفاً بنفسه وطارحاً مواصفات القائد الراحل كما طرح مؤهلاته هو ومكانته في الإسلام ولدى المسلمين وكونه الأولى بقيادتهم، قائلاً: «**أيها الناس من عرفني ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي وأنا ابن النبي والوصي وأنا ابن البشير النذير والداعي إلى الله بإذنه وأنا ابن السراج المنير، وأنا من أهل البيت ﷺ الذين كان جبرائيل ينزل إلينا ويصعد من عندنا، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وافترض مودتهم على كل مسلم**»[1].

وبعد الفراغ من قراءة بيانه نهض ابن عباس يطلب من الناس البيعة للحسن ﷺ بقوله: «**معاشر الناس، هذا ابن نبيكم ووصي إمامكم فبايعوه**».

وقد تمت البيعة للحسن ﷺ خليفةً وأميراً للمؤمنين في الكوفة وفي أمصار أخرى كالحجاز واليمن وفارس، وسائر المناطق الإسلامية الأخرى، وكان أول من بايع هو قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري[2].

الإمام في الحكم وظروف الصلح وأسبابه:

تولى الإمام الحسن ﷺ مسؤولية الخلافة في مناخ قلق غير مستقر وفي ظروف التعقيد والصراع، والتي برزت وتأزمت في أواخر حياة أبيه الإمام علي ﷺ.

لقد كانت حروب الجمل وصفين والنهروان. والحروب الخاطفة التي نشبت بين القطع السورية وبين مراكز الحدود في العراق والحجاز واليمن بعد التحكيم قد ولدت عند أصحاب الإمام ﷺ حنيناً إلى السلم والموادعة، فقد مرّت عليهم خمس سنين وهم لا يضعون سلاحهم من حرب إلا ليشهروه في حرب أخرى، وكانوا لا يحاربون جماعات غريبة عنهم، وإنما يحاربون عشائرهم وإخوانهم بالأمس، ومن عرفهم وعرفوه..

وقد عبر الناس عن رغبتهم في الدعة وكراهيتهم للقتال بتثاقلهم عن الخروج لحرب

---

(1) سيرة الأئمة، الحسني ج 1، ص526 - وحياة الإمام الحسن، القرشي، ج2، ص32.

(2) ن.م، ص557.

الفرق السورية التي كانت تغير على الحجاز واليمن وحدود العراق، وتثاقلهم عن الإستجابة للإمام حين دعاهم للخروج ثانية إلى صفين.

فلما استشهد الإمام علي وبويع الحسن بالخلافة برزت هذه الظاهرة على أشدها وبخاصة حين دعاهم الحسن للتجهز لحرب الشام، حيث كانت الإستجابة بطيئة جداً.

وبالرغم من أن الإمام الحسن عليه السلام قد استطاع بعد ذلك أن يجهز لحرب معاوية جيشاً ضخماً إلا أنه كان جيشاً كتبت عليه الهزيمة قبل أن يلاقي العدو بسبب التيارات المتعددة التي كانت تتجاذبه، فقد:

«خف معه أخلاط من الناس: بعضهم شيعة له ولأبيه، وبعضهم محكمة أي خوارج يؤثرون قتال معاوية بكل حيلة، وبعضهم أصحاب فتن وطمع في الغنائم، وبعضهم شكاك، وأصحاب عصبية اتبعوا رؤساء قبائلهم»[1].

وقد كان رؤساء القبائل هؤلاء قد باعوا أنفسهم من معاوية، الذي كتب إلى كثير منهم يغريهم بالتخلي عن الحسن والإلتحاق به، وأكثر أصحاب الحسن لم يستطيعوا مقاومة هذا الإغراء فكاتبوا واعدين بأن يسلموه الحسن حياً أو ميتاً. وحين خطبهم الإمام الحسن عليه السلام ليختبر مدى إخلاصهم وثباتهم هتفوا به من كل جانب: «البقية البقية»، بينما هاجمته طائفة منهم تريد قتله، هذا في الوقت الذي أخذ الزعماء يتسللون تحت جنح الليل إلى معاوية بعشائرهم.

ولما رأى الإمام الحسن عليه السلام ـ أمام هذا الواقع السيئ ـ أن الظروف النفسية والإجتماعية في مجتمع العراق جعلت هذا المجتمع عاجزاً عن النهوض بتبعات القتال وانتزاع النصر، ورأى أن الحرب ستكلفه استئصال المخلصين من أتباعه بينما يتمتع معاوية بنصر حاسم، حينئذٍ جنح إلى الصلح بشروط منها: ألا يعهد معاوية لأحد من بعده، وأن يكون الأمر للحسن، وأن يترك الناس ويؤمنوا.

ولقد كان هذا هو الطريق الوحيد الذي يستطيع الحسن أن يسلكه باعتباره صاحب رسالة قد اكتنفته هذه الظروف السيئة المؤسفة.

---

(1) أعيان الشيعة، قسم أول، ص50ـ51.

لقد كان من الممكن بالنسبة لقائد محاط بنفس الظروف السيئة التي كان الإمام الحسن عليه السلام محاطاً بها أن يتخذ من الأحداث أحد ثلاثة مواقف:

الأول: أن يحارب معاوية رغم الظروف السيئة، ورغم النتائج المؤلمة التي تترتب على هذا الموقف.

الثاني: أن يسلم السلطة إلى معاوية، وينفض يده من الأمر، ويتخلى عن أهدافه، ويقنع بالغنائم الشخصية.

الثالث: أن يخضع للظروف المعاكسة فيتخلى مؤقتاً عن الصراع الفعلي المسلح، لكن لا ليرقب الأحداث فقط، وإنما ليكافح على صعيد آخر، فيوجه الأحداث في صالحه وصالح أهدافه.

ما كان للحسن باعتباره صاحب رسالة أن يتخذ الموقف الأول، لأنه لو حارب معاوية في ظروفه التي عرضناها، وبقواه المفككة المتخاذلة لكانت نتيجة ذلك أن يقتل ويستأصل المخلصون من أتباعه، ولا شك أنه حينئذٍ كان يحاط بهالة من الإكبار والإعجاب لبسالته وصموده، ولكن النتيجة بالنسبة إلى الدعوة الإسلامية ستكون سيئة إلى أبعد حد، فإنها كانت ستفقد فريقاً من أخلص حماتها دون أن تحصل على شيء سوى أسماء جديدة تضاف إلى قائمة شهدائها.

كذلك ما كان له باعتباره صاحب رسالة أن ينفض يده من كل شيء ويسترسل في حياة الدعة والرغد، والخلو من هموم القيادة والتنظيم.

لقد كان الموقف الثالث وهو الموقف الذي اتخذه الإمام الحسن عليه السلام هو الموقف الوحيد الصحيح بالنسبة إليه، وذلك أن يعقد مع معاوية هدنة يعد فيها المجتمع للثورة.

وذلك لأننا نسمح لأنفسنا أن نقع في خطأ كبير حين ننساق إلى الإعتقاد بأن الإمام الحسن عليه السلام قد اعتبر الصلح خاتمة مريحة لمتاعبه، فما صالح الإمام الحسن عليه السلام ليستريح، وإنما ليكافح من جديد ولكن على صعيد آخر.

فإذا كان الناس قد كرهوا الحرب لطول معاناتهم لها ورغبوا في السلم انخداعاً بحملة الدعاية التي بثها فيهم عملاء معاوية، إذ منوهم بالرخاء والأعطيات الضخمة، والدعة والسكينة، وطاعة لرغبات زعمائهم القبليين، فإن عليهم أن يكتشفوا بأنفسهم

مدى الخطأ الذي وقعوا فيه حين ضعفوا عن القيام بتبعات القتال، وسمحوا للأماني بأن تخدعهم ولزعمائهم بأن يضللوهم، ولا يمكن أن يكتشفوا ذلك إلا إذا عانوا هذا الحكم بأنفسهم: عليهم أن يكتشفوا طبيعة هذا الحكم وواقعه، وهو ما يقوم عليه من اضطهاد وحرمان، ومطاردة مستمرة، وخنق للحريات وعلى الإمام الحسن وأتباعه المخلصين أن يفتحوا أعين الناس على هذا الواقع وأن يهيئوا عقولهم وقلوبهم لاكتشافه، والثورة عليه، والإطاحة به.

ولم يطل انتظار أهل العراق، فقد قال لهم معاوية حين دخل الكوفة: «يا أهل الكوفة! أترونني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج؟ وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجون، ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون. ألا إن كل دم أصيب في هذه مطلول، وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين»[1].

ثم اتبع ذلك طائفة من الإجراءات التي صدمت العراقيين:

1 ـ أنقص من أُعطيات أهل العراق ليزيد في أُعطيات أهل الشام.

2 ـ وحملهم على أن يحاربوا الخوارج فلم يتح لهم أن ينعموا بالسلم الذي كانوا يحنون إليه.

3 ـ ثم طبق (شتم أو سب) بحقهم سياسة الإرهاب والتجويع والمطاردة.

4 ـ ثم أعلن سب أمير المؤمنين علي عليه السلام على منابر المسلمين.

وبينما راح الزعماء القبليون يجنون ثمرات هذا العهد بدأ العراقيون يكتشفون رويداً رويداً طبيعة هذا الحكم الظالم الشرس الذي سعوا إليه بأنفسهم، وثبتوه بأيديهم.

«وقد جعل أهل العراق يذكرون حياتهم أيام علي فيحزنون عليها، ويندمون على ما كان من تفريطهم في جنب خليفتهم ويندمون على ما كان من الصلح بينهم وبين أهل الشام، وجعلوا كلما لقي بعضهم بعضاً تلاوموا فيما كان، وأجالوا الرأي فيما يمكن أن يكون، ولم تكد تمضي أعوام قليلة حتى جعلت وفودهم تفد إلى المدينة للقاء الحسن، والقول له والإستماع منه».

---

(1) شرح نهج البلاغة، 16/4.

وكثيراً ما جاء العراقيون إلى الحسن عليه السلام يطلبون منه أن يثور، ولكنه كان يعدهم المستقبل ويعدهم للثورة. وها هو يجيب حجر بن عدي الكندي بقوله عليه السلام: «**إني رأيت هوى عظم الناس في الصلح، وكرهوا الحرب فلم أُحب أن أحملهم على ما يكرهون، فصالحت بقياً على شيعتنا خاصة من القتل، ورأيت دفع هذه الحرب إلى يوم ما، فإن الله كل يوم هو في شأن**»[1].

وإذن فهذه فترة إعداد وتهيؤ حتى يأتي اليوم الموعود، حين يكون المجتمع قادراً على الثورة مستعداً لها، أما الآن فلم يبلغ المجتمع هذا المستوى من الوعي، بل لا يزال أسير الأماني والآمال، هذه الأماني والآمال التي بثت فيه روح الهزيمة التي صورها الإمام الحسن عليه السلام لعلي بن محمد بن بشير الهمداني حين قال له: «**ما أردت بمصالحتي معاوية إلا أن أدفع عنكم القتل عندما رأيت من تباطؤ أصحابي عن الحرب، ونكولهم عن القتال، ووالله لئن سرنا إليه بالجبال والشجر ما كان بد من إفضاء هذا الأمر إليه**»[2].

وإذن فقد كان دور الحسن أن يهيئ عقول الناس وقلوبهم للثورة على حكم الأمويين، هذا الحكم الذي كان يشكل إغراءً قوياً للعرب في عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام والذي غدا فتنة للعراقيين بعده حملتهم على التخلي عن الإمام الحسن عليه السلام في أحلك الساعات، وذلك بأن يدع لهم فرصة اكتشافه بأنفسهم، مع التنبيه على ما فيه من مظالم، وتعد لحدود الله.

أسئلة حول الدرس



1 ـ كيف وصل الإمام الحسن عليه السلام إلى خيار الصلح؟

2 ـ ماذا كان مآل الصلح وإلى أين وصل؟

3 ـ لماذا لم يثر الإمام الحسن عليه السلام على معاوية لنقضه الصلح؟

---

(1) الدينوري، الأخبار الطوال، ص220.

(2) الأخبار الطوال، ص221.

11

الإمام الحسين بن علي عليه السلام (1)

سياسة معاوية ومبررات الثورة :

بعد اضطرار الإمام الحسن عليه السلام إلى الصلح والتخلي عن الحكم مؤقتاً تحت ضغط الأحداث استولى معاوية بن أبي سفيان على الخلافة واتسقت له الأمور، وسيطر على العالم الإسلامي كله بعد أن أُخذت له البيعة على الناس في شوال سنة إحدى وأربعين للهجرة.

وقد مارس معاوية خلال حكمه سياسة بعيدة عن قيم الإسلام، كانت تقوم على المبادئ التالية:

١ ـ الإرهاب والتجويع.

٢ ـ إحياء النزعة القبلية واستغلالها.

٣ ـ التخدير باسم الدين وشل الروح الثورية.

ولنأخذ هذه المبادئ بشيء من التفصيل:

1 ـ سياسة الإرهاب والتجويع:

لقد اتبع معاوية سياسة الإرهاب والقتل والتجويع بالنسبة إلى الرعايا المسلمين الذين لا يتفقون معه في الهوى السياسي، وإطلالة قصيرة على تاريخ هذه الفترة من حياة المسلمين تثبت هذه الدعوى.

حدث سفيان بن عوف الغامدي، وهو أحد قواد معاوية العسكريين، قال: «دعاني معاوية فقال: إني باعثك بجيش كثيف أداة وجلادة، فالزم لي جانب الفرات حتى تمر بهيت فتقطعها؛ فإن وجدت بها جنداً فأغر عليهم، وإلا فامض حتى تغير على الأنبار، فإن لم تجد جنداً فامض حتى توغل في المدائن. إن هذه الغارات يا سفيان على أهل

العراق ترعب قلوبهم، وتفرح كل من له هوى فينا منهم، وتدعو إلينا كل من خاف الدوائر، فاقتل كل من لقيته ممن هو ليس على مثل رأيك. وأخرب كل ما مررت به من القرى، وأحرب الأموال فإن حرب الأموال شبيه بالقتل وهو أوجع للقلب»[1].

ودعا معاوية بالضحاك بن قيس الفهري وأمره بالتوجه ناحية الكوفة، وقال له: «من وجدته من الأعراب في طاعة علي فأغر عليه».

«فأقبل الضحاك فنهب الأموال، وقتل من لقي من الأعراب، حتى مر بالثعلبية فأغار على الحاج فأخذ أمتعتهم، ثم أقبل فلقي عمرو بن عميس بن مسعود الذهلي، وهو ابن أخي عبد الله بن مسعود فقتله في طريق الحاج عند القطقطانة وقتل معه ناساً من أصحابه»[2].

واستدعى معاوية بسر بن أرطاة، ووجهه إلى الحجاز واليمن، وقال له: «سر حتى تمر بالمدينة فاطرد الناس، وأخف من مررت به، وانهب أموال كل من أصبت له مالاً ممن لم يكن دخل في طاعتنا، فإذا دخلت المدينة فأرهم أنك تريد أنفسهم، وأخبرهم أن لا براءة لهم عندك ولا عذر حتى إذا ظنوا أنك موقع بهم فاكفف عنهم.. وارهب الناس عنك فيما بين المدينة ومكة واجعلها شردات..».

وقال له: «لا تنزل على بلد أهله على طاعة علي إلا بسطت عليهم لسانك حتى يروا أنهم لا نجاة لهم، وأنك محيط بهم، ثم اكفف عنهم وادعهم إلى البيعة لي، فمن أبى فاقتله، واقتل شيعة علي حيث كانوا»[3].

فسار، وأغار على المدينة ومكة، فقتل ثلاثين ألفاً عدا من أحرق بالنار[4].

وقد استمر على هذه السياسة بعد أن قتل علي عليه السلام ولكنها إذ ذاك أخذت شكلاً أكثر تنظيماً وعنفاً وشمولاً.

وقد نص المؤرخون على أن هذا الإرهاب بلغ حداً جعل الرجل يفضل أن يقال عنه أنه

(1) شرح نهج البلاغة، 85/2ـ86.
(2) شرح نهج البلاغة، 116/2ـ117.
(3) المصدر السابق 6/2ـ7.
(4) المصدر السابق، 17/2 - وتفصيل أحداث بسر بن أرطاة، في الجزء نفسه، ص3ـ18.

زنديق أو كافر ولا يقال عنه أنه من شيعة علي عليه السلام[1]، وقد بلغ بهم الحال أنهم كانوا يخافون من النطق باسمه حتى فيما يتعلق بأحكام الدين التي لا ترجع إلى الفضائل التي كان الأمويون يخشون شيوعها، فكانوا يقولون «روى أبو زينب»[2]، وقال أبو حنيفة: أن بني أمية كانوا لا يفتون بقول علي ولا يأخذون به، وكان علي لا يذكر في ذلك باسمه.

وكانت العلامة باسمه بين المشايخ أن يقولوا: قال الشيخ[3].

وحظر الأمويون على الناس أن يسموا أبناءهم باسم علي عليه السلام[4].

وكتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة: «أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته».

فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً، ويبرؤون منه، ويقعون فيه وفي أهل بيته.

وكان أشد الناس بلاءً حينئذٍ أهل الكوفة، لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام، فاستعمل عليهم زياد بن سمية وضم إليه البصرة، فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف، لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام، فقتلهم تحت كل حجر ومدر وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم، وشردهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم.

فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي عليه السلام، فازداد البلاء والفتنة، فلم يبق أحد من هذا القبيل إلا وهو خائف على دمه أو طريد في الأرض[5].

وأجمل ذلك الإمام محمد بن علي بن الحسين الباقر عليه السلام، فقال: «**وقتلت شيعتنا بكل بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة، وكل من يذكر بحبنا والإنقطاع إلينا سجن أو نهب ماله، أو هدمت داره، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام**»[6].

---

(1) المصدر السابق، 44/11.
(2) المصدر السابق، 73/4.
(3) مناقب أبي حنيفة المكي، 117/1.
(4) شرح نهج البلاغة، 17/1.
(5) شرح نهج البلاغة، 11/44-46.
(6) المصدر السابق، 11/43-44.

وقد طبق ولاة معاوية على العراق - مهد التشيع لآل علي - هذه السياسة بوحشية لا توصف. فقد استعمل زياد سمرة ابن جندب على البصرة فأسرف هذا السفاح في القتل إسرافاً لا حدود له.

أما زياد بن سمية فكان يجمع الناس بباب قصره يحرضهم على لعن علي، فمن أبى عرضه على السيف[1] وكان يعذب بغير القتل من صنوف العذاب.

هذا عرض موجز للسياسة التي تتناول حياة الناس وأمنهم، وأما السياسة التي تتناول أرزاق الناس وموارد عيشهم فلا تقل قتامة وكلوحاً وإيغالاً في الظلم على سابقتها.

وهاك بعض الشواهد على ما نقول. كتب معاوية إلى عماله بعد عام الجماعة: «.. انظروا إلى من قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه. وشفع ذلك بنسخة أخرى: من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره»[2].

وكثيراً ما كان الأنصار يمكثون بلا عطاء ولا ذنب لهم إلا أنهم ينصرون أهل البيت عليهم السلام[3].

وكانوا إذا عصاهم أحدٌ من المسلمين قطعوا عطاءه ولو كان العاصون بلداً برمتها[4].

وكان من جملة الأساليب التي اتبعها معاوية لحمل الحسين عليه السلام على بيعة يزيد حرمان جميع بني هاشم من عطائهم حتى يبايع الحسين عليه السلام[5].

وها هو معاوية يعطي عمرواً بن العاص أرض مصر وأموالها وسكانها المعاهدين ملكاً حلالاً له، وقد جاء في صك هذا العطاء: أن معاوية أعطى عمرواً بن العاص مصر وأهلها هبة يتصرف كيف يشاء وحين استولى معاوية على العراق نقل بيت المال من الكوفة إلى دمشق، وزاد في أعطيات أهل الشام، وحط من أعطيات أهل العراق[6] وقد أوضح فلسفته في جمع المال بقوله: «الأرض لله، وأنا خليفة الله، فما آخذ من مال الله فهو لي، وما تركته كان جائزاً لي».

---

(1) المسعودي، مروج الذهب، 53/3.
(2) شرح نهج البلاغة، 44/11-46.
(3) زيدان، التمدن الإسلامي، 76/4.
(4) زيدان، التمدن الإسلامي، 76/4.
(5) ابن الأثير، الكامل 252/3 - والإمامة والسياسة 200/1.
(6) يوليوس ولها وزن، الدولة العربية وسقوطها، 158.

وهكذا حرم المسلمون من أموالهم لتنفق هذه الأموال على الزعماء القبليين، والقادة العسكريين، وزمر الكذابين على الله ورسوله.

وقد طبقت هذه السياسة ـ سياسة الإرهاب والتجويع ـ بالنسبة إلى المسلمين عموماً، وبالنسبة إلى كل من اتهم بحب علي وآله على الخصوص. لقد كان حب علي سرطان الحكم الأموي فعزموا على قطعه تماماً.

2 ـ إحياء النزعة القبلية واستغلالها:

دعا الإسلام إلى ترك التعصب للقبيلة والتعصب للجنس، واعتبر الناس جميعاً سواء من حيث الإنسانية المشتركة، وأقام مبادئه وتشريعاته على هذه النظرة الصائبة إلى الجنس البشري.

وفي الحديث: «**المؤمنون إخوة، تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم**».

ومما روي عن النبي ﷺ أنه قال في خطبته في حجة الوداع: «**أيها الناس، إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء، كلكم لآدم وآدم من تراب، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى**».

وروي عنه ﷺ: «**من قاتل تحت راية عمية، يغضب لعصبية أو يدعو لعصبية، أو ينصر عصبية، فقتل، قتل قتلة جاهلية**».

وقال الله تعالى مبيناً في الكتاب الكريم المقياس الإسلامي في التفاضل: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير**﴾[1].

بهذه الروح الإنسانية الرحبة الآفاق دعا الإسلام العرب إلى النظر إلى اختلاف القبائل والشعوب. وبهذه الروح الإنسانية الرحبة حاول الإسلام أن يجعل من القبائل العربية المسلمة أمة واحدة لا يمزقها التناحر القبلي الجاهلي، وإنما تربط أفرادها أخوة

(1) سورة الحجرات، الآية/13.

الإسلام ورسالة الإسلام، وحاول أن يجعل من المسلمين جميعاً ـ على اختلاف أوطانهم ولغاتهم ـ أمة واحدة متماسكة، تجمعها وحدة العقيدة، ووحدة الهدف والمصير.

وقد عمل النبي ﷺ طيلة حياته بأقواله وأعماله على تركيز هذه النظرة الإسلامية في وجدان المسلمين، وجعلها حقيقة في تفكيرهم، وتابعه على ذلك علي عليه السلام، فعمل على تركيزها بأعماله وأقواله طيلة حياته، بعد أن شهد عهد عثمان انحرافاً خطيراً عن هذه النظرة الإسلامية واتجاهاً خطيراً نحو الروح الجاهلية والعصبية التي اتبعها هو وعماله.

أما معاوية فقد استغل هذه الروح في ميدانين، فقد أثار بالقول والفعل العصبية القبلية عند القبائل العربية ليضمن ولاءها عن طريق ولاء زعمائها من ناحية. وليضرب بعضها ببعض حين يخشاها على سلطانه من ناحية أخرى. وأثار العصبية العنصرية عند العرب عموماً ضد المسلمين غير العرب. وهم الذين يطلق عليهم المؤرخون اسم الموالي.

ومن ذلك ما كان منه في شأن النزاع الذي حدث حول رياسة كندة وربيعة، فقد كانت للأشعث بن قيس الكندي، فعزله عنها علي ودفعها لحسان بن مخدوج من ربيعة، فلما بلغ ذلك معاوية أغرى شاعراً كندياً يقول شعراً يهيج به الأشعث وقومه، فقال شعراً عظَّم به شأن الأشعث وقومه، وهجا به حسان وربيعة.

وأرسل معاوية في سنة 38 للهجرة ابن الحضرمي إلى البصرة، ليضرم الفتنة بين قبائلها بإثارة ذكريات حرب الجمل وقتل عثمان، وقال له: «فانزل في مضر، واحذر ربيعة، وتودد الأزد، وانع ابن عفان، وذكرهم الوقعة التي أهلكتهم، ومن لمن سمع وأطاع، دنياً لا تفنى وأثرة لا يفقدها».

ولم تكن هذه السياسة هي اللون المفضل عند معاوية بالنسبة إلى سائر القبائل فحسب، بل كانت بهذه المنزلة عنده بالنسبة إلى أسرته الأموية ذاتها أيضاً، فقد كان ـ كما يقول ولها وزن ـ يسعى إلى أن يدخل القطيعة بين مختلف فروع الأسرة الأموية بالمدينة ليقضي بذلك على شوكتهم[1].

---

(1) الدولة العربية 112، نقلاً عن الطبري ـ وفي شرح نهج البلاغة 19/11 نقلاً عن الجاحظ: «وكان معاوية يحب أن يغري بين قريش».

وإذا كانت هذه هي خطته بالنسبة إلى أسرته ذاتها فليس لنا أن نطمع منه بسلوك أنبل بالنسبة إلى سائر القبائل التي كان يخشاها على سلطانه لأن الدوافع المشتركة كانت توحدها في الوقوف ضده.

ولا يجد الباحث صعوبة كبيرة في اكتشاف هذا الخلق في معاوية، فتاريخه مليء بالشواهد عليه.

فبراعته في استغلال ما لشعراء عصره من تأثير عظيم في الرأي العام من أجل مصالحه الخاصة جعلته يستغل هؤلاء الشعراء في هذا الميدان، فيحرضهم على القول في موضوعات الفخر والهجاء كالذي كان بين القبائل في الجاهلية[1].

ومن ذلك موقف شاعره الأخطل من الأنصار، فقد واصل شعراء الأنصار هجاء معاوية على أساس ديني، فرد عليهم الأخطل بهجاء قبلي جاهلي، ونظم فيهم قصيدته التي يقول فيها:

ذهبت قريش بالمكارم والعلى   واللؤم تحت عمائم الأنصار[2]

ومن جهة أخرى نراه يسعى إلى تفتيت وحدة الأنصار بإثارة الأحقاد الجاهلية التي كانت بين الحيين: الأوس والخزرج، فيضرب إحدى القبيلتين بالأخرى. وقد توصل إلى ذلك ببراعة، فقد كان يوعز إلى المغنين بإنشاد الشعر الجاهلي الذي تهاجت به القبائل قبل الإسلام.

ولقد كانت سياسة عمال معاوية على أمصار الدولة هي سياسة معاوية نفسه، فيعمد الوالي إلى إثارة العصبيات القبلية فيما بين القبائل ليشغلها عن مراقبته والإتحاد ضده، بالتناحر عنده فيما بينها، وقد كانت عاقبة هذه السياسة أن عادت إلى الإشتعال من جديد تلك العداوات والأحقاد القديمة التي كانت بين القبائل وكان من نتاجها بعد ذلك ظهور الشعر السياسي الحزبي والقبلي. فقد شبت نيران الهجاء بين شعراء الشيعة والخوارج والأمويين، واشتعلت نيران الهجاء والمفاخرات القبلية بين القبائل نفسها، وعاضد الشعراء الأحزاب بدوافع قبلية، فقد انضم الأخطل إلى

(1) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية 148/1 - وأحمد أمين، قصة الأدب في العالم 273/1.
(2) أحمد الشايب، تاريخ الشعر السياسي، 308ـ309.

الأمويين على قيس عيلان أعداء قومه التغلبيين، ثم انضم إلى الفرزدق على جرير لأن جريراً كان لسان القيسية على تغلب، وكان الفرزدق تميمياً، وجرير أخذته قيس عيلان.

وهكذا بث معاوية روح البغضاء والنفرة بين القبائل العربية، فشغلت هذه القبائل بأحقادها الصغيرة عن مقارعة خصمها الحقيقي: الحكم الأموي، والعمل الآخر الذي قام به معاوية في هذا المجال هو إثارته للعصبية العنصرية عند العرب عموماً ضد المسلمين غير العرب.

«تخاصم عربي ومولى بين يدي عبد الله بن عامر.

فقال المولى للعربي: لا أكثر الله فينا مثلك.

فقال العربي: بل كثر الله فينا مثلك.

فقيل له: يدعو عليك وتدعو عليه.

قال: نعم، يكسحون طرقنا، ويخرزون خفافنا، ويحوكون ثيابنا».

وقالوا: لا يصلح للقضاء إلا عربي.

واستدعى معاوية بن أبي سفيان الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب، وقال لهما: إني رأيت هذه الحمراء قد كثرت وأراها قد قطعت على السلف، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق، وعمارة الطريق.

وكان هذا الموقف العدائي من الموالي سبباً في امتهانهم وإرهاقهم بالضرائب، وفرض الجزية والخراج عليهم، وإسقاطهم من العطاء، فكان الجنود الموالي يقاتلون من غير عطاء، وكانوا يقولون: لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: حمار، أو كلب، أو مولى. وكانوا لا يكنونهم بالكنى، ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب، ولا يمشون بالصف معهم. ولا يقدمونهم في الموكب. وإن حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم، وإن أطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه أجلسوه على طريق الخباز لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب. ولا يدعونهم يصلون على الجنائز إذا حضر أحد من العرب وإن كان غريراً.

وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها إنما يخطبها إلى مواليها، فإن رضي مولاها زوجت وإلا فلا.

وإن زوجها الأب أو الأخ بغير إذن مواليه فسخ النكاح وإن كان قد دخل بها عد ذلك سفاحاً. وإذا أقبل العربي من السوق ومعه شيء فرأى مولى دفعه إليه ليحمله عنه فلا يمتنع، ولا السلطان يغير عليه. وكان إذا لقيه راكباً وأراد أن ينزل فعل[1].

وقد سبب هذا الموقف اللاإنساني من الموالي شق عصا المسلمين، وتراكم الأحقاد والعداوات بينهم، وكان سبباً في انعدام الرقابة الشعبية على الحاكمين.

3 ـ التخدير باسم الدين وشل الروح الثورية:

«المأخذ الدائم الذي يؤخذ على الأمويين هو أنهم كانوا ـ أصولاً وفروعاً أخطر أعداء النبي ﷺ، وأنهم اعتنقوا الإسلام في آخر ساعة مرغمين، ثم أفلحوا في أن يحولوا إلى أنفسهم ثمرة حكم الدين أولاً بضعف عثمان، ثم بحسن استخدام نتائج قتله. هذا، وأصلهم يفقدهم مزية زعامة أمة محمد ﷺ.

ومن المحن التي يلي حكم الدين أنهم أصبحوا قائمين عليه ـ مع أنهم كانوا ـ وما فتئوا مغتصبين لسلطانه، وقوتهم في جيشهم الذي هو على قدم الإستعداد في الشام، ولكن قوتهم لا يمكن أن تصبح حقاً»[2].

بهذه المشاعر ونظائرها واجه المسلمون الحكم الأموي، وقد أراد معاوية أن يتغلب على هذا الشعور العام بسلاح الدين نفسه، كما أراد التوصل إلى تحطيم ما لأعدائه من سلطان روحي على المسلمين عن هذا الطريق أيضاً. وقد برع في هذا الميدان كل البراعة، وواتته الظروف عليه فبلغ منه أقصى ما يرجو.

وقد حفظ لنا التاريخ بعض الأسماء البارزة من أعوان معاوية في هذا اللون من النشاط. قال ابن أبي الحديد: «ذكر شيخنا أبو جعفر الإسكافي أن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله؛ فاختلقوا ما أرضاه منهم أبو هريرة وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة ابن الزبير»[3].

(1) العقد الفريد 2/260ـ261 - وضحى الإسلام 1/18ـ34 - والتمدن الإسلامي 4/60ـ64 و91ـ96.

(2) ولهاوزن، الدولة العربية 53، وراجع تاريخ الإسلام السياسي 1/278ـ279. (3) شرح نهج البلاغة 4/61.

وقد استغل معاوية هؤلاء الأشخاص في سبيل إيجاد تبرير ديني لسلطان بني أمية، أو على الأقل لكبح الجماهير عن الثورة برادع داخلي هو الدين نفسه، يعمل مع الروادع الخارجية: التجويع، والإرهاب، والإنشقاق القبلي، هذا بالإضافة إلى مهمة أساسية أخرى ألقاها معاوية على عاتق هؤلاء الأشخاص وهي اختلاق «الأحاديث» التي تتضمن الطعن في علي وأهل بيته عليهم السلام ونسبتها إلى النبي ﷺ ويوضح لنا النص الآتي مدى اتساع هذه الشبكة التي كونها معاوية، ومدى تجاوبها مع رغباته.

كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة: «أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضائل أبي تراب وأهل بيته».

وكتب إليهم: «أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه والذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم، وقربوهم وأكرموهم، واكتبوا إليّ بكل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته».

ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه، لما كان يبعثه معاوية إليهم من الصلات والكساء والحباء والقطائع ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك في كل مصر وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفعه. فلبثوا بذلك حيناً.

«ثم كتب إلى عماله أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية. فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة؛ فإن هذا أحب إلي وأقر لعيني وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته».

فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وأُلقي إلى معلمي الكتاتيب، فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن وحتى علموه بناتهم ونساءهم، وخدمهم وحشمهم فلبثوا بذلك ما شاء الله. فظهر حديث كثير موضوع، وبهتان منتشر ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة.

وقد روى ابن عرفة المعروف بنفطويه ـ وهو من أكابر المحدثين وأعلامهم في تاريخه ما يناسب هذا الخبر وقال: «إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أمية تقرباً إليهم بما يظنون أنهم يرغمون به أنوف بني هاشم»[1].

وقد تجلى «سخاء» معاوية في هذا الميدان بوضوح فها هو ذا يبذل (للصحابي) سمرة بن جندب أربعمائة ألف درهم على أن يروي أن هذه الآية: **﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا، ويشهد الله على ما في قلبه، وهو ألد الخصام. وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد﴾**[2].

قد نزلت في علي بن أبي طالب. وأن الآية الثانية نزلت في ابن ملجم وهي قوله تعالى: **﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله..﴾**[3] **فروى ذلك**[4].

وأما أبو هريرة فقد كافأه معاوية بولاية المدينة لأنه روى عن النبي ﷺ في شأن علي وبني أمية ما يلائم ذوق معاوية وأهدافه السياسية[5].

فمن ذلك يرجع إلى تمجيد بني أمية ـ وعلى الأخص عثمان ومعاوية ـ ويجعلهم في مرتبة القديسين. كهذا الذي رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ «إن الله ائتمن على وحيه ثلاثاً: أنا، وجبرائيل، ومعاوية».

وإن النبي ﷺ ناول معاوية سهماً فقال له: «خذ هذا حتى تلقاني في الجنة». و«أنا مدينة العلم، وعلي بابها، ومعاوية حلقتها». و«تلقون من بعدي اختلافاً وفتنة، فقال له قائل من الناس: فمن لنا يا رسول الله؟ قال: عليكم بالأمين وأصحابه، يشير بذلك إلى عثمان».

ومنها ما يحذر المسلمين من الثورة، ويزين لهم الرضوخ ويوهمهم أن الثورة على الظلم، والسعي نحو إقامة نظام عادل عمل مخالف للدين. وبدهي أن شيئاً من ذلك لم يصدر عن الله ولا عن رسوله. ومن هذه «الأحاديث» ما عن عبد الله ابن عمر، قال: «قال رسول الله ﷺ: إنكم سترون بعدي أثره وأموراً تنكرونها. قالوا: فماذا تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أدوا إليهم حقهم. وسلوا الله حقكم». و«من رأى من أميره شيئاً يكرهه

---

(1) شرح نهج البلاغة، 46/11.
(2) سورة البقرة، الآيتان/204ـ205.
(3) سورة البقرة، الآية/207.
(4) شرح نهج البلاغة، 73/4.
(6) المصدر السابق، 64/4، وما بعدها، ص67ـ69.

فليصبر عليه؛ فإن من فارق الجماعة شبراً فمات إلا ميتة جاهلية». و«ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جمع فاضربوه بالسيف كائناً ما كان»[1].

وما شاكل هذا من الأحاديث التي تدعو المسلمين إلى الخضوع لأمرائهم الظالمين، وتحرم عليهم الثورة على هؤلاء الأمراء طلباً لحقهم.

هذا لون من ألوان التضليل الديني الذي ابتدعه الأمويون لتثبيت ملكهم. وهنا لون آخر من ألوان التضليل الديني استخدموه وبرعوا في استخدامه، وهو تأسيس الفرق الدينية السياسية التي تقدم للجماهير تفسيرات دينية تخدم سلطة الأمويين وتبرر أعمالهم.

ومن الأمثلة البارزة في هذا الميدان فرقة المرجئة. فقد كان الأمويون يواجهون الشيعة الذين يعتبرون بني أمية قتلة غاصبين لتراث النبي ﷺ، والخوارج الذين يرونهم كفرة تجب الثورة عليهم وإزاحتهم عن الحكم. وكان كل واحد من هذين الفريقين يقدم بين يدي دعواه حججاً دينية لا يملك الأمويون ما يقابلها لذلك أنشئوا فرقة المرجئة التي قدمت أدلة مقابلة لأدلة الشيعة والخوارج، ووقفت ضدهم في ميدان النضال السياسي الديني.

لقد اعتبر المرجئة الإيمان عملاً قلبياً خالصاً لا يحتاج إلى التعبير عنه بفعل من الأفعال، فيكفي الإنسان أن يكون مؤمناً بقلبه ليعصمه الإسلام، ويحرم الإعتداء عليه، وهم ينادون: «لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة»، وقالوا: «إن الإيمان الإعتقاد بالقلب وإن أعلن الكفر بلسانه، وعبد الأوثان، ولزم اليهودية والنصرانية في دار الإسلام ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل، ولي لله عز وجل، من أهل الجنة»[2].

والنتيجة المنطقية لهذا اللون من التفكير هي أن الأمويين مؤمنون مهما ارتكبوا من الكبائر[3].

---

(1) تجد هذه النصوص وغيرها في البخاري وغيره من كتب الحديث.

(2) ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، 204/4.

(3) فيليب حتي، تاريخ العرب، 316/2.

وقد كان المرجئة يبشرون بهذه الأفكار بين صفوف الأمة المسلمة لأجل تخديرها وصرفها عن الإستجابة لدعاة الثورة على الأمويين.

وإلى جانب ما تقدم اعتمد الأمويون أسلوباً آخر من أساليب التضليل الديني لدعم حكمهم وصرف الناس عن الثورة عليهم.

فقد واجه الأمويون خطراً ساحقاً عليهم من عقيدة القدرية القائلين بحرية الإرادة والإختيار، وأن الإنسان هو الذي يختار نوع السلوك والعمل الذي يمارسه في حياته، وإذا كان حراً فهو مسؤول عن أفعاله لأن كل حرية تستتبع حتماً المسؤولية.

هذه العقيدة كانت خطراً على الأمويين الذين يخافون من رقابة الأمة عليهم وعلى تصرفاتهم، ولذلك فقد اضطهدوا هذه العقيدة ودعاتها وتمسكوا بالعقيدة المضادة لها: عقيدة الجبر[1] فهذه هي العقيدة التي تلائمهم في الميدان السياسي لأنها توحي إلى الناس بأن وجود الأمويين وتصرفاتهم مهما كانت شاذة وظالمة ليست سوى قدر مرسوم من الله لا يمكن تغييره ولا تبديله، فلا جدوى من الثورة عليه. وها هو معاوية يتظاهر بالجبر والإرجاء لأجل تبرير أفعاله أمام الملأ بأنها مقدورة لا سبيل إلى تبديلها، مع كونها في الوقت نفسه غير قادحة فيه باعتباره حاكماً دينياً.

ولا بد أنه قد عهد بإذاعة أفكاره الخاصة حول هاتين العقيدتين ـ الجبر والإرجاء ـ بين المسلمين إلى ولاته وأجهزة الدعاية عنده، ومنها القصاص، قال الليث بن سعد: «وأما قصص الخاصة فهو الذي أوجده معاوية، ولّى رجلاً على القصص فإذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجده، وصلى على النبي ﷺ ودعا للخليفة ولأهل بيته وحشمه وجنوده، ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة»[2].

وأمر رجلاً يقص بعد الصبح وبعد المغرب يدعو له ولأهل الشام[3]. ولا بد أن هذا الدعاء كان استهلالاً يبتدئ به القاص ثم يأخذ بعده في قصصه.

ومنذ بدأ الحكام المسلمون يناوئون النزعة الإنسانية في الإسلام ليحولوه إلى

(1) موريس غودفردا، النظم الإسلامية، 39 «في الخلاف الذي قام حول الجبرية ساند الخلفاء الأمويون فكرة إنكار الإرادة في أفعال الإنسان».

(2) فجر الإسلام، ص159. (3) المصدر السابق، ص160.

مؤسسة تخدم مآرب فئة خاصة بدأ علي وأبناؤه وأصحابهم يدافعون عن الإسلام ويردون عنه شر من يريد تحريفه وتزويره.

كان هذا هو عمل علي طيلة حياته حتى إذا استشهد خلفه في الصراع ابنه الحسن، وقضت عليه ظروف المجتمع الإسلامي الإجتماعية والنفسية أن تهيئ هذا المجتمع للثورة على الحكم الأموي، حتى استشهد.

وبقي الحسين عليه السلام وحيداً.

وقد عاصر الحركة التي بدأها أعداء الإسلام: الدخلاء فيه، والموتورون، والحاقدون، وطلاب المنافع العاجلة في حربهم ضد الإسلام وضد مبادئه الإنسانية. عاصر هذه الحركة منذ نشوئها: عاصرها حيناً مع أبيه وأخيه والصفوة من الأصحاب، وعاصرها حيناً آخر مع أخيه وبقية السيف الأموي من الأصحاب، وها هو ذا الآن يقف وحيداً في ساحة الصراع، إنه يقف وحيداً ضد معاوية وجهاز حكمه الإرهابي، ويرى بعينيه كيف يراد للأمة المسلمة أن تتحول عن الأهداف العظيمة التي كونت لأجلها، وكيف تزيف حياتها، وكيف يراد لوجودها أن يضمر ويضيق لينحصر في لقمة العيش وفي حفنة من الدراهم يبيع المسلم بها حياته وضميره وحريته وكرامته الإنسانية للحاكمين الظالمين.

وقد رأى منهج معاوية وبطانته الذي اعتمدوه للوصول بالأمة المسلمة إلى هذا المصير الكالح، رأى كيف يطارد الناس ويجوعون ويضطهدون وينكل بهم لأنهم يخالفون السلطة في الهوى السياسي، ورأى كيف يحرف الإسلام وتزور مبادئه الإنسانية في سبيل المآرب السياسية، ورأى حملة التخدير الديني والكذب على الله ورسوله، ورصد عن كثب محاولة إفساد المجتمع بتشجيع الروح القبلية والنزعة العنصرية.

ولقد أراد الأمويون من الحسين أن يخضع لهم لأن خضوعه يؤمن لهم انقياد الأمة المسلمة كلها، ويمكنهم من ممارسة سياستهم دون خشية، أراد ذلك معاوية بن أبي سفيان حين عزم على أخذ البيعة بولاية العهد ليزيد من بعده، وتوسل إلى ذلك بالشدة حيناً وباللين حيناً فما نال بغيته[1]. وأراد ذلك يزيد حين صار إليه الأمر بعد أبيه. ولكن

(1) ابن الأثير، الكامل، 3/294ـ252.

الحسين أبى أن يخضع لأنه كان يعي أعمق الوعي دوره التاريخي الذي يفرض عليه أن يثور لتهز ثورته ضمير الأمة التي اعتادت الإنحناء أمام جبروت السلطة الحاكمة، اعتادت ذلك حتى ليخشى ألا يصلحها شيء.

إن المجتمع الذي خضع طويلاً لتأثير السياسة الأموية والتوجيه الأموي لا يمكن أن يصلح بالكلام، فهو آخر شيء يمكن أن يؤثر فيه.. إن الكلمة لا يمكن أن تؤثر شيئاً في النفس الميتة، والقلب الحائر، والضمير المخدر كان لا بد لهذا المجتمع المتخاذل من مثال يهزه عنيفاً، ويضل يواليه بإيحاءاته الملتهبة، ليقتلع الثقافة العفنة التي خدرتنه، وقعدت به عن صنع مصير وضاء.

وهذا الواقع الكالح وضع الإمام الحسين وجهاً لوجه أمام دوره التاريخي ورسالته النضالية،هذا الدور الذي يفرض عليه أن يثور، وأن يعبر بثورته عن شعور الملايين وأن يهز بثورته هذه الملايين نفسها، ويضرب لها المثل والقدوة في حرب الظالمين.

وقد كان كل ذلك وكانت ثورة الحسين عليه السلام.

أسئلة حول الدرس



1 ـ ما معنى سياسة الإرهاب والتجويع التي انتهجها معاوية بحق الشيعة؟

2 ـ ما هي مظاهر العودة إلى الجاهلية في عهد معاوية؟

3 ـ ماذا تعرف عن ظاهرة اختلاق الأحاديث في زمن معاوية؟

12

الإمام الحسين بن علي عليه السلام (2)

عزوف الحسين عليه السلام عن الثورة في عهد معاوية:

كانت مبررات الثورة على الحكم الأموي متوفرة في عهد معاوية، وقد كان الإمام الحسين عليه السلام يعرفها، وقد عبّر عنها في عدة كتب وجهها إلى معاوية جواباً عن كتبه إليه.

ولذا، فإن الباحث يتساءل عن السر في قعود الحسين عليه السلام عن الثورة في عهد معاوية مع وجود مبررات الثورة في عهده. فلماذا لم تدفعه هذه المبررات إلى الثورة في أيام معاوية، وحملته على الثورة في أيام يزيد؟

الذي نراه في الجواب على هذا التساؤل: هو أن قعود الحسين عليه السلام عن الثورة في عهد معاوية. كانت له أسباب موضوعية لا يمكن تجاهلها، ويمكن إجمالها فيما يلي:

أولاً. الوضع النفسي الاجتماعي:

لم يكن الحسين عليه السلام أقل إدراكاً لواقع مجتمع العراق من أخيه الحسن عليه السلام، فقد رأى من هذا المجتمع وتخاذله مثل ما رأى أخوه، ولذلك فقد آثر أن يعد مجتمع العراق للثورة، بدل أن يحمله على القيام بها الآن.

كان هذا رأيه في حياة أخيه الإمام الحسن عليه السلام، فقد قال لعلي بن محمد بن بشير الهمداني حين فاوضه في الثورة بعد أن يئس من استجابة الإمام الحسن عليه السلام: صدق أبو محمد، فليكن كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته[1] ما دام الإنسان حياً»[2]. يعني معاوية بن أبي سفيان.

---

(1) حلس بالمكان حلساً: لزمه.

(2) الأخبار الطوال 221.

وكان هذا رأيه بعد وفاة الإمام الحسن عليه السلام، فقد كتب إليه أهل العراق يسألونه أن يجيبهم إلى الثورة على معاوية، ولكنه لم يجبهم إلى ذلك، وكتب إليهم: «**أما أخي فأرجو أن يكون الله قد وفقه وسدده فيما يأتي، وأما أنا فليس رأيي اليوم ذلك، فالصقوا رحمكم الله بالأرض، واكمنوا في البيوت، واحترسوا من الظنة ما دام معاوية حياً**»[1].

وإذن فقد كان رأي الحسين عليه السلام ألا يثور في عهد معاوية وهو يأمر أصحابه بأن يخلدوا إلى السكون والهدوء، وأن يبعدوا عن الشبهات. وهذا يوحي لنا بأن حركة منظمة كانت تعمل ضد الحكم الأموي في ذلك الحين، وأن دعاتها هم هؤلاء الأتباع القليلون المخلصون الذين ضن بهم الحسن عليه السلام عن القتل فصالح معاوية، وأن مهمة هؤلاء كانت بعث روح الثورة في النفوس عن طريق إظهار المظالم التي حفل بها عهد معاوية، انتظاراً لليوم الموعود.

ثانياً ـ شخصية معاوية:

وأكبر الظن أن الحسين عليه السلام لو ثار في عهد معاوية لما استطاع أن يسبغ على ثورته هذا الوهج الساطع الذي خلدها في ضمائر الناس وقلوبهم، والذي ظل يدفعهم عبر القرون الطويلة التي تمثل أبطالها، واستيحائهم في أعمال البطولة والفداء. وسر ذلك يكمن في شخصية معاوية، وأسلوبه الخاص في معالجة الأمور. فإن معاوية لم يكن من الجهل بالسياسة بالمثابة التي يتيح فيها للحسين عليه السلام أن يقوم بثورة مدوية، بل الراجح أنه كان من الحصافة بحيث يدرك أن جهر الحسين عليه السلام بالثورة عليه وتحريضه الناس على ذلك كفيل بزجه في حروب تعكر عليه بهاء النصر الذي حازه بعد صلح الحسن عليه السلام، إن لم يكن كافياً لتفويت ثمرة هذا النصر عليه، لأنه عارف ـ ولا ريب ـ بما للحسين عليه السلام من منزلة في قلوب المسلمين.

وأقرب الظنون في الأسلوب الذي يتبعه معاوية في القضاء على ثورة الحسين عليه السلام ـ لو ثار في عهده ـ هو أنه كان يتخلص منه بالسم قبل أن يتمكن الحسين من الثورة، وقبل أن يكون لها ذلك الدوي الذي يموج الحياة الإسلامية التي يرغب معاوية في بقائها ساكنة.

(٣) المصدر السابق ٢٢٢.

والذي جعل هذا الظن قريباً ما نعرفه من أسلوب معاوية في القضاء على من يخشى منافستهم له في السلطان، أو تعكير صفو السلطان عليه، فإن الطريقة المثالية عنده في التخلص منهم هي القضاء عليهم بأقل ما يمكن من الضجيج. ولقد مارس معاوية هذا الأسلوب في القضاء على الحسن بن علي عليه السلام وسعد بن أبي وقاص[1]. ومارسه في القضاء على الأشتر لما توجه إلى مصر، ومارسه في القضاء على عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد لما رأى افتتان أهل الشام به[2].

وقد أوجز هو أسلوبه هذا في كلمته المأثورة: «إن لله جنوداً منها العسل»[3].

ثالثاً ـ العهد والميثاق:

ولقد كان معاوية خليقاً بأن يستغل في سبيل تشويه ثورة الحسين عليه السلام لو ثار في عهده ـ هذا الميثاق الذي كان نتيجة صلح الحسن عليه السلام مع معاوية، فلقد عرف عامة الناس أن الحسن والحسين عليهما السلام قد عاهدا معاوية على السكوت عنه، والتسليم له ما دام حياً[4] ولو ثار الحسين عليه السلام على معاوية لأمكن لمعاوية أن يصوره بصورة المنتهز، الناقض لعهده وميثاقه الذي أعطاه.

ونحن نعلم أن الحسين عليه السلام ما كان يرى في عهده لمعاوية عهداً حقيقاً بالرعاية والوفاء، فقد كان عهداً تم بغير رضى واختيار وقد كان عهداً تم في ظروف لا يد للمرء في تغييرها، ولقد نقض معاوية هذا العهد، ولم يعرف له حرمة، ولم يحمل نفسه مؤونة الوفاء به، فلو كان عهداً صحيحاً لكان الحسين عليه السلام في حل منه، لأن معاوية قد تحلل منه، ولم يأل في نقضه جهداً.

ولكن مجتمع الحسين عليه السلام، هذا المجتمع الذي رأينا أنه لم يكن أهلاً للقيام بالثورة، والذي كان يؤثر السلامة والعافية كان يرى أنه قد عاهد، وأن عليه أن يفي[1] وأكبر الظن

---

(1) قال أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبين 29: «وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد، فلم يكن شيء أثقل عليه من أمر الحسن وسعد بن أبي وقاص فدس إليهما سماً، فماتا منه». وراجع: سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب 62.

(2) زيدان، التمدن الإسلامي 71/4.

(3) عيون الأخبار 201/1.

(4) ابن أبي الحديد، شرح النهج 8/4.

أن ثورته ـ لو قام بها في عهد معاوية ـ كانت ستفشل على الصعيد السياسي وعلى الصعيد الإجتماعي حين ينظر إليها المجتمع الإسلامي من الزاوية التي كان معاوية سيسلط عليها الأضواء وهي هذا العهد والميثاق الذي نقضه الحسين عليه السلام وأنصاره من الثائرين، فيظهرها للرأي العام وكأنها تمرد غير مشروع.

ولعل هذا هو ما يفسر جواب الحسين عليه السلام لسليمان بن صرد الخزاعي حين فاوضه في الثورة على معاوية، والحسن عليه السلام حي، فقد قال له: «**ليكن لكل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته ما دام معاوية حياً، فإنها بيعة كنت والله لها كارهاً، فإن هلك معاوية نظرنا ونظرتم ورأينا ورأيتم**»[2].

وجوابه لعدي بن حاتم الطائي وقد فاوضه في الثورة أيضاً بقوله عليه السلام: «**إنّا قد بايعنا وعاهدنا، ولا سبيل إلى نقض بيعتنا**»[3].

وقد ثبت على موقفه هذا بعد وفاة الإمام الحسن عليه السلام فقد روى الكلبي والمدائني وغيرهما من أصحاب السير، قالوا: «لما مات الحسن بن علي عليه السلام تحركت الشيعة بالعراق، وكتبوا إلى الحسين في خلع معاوية والبيعة له، فامتنع عليهم، وذكر أن بينه وبين معاوية عهداً وعقداً، ولا يجوز له نقضه حتى تمضي المدة، فإذا مات معاوية نظر في ذلك»[4].

(1) يميل المرحوم الشيخ راضي آل ياسين في كتابه النفيس «صلح الحسن عليه السلام» ص252ـ270 . الطبعة الأولى . إلى التأكيد على أن الحسن والحسين عليهما السلام لم يبايعا معاوية بالخلافة، استناداً إلى نصوص وردت في بعض الصيغ التي روي بها الميثاق بين الإمام الحسن ومعاوية، والتي يراها دالة على إعفاء الحسن عليه السلام من كل التزام يشعر بأنه سلم إلى معاوية . بالإضافة إلى السلطان السياسي . الإمامة الدينية أيضاً. وهذا رأي لا نملك رفضه، فنشيء آخر غير ما ذكر من النصوص، وهو شخصيتا الحسن عليه السلام ومعاوية، يعزز هذا الرأي. ولكن هذا الواقع لا يغير من جوهر المسألة شيئاً، فقد أظهر معاوية للرأي العام أن الحسن عليه السلام قد بايع لهذه الكلمة من دلالات زمنية ودينية. وقد كان المسلمون ينظرون إلى البيعة على أنها عهد لا يمكن نقضه ولا الفكاك منه، لاحظ كتابنا «نظام الحكم والإدارة في الإسلام» ص48، ففيها شواهد تاريخية، ولاحظ أيضاً «الدولة العربية وسقوطها» ولهاوزن ص115، وسمو المعنى في سمو الذات للشيخ عبد الله العلايلي ص 101ـ105.

(2) الإمامة والسياسة: 173/1.

(3) الأخبار الطوال 203.

(4) السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة4، قسم أول 181ـ182 ـ والشيخ المفيد، الإرشاد 206 ـ وأعلام الورى 220 ـ والسيوطي، تاريخ الخلفاء 206 ـ وقد ذكر فيليب حتي «تاريخ العرب»252/2 إن أهل الكوفة كانوا قد بايعوا الحسين بعد موت أخيه، وهذا غير صحيح، وما صح هو هذه المحاولة التي لم يستجب لها الإمام الحسين..

دوافع الثورة وأسبابها:

«مات معاوية حين مات، وكثير من الناس، وعامة أهل العراق بنوع خاص، يرون بغض بني أمية، وحب أهل البيت لأنفسهم ديناً»[1].

فقد اكتشف المجتمع الإسلامي ما فيه الكفاية من عورات الحكم الأموي، وذاق طعم عذابه وخبر ألواناً من عسفه وظلمه في الأرزاق والكرامات، وانزاحت عن بصيرته الغشاوة التي رانت عليها في أول عهد معاوية.

ولم يكن يزيد في مثل تروي أبيه، وحزمه واحتياطه للأمور، ولم يلتزم أسلوب أبيه في الإحتفاظ بالغشاء الديني مسدلاً على أفعاله وتصرفاته.

ولم يكن بين الحسن والحسين عليهما السلام من جهة وبين يزيد من جهة أخرى أي عهد أو ميثاق.

وهكذا فقد انزاحت ـ بموت معاوية ووعى المجتمع الإسلامي ـ جميع الأسباب التي كانت تحول بين الحسين عليه السلام وبين الثورة في عهد معاوية، وبدا الطريق إلى الثورة على الحكم الأموي ممهداً أمام الحسين عليه السلام في عهد يزيد.

بواعث الثورة عند الحسين عليه السلام:

إن العنصر الإجتماعي شديد البروز في ثورة الحسين، ويستطيع الباحث أن يلاحظه فيها من بدايتها حتى نهايتها، ويرى أن الحسين ثار من أجل الشعب المسلم: لقد ثار على يزيد باعتباره ممثلاً للحكم الأموي. هذا الحكم الذي جوع الشعب المسلم، وصرف أموال هذا الشعب في اللذات، والرشا وشراء الضمائر، وقمع الحركات التحررية، هذا الحكم الذي اضطهد المسلمين غير العرب وهددهم بالإفناء، ومزق وحدة المسلمين العرب وبعث بينهم العداوة والبغضاء، هذا الحكم الذي شرد ذوي العقيدة السياسية التي لا تنسجم مع سياسة البيت الأموي وقتلهم تحت كل حجر ومدر، وقطع عنهم الأرزاق وصادر أموالهم. هذا الحكم الذي شجع القبيلة على حساب الكيان الإجتماعي للأمة المسلمة.

(1) الفتنة الكبرى، علي وبنوه 295.

هذا الحكم الذي عمل عن طريق مباشر تارة وعن طريق غير مباشر تارة أخرى على تقويض الحسّ الإنساني في الشعب، وقتل كل نزعة إلى التحرر بواسطة التخدير الديني الكاذب. كل هذا الإنحطاط ثار عليه الحسين عليه السلام، وها هو يقول لأخيه محمد بن الحنفية في وصيته له: «**إني لم أخرج أشراً، ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر. فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق، وهو خير الحاكمين**».

فالإصلاح في أمة جده صلى الله عليه وآله هو هدفه من الثورة.

وظهر العنصر الإجتماعي في ثورة الحسين أيضاً حين التقى مع الحر بن يزيد الرياحي، وقد كان ذلك بعد أن علم الحسين عليه السلام بتخاذل أهل العراق عنه بعد بيعتهم له، وبعد أن انتهى إليه نبأ قتل رسوله وسفيره إليهم مسلم بن عقيل، وبعد أن تبين له ولمن معه المصير الرهيب الذي ينتظرهم جميعاً، فقد خطب الجيش الذي مع الحر قائلاً: «أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من رأى سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير ما عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله. ألا وان هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله، وأنا أحق من غيّر».

فهو هنا يبين لهم أسباب ثورته: إنها الظلم، والإضطهاد والتجويع، وتحريف الدين، واختلاس أموال الأمة.

بواعث الثورة لدى الرأي العام:

ولم يكن المغزى الإجتماعي للثورة مدركاً من قبل الحسين عليه السلام وحده، فقد كان المسلمون يحسون بضرورة العمل على تطوير واقعهم السيئ إلى واقع أحسن، أدرك هذا أولئك الذين كتبوا إلى الحسين عليه السلام يطلبون منه القدوم إلى العراق. وأدرك هذا أولئك الذين صبّروا أنفسهم على الموت معه.

والذين كتبوا إليه من العراق لم يكونوا أفراداً معدودين، وإنما كانوا كثيرين جداً. ففي المؤرخين من يقول أن كتب أهل العراق إلى الحسين عليه السلام زادت على مائة وخمسين كتاباً[1] وقال مؤرخون آخرون إنه قد اجتمع عند الحسين في نوب متفرقة إثنا عشر ألف كتاب من أهل العراق.

ونلاحظ من ناحية أخرى أن هذه الكتب ليست من أفراد، فقد كانت كتباً من الرجل والإثنين والأربعة والعشرة[2] فلسنا أمام حركة فردية، وإنما نحن أمام حركة جماعية قام بها المجتمع العراقي أو الكثرة الساحقة من هذا المجتمع، وهذا نموذج للكتب التي وردت إليه:

«سلام عليك، أما بعد، فالحمد لله الذي قصم عدوك وعدو أبيك من قبل. الجبار العنيد، الغشوم الظلوم، الذي انتزى على هذه الأمة، فابتزها أمرها، واغتصبها فيئها، وتأمر عليها بغير رضى منها، ثم قتل خيارها واستبقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وعتاتها، فبعداً له كما بعدت ثمود، وأنه ليس علينا إمام غيرك، فأقبل لعل الله يجمعنا بك على الحق. والنعمان بن بشير في قصر الإمارة، ولسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه إلى عيد، ولو قد بلغنا أنك أقبلت أخرجناه حتى يلحق بالشام إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته يا ابن رسول الله»[3].

هذا نموذج للكتب التي أرسلت إلى الحسين عليه السلام تدعوه إلى الثورة، ويبرز العامل الإجتماعي فيه بوضوح عظيم. فسياسة الإرهاب والتجويع هي التي حملت هؤلاء الناس على الثورة وكان الحسين عليه السلام هو الشخصية الوحيدة التي يمكن أن تتزعم ثورة كهذه إذ لم يكن في الزعماء المسلمين زعيم غيره يتجاوب مع آلام الشعب وآماله ومطامحه.

(1) الكامل 3/266ـ 267.

(2) الطبري 4/262 - وجاء في أعيان الشيعة نفس الجزء والصفحة «وأنفذوا قيس بن مسهر الصيداوي، وعبد الرحمن بن عبد الله بن شداد الأرحبي وعمارة بن عبد الله السلولي إلى الحسين عليه السلام ومعهم نحو مائة وخمسين صحيفة من الرجل والإثنين والأربعة، وهو مع ذلك يتأبى ولا يجيبهم فورد عليه في يوم واحد ستون كتاباً، وتواترت الكتب حتى اجتمع عنده في نوب متفرقة إثنا عشر ألف كتاب».

(3) الطبري 4/261ـ262 - والكامل 3/266.

بواعث الثورة لدى الثائرين:

فإذا نحن تجاوزنا هؤلاء الداعين إلى الثورة ثم المتخاذلين عنها إلى أولئك الذين ثبتوا ثائرين مع الحسين عليه السلام إلى اللحظة الأخيرة.. اللحظة التي توجوا فيها عملهم الثوري بسقوطهم صرعى، رأيناهم يحملون نفس الفكرة، ويبررون ثورتهم ويدعون الجيش الأموي إلى تأييدهم بنفس تلك المبررات: الظلم الإجتماعي، وسياسة الإرهاب والإذلال التي يمارسها الحاكمون.

هذا زهير بن القين، خرج على فرس له في السلاح، فخطب الجيش الأموي قائلاً: **«يا أهل الكوفة نذار لكم من عذاب الله نذار، إن حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم. ونحن حتى الآن أخوة على دين واحد وملة واحدة ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منا أهل فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنا نحن أمة وأنتم أمة».**

«إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه صلى الله عليه وآله لينظر ما نحن وأنتم عاملون. إنا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية ابن الطاغية عبيد الله بن زياد فإنكم لا تدركون منهما إلا بسوء عمر سلطانهما كله ليسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويمثلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقراءكم أمثال حجر بن عدي وأصحابه وهانئ بن عروة وأشباهه».

«فسبوه، وأثنوا على ابن زياد، وقالوا: والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سلماً..».

أسئلة حول الدرس

1 ـ حدد الظروف الإجتماعية التي حالت دون قيام الإمام الحسين عليه السلام بالثورة ضد معاوية؟

2 ـ ما هي الأسباب الذاتية للنهضة الحسينية ضد يزيد؟

3 ـ ما هي أجواء الرأي العام التي ساعدت على النهضة الحسينية؟

13

الإمام الحسين بن علي عليه السلام (3)

نتائج الثورة و آثارها:

بعد أن أحطنا بالثورة ودوافعها، يلح علينا السؤال التالي: هل آتت الثورة أُكُلَها، هل غيرت واقعاً، وهل صنعت نصراً، وحطمت أعداء؟!.

ولربما اتهمها كثيرٌ من المؤرخين بالفشل، بحجة أنها لم تحقق نصراً سياسياً آنياً يطور الواقع الإسلامي إلى حالٍ أحسن من الحال التي كانت عليها قبل هذه الثورة[1].

ولكي نفهم ثورة الحسين عليه السلام علينا أن نفتش عن أهدافها ونتائجها في غير النصر الآني الحاسم، وفي غير الإستيلاء على مقاليد الحكم، وأن لا نبحث عن نتائجها فيما تعودناه في سائر الثورات، وإنما نلتمس نتائجها في الميادين التالية[2]:

1. تحطيم الإطار الديني المزيف:

الذي كان الأمويون وأعوانهم يحيطون به سلطانهم، وفضح الروح اللادينية الجاهلية التي كانت أطروحة الحكم آنذاك. بعد أن شاعت هذه الروح اللادينية في جميع طبقات المجتمع، واستحكمت في أذهان الناس دون أن تكافح ودون أن يظهر في الناس من يفضح زيفها وبُعْدَها عن الدين.

وكان الحسين عليه السلام هو الشخص الوحيد الذي يملك رصيداً كبيراً من المحبة والإجلال في قلوب المسلمين جميعاً، والقادر على فضح الحكام وكشف حقائقهم وبعدهم الكبير عن مفاهيم الإسلام.

---

(1) ثورة الحسين ظروفها، لمحمد مهدي شمس الدين، ص154.

(2) اعتمدنا كلياً على النتائج التي استخلصها العلامة الشيخ محمد مهدي شمس الدين في كتابه (ثورة الحسين ظروفها، ص162ـ228)، نحيل القارئ إليها ليقف على التفاصيل التي أغفلنا ذكرها لضيق مجال الكتاب.

ولهذا كانت ثورته خطاً فاصلاً بين الإسلام والحكم الأموي، وأظهر عليه السلام هذا الحكم بمظهره الحقيقي وكشف زيفه.

2. الشعور بالإثم:

لقد كان لاستشهاد الإمام الحسين عليه السلام الفاجع في كربلاء أن أثار موجة عنيفة من الشعور بالإثم في ضمير كل مسلم استطاع نصره فلم ينصره، خصوصاً أولئك الذين كفوا أيديهم عن نصره بعد أن عاهدوه على الثورة.

ولهذا الشعور بالإثم طرفان فهو من جهة يحمل صاحبه على أن يُكَفِّرَ عن إثمه الذي ارتكبه، ومن جهة أخرى يثير في النفس مشاعر الحقد والكراهية لأولئك الذين دفعوه إلى ارتكاب الإثم.. حتى كانت ثورات عديدة أججها مصرع الحسين عليه السلام وكان باعثها التكفير عن القعود عن نصرته والرغبة في الإنتقام من الأمويين.

وقد قدر لهذا الشعور بالإثم أن يبقى مشتعل الأوار حافزاً دائماً إلى الثورة والإنتقام، وقدر له أن يدفع الناس إلى الثورات على الأمويين كلما سنحت الفرصة ثم لا يرتوي ولا يهدأ ولا يستكين، وإنما يطلب من صاحبه ضريبة الدم باستمرار وكان سبيل ذلك هو الثورة على الظالمين.

3. الأخلاق الجديدة:

كان لا بد لثورة الحسين عليه السلام من أن تدعو إلى نموذج من الأخلاق أسمى مما يمارسه المجتمع ولا بد من تغيير نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى الآخرين، وإلى الحياة ليمكن إصلاح المجتمع.

ولقد قدم الحسين عليه السلام وآله وأصحابهم - في ثورتهم على الأمويين - الأخلاق الإسلامية العالية بكل صفائها ونقائها، ولم يقدموا إلى المجتمع الإسلامي هذا اللون من الأخلاق بألسنتهم، وإنما كتبوه بدمائهم وحياتهم.

لقد اعتاد الرجل العادي إذ ذاك أن يرى الزعيم القبلي أو الديني يبيع ضميره بالمال، وبعرض الحياة الدنيا.

ولقد اعتاد أن يرى الجباه تعنو خضوعاً لطاغية حقير لمجرد أنه يملك أن يحرم من العطاء..

هؤلاء هم الزعماء الذين كان الرجل العادي يعرفهم وقد اعتادهم وألفهم بحيث غدا يرى عملهم طبيعياً لا يثير التساؤل.

لقد أصبح هم المسلم حياته الخاصة، يعمل لها ويكدح في سبيلها ولا يفكر إلا فيها. أما المجتمع وآلامه فلم يكن ليستأثر من الرجل العادي أي اهتمام، وكان يهتم غاية الإهتمام بعطائه فيحافظ عليه، ويطيع توجيهات زعمائه خشية أن يمحى اسمه من العطاء، ويسكت عن نقد ما يراه جوراً بسبب ذلك[1] وكان يهتم بمفاخر قبيلته ومثالب غيرها.

أما أصحاب الحسين عليه السلام فقد كان لهم شأن آخر.. لقد كانت الشريحة التي رافقت الحسين عليه السلام وشاركته في مصيره، رجالاً عاديين لكل منهم بيت وزوجة وأطفال، وصداقات ولكل منهم عطاء من بيت المال وكان كثير منهم لا يزال في ريعان الشباب وفي حياتهم متسعٌ للإستمتاع بالحب وطيبات الحياة ولكنهم جميعاً خرجوا عن ذلك كله وواجهوا مجتمعهم بعزمهم الكبير في سبيل مبدأ آمنوا به، وصمموا على الموت مع الحسين عليه السلام في سبيله.

ولذلك فقد كان غريباً جداً على كثير من المسلمين آنذاك أن يروا إنساناً يخير بين حياة رافهة، فيها الغنى والمتعة والنفوذ، ولكن فيها إلى جانب ذلك كله الخضوع لطاغية والمساومة على المبدأ والخيانة له، وبين الموت. عطشاً، مع قتل الصفوة الخلَّص من أصحابه، وأولاده، وإخوانه، وأهل بيته جميعاً أمامه.

لقد كان غريباً جداً على هؤلاء أن يروا نموذجاً يتعالى ويتعالى حتى ليكاد القائل أن يقول: ما هذا ببشر.

وفي جميع مراحل الثورة، منذ بدايتها في المدينة حتى ختامها الدامي في كربلاء نلمح التصميم على هذا النمط العالي من السلوك.

---

(١) الطبري، ج٤، ص٣٣٤.

فها هو الحسين عليه السلام يقول لأخيه محمد بن الحنفية، وهما بعد في المدينة: «**يا أخي، والله لو لم يكن في الدنيا ملجأ ولا مأوى، لما بايعت يزيد بن معاوية**»[1].

وها هو عليه السلام قد أحيط به، وقيل له: أنزل على حكم بني عمك، يقول: «**لا والله، لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أُقِرُّ إقرار العبيد، ألا وإنّ الدَّعيّ بْنَ الدَّعيّ قدْ ركز بين اثنتين: بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة، يأبى الله لنا ذلك، ورسوله، والمؤمنون، وجدود طابت، وحجورٌ طَهُرَت، وأنوف حمية، ونفوس أبية لا تؤْثِرُ طاعة اللئام على مصارع الكرام**»[2].

وها هو عليه السلام يخطب أصحابه، فيقول: «**أمّا بعدُ. فقد نزل من الأمر بنا ما ترون، وإنّ الدنيا قد تغيرت وتنكرت، وأدبر معروفها، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون إلى الحق لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله، فإني لا أرى الموت إلا سعادةً ، والحياة مع الظالمين إلا برما**»[3].

وكان عليه السلام يقول كثيراً: «**موتٌ في عز خيرٌ من حياة في ذل**»[4].

كل هذا يكشف عن طبيعة السلوك الذي اختطه الحسين عليه السلام لنفسه ولمن معه في كربلاء، وألهب به الروح الإسلامية، بعد ذلك، وبث فيها قوة جديدة.

أما أصحاب الحسين عليه السلام فقد كان سلوكهم كسلوك إمامهم وهذه لمحات من سلوكهم العالي:

جمع الحسين عليه السلام أصحابه قرب المساء، مساء اليوم العاشر، فخطبهم قائلاً: «...**أما بعد، فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيتٍ أبرَّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعاً، ألا وإني أظن أن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، وإني قد أذنت لكم، فانطلقوا جميعاً في حلٍّ، ليس عليكم مني ذمام، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وليأخذ كل رجلٍ منكم بيد رجلٍ من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً خيراً، وتفرقوا في سوادكم ومدائنكم، فإن القوم إنما يطلبوني، ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري**...».

---

(1) أعيان الشيعة، ج4، القسم الأول، ص186.
(2) أعيان الشيعة، ج4، قسم أول، ص258ـ259.
(3) المصدر السابق، ص234.
(4) المصدر السابق، ص135.

هذه فرصة أخيرة منحهم إياها الحسين عليه السلام، فماذا كان رد الفعل؟

قال له إخوته، وأبناؤه، وبنو أخيه، وأبناء عبد الله ابن جعفر:

«ولِمَ نفعل؟ لنبقى بعدك..؟ لا أرانا الله ذلك أبداً».

وجاء دور أصحابه، فقال مسلم بن عوسجة: **«أنحن نخلي عنك ولما نعذر إلى الله في أداء حقك؟ أما والله لا أفارقك حتى أطعن في صدورهم برمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك».**

وقال سعد بن عبد الله الحنفي: **«والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسول الله ﷺ فيك، والله لو علمت إني أُقتل ثم أحيا ثم أحرق حياً ثم أذرى، يفعل ذلك بي سبعين مرة، ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك. فكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة».**

وقال زهير بن القين: **«والله لوددت أني قُتلت ثم نشرت، ثم قتلت، حتى أقتل كذا ألف قتلة، وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك».**

وتكلم جماعة من أصحابه عليه السلام بكلام يشبه بعضه بعضاً في وجه واحد، فقالوا: **«والله لا نفارقك، ولكن أنفسنا لك الفداء، نقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا فإذا نحن قتلنا كنا وفينا وقضينا ما علينا»**[1].

هذا هو مستوى السلوك الذي ارتفع إليه الثائرون. وهذه هي الأخلاق الجديدة التي قدموها لمجتمعهم، هذا المجتمع الذي قدر لكثير من فئاته فيما بعد أن تأخذ نفسها بالسير على هذا المستوى العالي من الأخلاق وممارسة الحياة.

❖❖❖❖❖

ولنا أن نتساءل هنا عن دور المرأة المسلمة في ثورة كربلاء، لقد كان في الثائرين الزوج والأخ والولد، فما كان موقف المرأة من مصارع هؤلاء؟ ويأتينا الجواب من التاريخ

(1) أعيان الشيعة، ج4، قسم أول، ص249 - والطبري، ج4، ص317-318.

فنهتز لموقف المرأة في كربلاء. لقد كانت المرأة أماً وأختاً وزوجة في طليعة الثائرين المناضلين، المضحين الباذلين لضريبة الدم.

ولا نتحدث هنا عن زينب (عليها السلام) وعن أخواتها، فمستوى سلوكهن لم يبلغه بشر. وإنما نتحدث عن نساء عاديات جداً، كن إلى أيام قليلة قبل يوم كربلاء يشغلهن ما يشغل كل امرأة من شؤون بيتها وزينتها، وتربية أولادها، والتحدث مع جاراتها، نساء لا تربطهن بالثائرين رابطة دم ولكن تربطهن بهم رابطة مبدأ، ورابطة عقيدة، فضحين بالولد والزوج مستبشرات ثم ضحين بأنفسهن في النهاية.

«هذا عبد الله بن عمير قال لزوجته أنه يريد المصير إلى الحسين (عليه السلام)، فقالت له: أصبت، أصاب الله بك أرشد أمورك، إفعل، وأخرجني معك، فخرج بها حتى أتى حسيناً (عليه السلام) فأقام معه.

ثم برز ليقاتل فأخذت امرأته عموداً ثم أقبلت نحو زوجها تقول: فداك أبي وأمي، قاتل دون الطيبين، ذرية محمد.

فأقبل إليها يردها نحو النساء فأخذت تجاذب ثوبه، ثم قالت: إني لن أدعك دون أن أموت معك.

فناداها الحسين (عليه السلام) فقال: جزيتم من أهل بيت خيراً، ارجعي رحمك الله إلى النساء فاجلسي معهن، فانصرفت.

ثم قتل زوجها فخرجت تمشي إليه حتى جلست عند رأسه تمسح التراب عنه وتقول: هنيئاً لك الجنة.

فقال شمر بن ذي الجوشن لغلام يسمى رستم: اضرب رأسها بالعمود، فضرب رأسها فشدخه. فماتت مكانها. وهي أول امرأة استشهدت من أصحاب الحسين (عليه السلام)»[1].

«وهذا وهب بن حباب الكلبي، قالت له أمه: قم يا بني فانصر ابن بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله).

فقال: أفعل. فحمل على القوم ولم يزل يقاتل حتى قتل جماعة، ثم رجع وقال: يا أماه هل رضيت؟

(1) الطبري، ج4، ص326- 327 و333- 334.

فقالت: ما رضيت حتى تقتل بين يدي الحسين.

فقالت له امرأته: بالله عليك، لا تفجعني بنفسك.

فقالت له أمه: يا بني أعزب عن قولها، وارجع فقاتل بين يدي ابن بنت نبيك تنل شفاعة جده يوم القيامة. فرجع، ولم يزل يقاتل حتى قطعت يداه ثم قتل»[1].

«وبرز جنادة بن الحارث السلماني، وكان خرج بعياله وولده إلى الحسين عليه السلام، فقاتل حتى قتل. فلما قتل أمرت زوجته ولدها عمرواً، وهو شاب، أن ينصر الحسين عليه السلام. فقالت له: اخرج يا بني وقاتل بين يدي ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله.

فخرج واستأذن الحسين، فقال الحسين عليه السلام: هذا شاب قتل أبوه، ولعل أمه تكره خروجه. فقال الشاب: أمي أمرتني بذلك.

فبرز وقاتل حتى قتل، وحز رأسه، ورمي به إلى معسكر الحسين عليه السلام فحملت أمه رأسه وقالت: أحسنت يا بني، وأخذت عمود خيمة وهي تقول:

أنا عجوز سيدي ضعيفة خاوية بالية نحيفة

أضربكم بضربة عنيفة دون بني فاطمة الشريفة

وضربت رجلين فقتلتهما، فأمر الحسين عليه السلام بصرفها، ودعا لها»[2].

هذه نماذج من سلوك الثائرين في كربلاء.

4. انبعاث الروح الجهادية:

كانت ثورة الحسين عليه السلام السبب في انبعاث الروح الجهادية في الإنسان المسلم من جديد بعد فترة طويلة من الهمود والتسليم، فقد حطمت كل الحواجز النفسية والإجتماعية التي حالت دون الثورة.

فواقع الإنسان المسلم كان يدعوه إلى الإستسلام والمساومة والدعة ويقول له حافظ على ذاتك وعطائك، حافظ على منزلتك الإجتماعية.. فجاءت ثورة الحسين عليه السلام، وقدمت للإنسان المسلم أخلاقاً جديدة لتقول له: لا تستسلم، لا تساوم على إنسانيتك،

(1) أعيان الشيعة، ج4، قسم أول، ص267-268.

(2) المصدر السابق، ص279-281.

ناضل قوى الشر ما وسعك، ضح بكل شيء في سبيل مبدئك. كان الرضا عن النفس يحول بينه وبين أن يثور ويغريه بالقعود عن المقاومة والجهاد، فجاءت ثورة الحسين عليه السلام وخلّفت في أعقابها لجماهير كثيرة شعوراً بالإثم وتأنيباً للنفس ورغبة عارمة في التكفير، وجاءت لتعد الناس إعداداً كاملاً للثورة.

وللروح الجهادية، شأن كبير وخطير في حياة الشعوب وحكامها، فحين تكون الروح الجهادية هامدة، وحين يكون الشعب مستسلماً لحكامه يشعر حكامه بالأمان، فيرتكبون ما يشاءون دون أن يحسبوا حساب أحد، هذا من جهة الحاكمين، وأما المحكومون فنلاحظ أنه كلما امتد الزمن بهمود الروح الجهادية سهل التسلط على الشعب مما يجعل إصلاحه وتطويره أمراً بالغ الصعوبة.

ولكي نخرج بفكرة واضحة عن مدى تأثير ثورة الحسين عليه السلام في بعث روح الثورة في المجتمع الإسلامي، يحسن بنا أن نلاحظ أن هذا المجتمع منذ مقتل الإمام علي عليه السلام أخلد إلى السكون ولم يقم بأي ثورة أو أي احتجاج جدي جماعي على ألوان الإضطهاد والتقتيل وسرقة أموال الأمة التي كان يقوم بها الأمويون وأعوانهم بل وقفت الجماهير موقف الخضوع والتسليم عشرين عاماً - من سنة أربعين إلى سنة ستة وستين للهجرة.

أما بعد ثورة الحسين عليه السلام فقد انبعثت الروح الجهادية في الأمة وبدأت الجماهير ترقب زعيماً يقودها وكلما وجد القائد وجدت الثورة على حكم الأمويين. ونلاحظ هذه الروح الثورية، في كل الثورات التي حملت شعار الثأر لدم الحسين عليه السلام والتي جاءت صدى لثورته عليه السلام ونجمل هنا ذكر هذه الثورات وهي:

1 - **ثورة التوابين**: اندلعت في الكوفة، وكانت رد فعل مباشر لقتل الحسين عليه السلام، وانطلقت من شعورها بالإثم لتركهم نصرة الحسين عليه السلام، بعد أن استدعوه بكتبهم إلى الكوفة ورأوا أن يغسلوا عارهم بالإنتقام من قتلة الحسين عليه السلام وكانت سنة 65 للهجرة[1].

(1) الطبري، ثورة التوابين، ج4، ص426-436.

2 ـ **ثورة المدينة**: وهي ثورة تختلف في دوافعها عن ثورة التوابين فهي لم تستهدف الإنتقام، بل استهدفت تقويض سلطان الأمويين الظالم، وقد ثارت المدينة على الأمويين، وطرد الثائرون عامل يزيد والأمويين وقدرهم ألف رجل، ولكن الثورة قمعت بجيش من الشام بوحشية متناهية[1].

3 ـ **ثورة المختار الثقفي**: ثار المختار بن أبي عبيدة الثقفي سنة 66 للهجرة في العراق طالباً ثأر الحسين، وقد تتبع المختار قتلة الحسين وآله في كربلاء وقتلهم فقتل منهم في يوم واحد مائتين وثمانين رجلاً[2].

4 ـ **ثورة مطرف بن المغيرة**: وفي سنة 77 هجرية ثار مطرف بن المغيرة بن شعبة على الحجاج بن يوسف، وخلع عبد الملك بن مروان[3].

5 ـ **ثورة ابن الأشعث**: وفي سنة 81 هجرية ثار عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على الحجاج، وخلع عبد الملك بن مروان، وقد استمرت ثورته إلى سنة 83 هجرية وأحرزت انتصارات عسكرية ثم قضى عليها الحجاج بجيوش سورية[4].

6 ـ **ثورة زيد بن علي بن الحسين عليه السلام**: وفي سنة 122 هجرية ثار زيد في الكوفة ولكن سرعان ما أخمد أوار ثورته الجيش الشامي الذي كان مرابطاً في العراق[5].

هذه نماذج من الثورات التي تأثرت بوضوح بروح الثورة التي بثها الحسين عليه السلام في الشعب المسلم والتي استمرت طيلة الحكم الأموي، حتى قضت عليه بثورة العباسيين، والتي لم تكن لتنجح لو لم تعتمد على إيحاءات ثورة الحسين عليه السلام واستغلالها لشعار «**الرضا من آل البيت عليهم السلام**» الذي أكسبها الكثير من القواعد الشعبية المؤيدة والعطف الجماهيري.

ولكن الثورات استمرت على حالها تتحدى الإنحرافيين الجدد ولم تخمد بل بقيت ناشبة أبداً بها الإنسان المسلم فيعبر بها عن إنسانيته التي خنقها الحاكمون وزيفوها[6].

(1) الطبري ثورة المدينة، ج4، ص366ـ381.
(2) نفس المصدر، ج4، ص424.
(3) نفس المصدر، ثورة مطرف.
(4) نفس المصدر، ثورة الأشعث والدولة العربية، «ول هاوزن»، ص189ـ203.
(5) مقاتل الطالبين للأصفهاني، ص139.
(6) محاضرات في التاريخ الإسلامي، د. عواد الأعظمي، ص3ـ22.

وكان ذلك بفضل الروح التي بثتها ثورة الحسين عليه السلام في كربلاء، فقد كانت ثورته عليه السلام رأس الحرية في التاريخ الثوري فهي الثورة الأولى التي عبأت الناس ودفعت بهم في الطريق الدامي الطويل، طريق الجهاد والمقاومة، بعد أن كادوا أن يفقدوا إرادة الجهاد[1].



أسئلة حول الدرس

1 ـ كيف كشفت عاشوراء عن الإطار الديني المزيف لبني أمية؟

2 ـ ما هي الآثار النفسية للنهضة الحسينية على المجتمع الإسلامي آنذاك؟

3 ـ ما هو الأثر الجهادي للنهضة الحسينية وكيف تجلى ذلك في الثورات من بعده؟

(1) ثورة الحسين ظروفها، محمد مهدي شمس الدين، ص223.

14

الإمام علي بن الحسين عليه السلام (1)

مقدمة:

إن الحديث عن الإمام السجاد عليه السلام وكتابة سيرته عمل صعب، لأن أساس تعرف الناس على هذا الإمام تم في أجواء غير مساعدة إطلاقاً. ففي ذهن أغلب كتّاب السيرة والمحللين أن هذا الإنسان العظيم قد انزوى للعبادة ولم يكن له أي تدخل في السياسة. حتى أن بعض المؤرخين وكتّاب السيرة ذكروا هذه المسألة بشكل صريح.

أمّا الذين لم يقولوا هذا الأمر بصراحة فإن مفهومهم عن حياة الإمام السجّاد عليه السلام ليس سوى هذا الأمر. وهذا المعنى موجود في الألقاب التي تنسب إليه والتعابير التي يطلقها الناس عليه: كما يطلق البعض لقب «**المريض**» عليه، في حين أن مرضه لم يستغرق أكثر من عدة أيام في واقعة عاشوراء. ومن الطبيعي أن كل إنسان يمرض في حياته عدة أيام، وإن كان مرض الإمام عليه السلام للمصلحة الإلهية حتى لا يكلف هذا العظيم بالدفاع والجهاد في سبيل الله في تلك الأيام ليستطيع في المستقبل أن يحمل الحمل الثقيل للأمانة والإمامة على عاتقه، ويبقى حياً بعد والده لمدة 35 أو 34 سنة ويقضي فترة أصعب عصور الإمامة عند الشيعة.

أنتم عندما تنظرون إلى ماضي حياة الإمام السجّاد عليه السلام سوف تجدون حوادث متنوعة وملفتة جداً، كما حدث لبقية أئمتنا، وربما جمعنا سير الأئمة عليهم السلام معاً فلن نجد مثل سيرة السجاد عليه السلام.

إن سيرة كل إنسان بالمعنى الواقعي للكلمة تتضح عندما نعرف التوجه العام الذي سار عليه ومن بعدها نقوم بملاحظة الحوادث الجزئية في حياته. فإذا عرف التوجه العام فإن الحوادث الجزئية سوف تصبح ذات معنى، أما إذا لم يعرف ذلك التوجه العام أو فهم خطأ فإن تلك الحوادث الجزئية سوف تصبح بدون معنى أو بمعنى خاطئ. وهذا

لا يختص فقط بالإمام السجاد عليه السلام أو سائر أئمتنا عليهم السلام بل أن هذا يصدق وينطبق على سيرة كل إنسان.

التوجه العام للأئمة عليهم السلام:

نحن نشاهد بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام الذي وقع في السنة الأربعين للهجرة، أن أهل البيت عليهم السلام لم يلتزموا بالبقاء داخل البيت والإقتصار على بيان الأحكام الإلهية فقط، بل نجد منذ أول أيام الصلح أن برنامج كل الأئمة عليهم السلام كان يقوم على تهيئة المقدمات لإقامة الحكومة الإسلامية التي يرونها هم.

وهذا ما نلحظه بوضوح في حياة الإمام السجاد عليه السلام.

الصورة العامة لحياة الإمام السجاد عليه السلام :

فقد كان الإمام السجاد عليه السلام في الفترة ما بين استلامه للإمامة منذ عاشوراء 61هـ، واستشهاده مسموماً عام 95هـ. يتابع مسؤولية تحقق هدف إقامة حكومة أهل البيتعليهم السلام. لذلك ينبغي أن نفسر جزئيات عمل الإمام والمراحل التي مرّ بها والأساليب التي استعملها والتوفيقات التي حصلت وكل الأمور التي بينها وكل التحركات التي قام بها والأدعية والمناجات التي جمعت في الصحيفة السجادية.. كل هذا ينبغي أن يفسّر بالنظر إلى الخط العام ومنها المواقف التي اتخذها طوال مدة الإمامة.

1 ـ موقفه من عبيد الله بن زياد ويزيد، الذي تميز بالبطولة والشجاعة والفداء.

2 ـ موقفه من مسرف بن عقبة الذي تميز بالهدوء، هذا الرجل الذي قام بتدمير المدينة واستباح أموالها بأمر من يزيد في السنة الثالثة من حكمه.

3 ـ حركة الإمام مقابل عبد الملك بن مروان أقوى خلفاء بني أميّة وأمكرهم حيث تميز موقفه بالشدّة حيناً والإعتدال حيناً آخر.

4 ـ موقف الإمام عليه السلام من عمر بن عبد العزيز.

5 ـ تعامل الإمام مع أصحابه وأتباعه ووصاياه لأصدقائه.

6 ـ موقف الإمام من وعّاظ السلاطين وأعوان الظلمة.

كل هذه المواقف والتحركات ينبغي أن تدرس بدقة. ووفق تصوري أرى أنه بالإلتفات إلى النهج العام فإن كل هذه الجزئيات والحوادث سوف تكتسب معاني مناسبة وواضحة. وسوف نجد عندها أن هذا الإنسان العظيم قد قضى كل حياته وسعيه في طريق الهدف المقدس وهو إقامة حكومة الله على الأرض وتطبيق الإسلام، وقد استفاد من أنضج وأفضل الوسائل، وتقدّم بالقافلة الإسلامية التي كانت بعد واقعة عاشوراء في تشرذم وتفرّق مهول، وأنجز مهمته العظمى ومسئوليته الأصيلة (التي سوف نشير إليها بالتفصيل لاحقاً). والتي قام بها كل الأئمة وجميع الأنبياء والصالحين، مراعياً أصول السياسة والشجاعة والدقة في الأعمال. وبعد 35 سنة من الجهاد المستمر الذي لم يعرف الراحة أبداً رحل عن الدنيا كريماً مرفوع الرأس موكلاً حمل ثقل الرسالة من بعده إلى الإمام الباقر عليه السلام.

كانت هذه هي الصورة العامة لحياة الإمام السجاد عليه السلام. ولكن إذا أردنا أن ندرس تفاصيل الأحداث علينا أولاً أن نمهّد لها بالوضع السابق لها إذ يوجد في حياة الإمام السجاد فصل قصير ومحدّد نذكره أولاً ثم نقوم بعدها بشرح المسير العادي لحياة الإمام وتفصيل الأوضاع وأحوال الزمان والظروف التي كانت سائدة.

الفصل المصيري هو مرحلة ما بعد كربلاء، فصل الأسر الذي كان قصيراً ومؤثراً جداً ومعبراً حيث نشاهد الصلابة والقوة في شدة الأسر. لقد كان الإمام السجاد عليه السلام يرسم ملحمة بطولية عظيمة بأقواله وأفعاله خلال فترة الأسر والمرض هذه والتي تعتبر فترة مختلفة تماماً عن المرحلة الأساسية من حياته حيث بدأ يعمل على البنية التحتية باعتدال ودقة وهدوء، حتى أنه كان يجلس أحياناً مع عبد الملك بن مروان في مجلس واحد ويتصرف معه تصرفاً معتدلاً. أمّا في هذا الفصل فإننا نشاهد الإمام بصورة ثورية هادرة لا يسكت على أي حديث صغير. وكان أمام الملأ يردّ بأجوبة تزلزل أركان العدو.

في سوق الكوفة أيضاً وبصوت واحد وزمان واحد يخطب الإمام هو وعمته زينب وأخته سكينة فيثورون الناس ويفشون الحقائق.

وفي الشام. في مجلس يزيد أو في المسجد أمام جمع الناس يبين الإمام الحقائق بأبلغ بيان وتضمنت خطبه وكلماته حقانية أهل البيت عليهم السلام بالخلافة وأفشت جرائم

النظام الحاكم. ويبين مدى التخدير الشديد الذي يمارسه النظام ضد الناس الغافلين. ولا يوجد مجال هنا لذكر الخطبة وإماطة جزء من اللثام عن معانيها لأن هذا عمل مستقل ومنفصل عن موضوعنا ولكن ينبغي لكل من يريد أن يفسر هذه الخطبة أن يدرسها كلمة، كلمة مع الإلتفات إلى هذه الأصول، تلك كانت حالة الإمام السجاد عليه السلام في مرحلة الأسر العصيبة.

مرحلة ما بعد الأسر:

يطرح هنا سؤال وهو: لماذا يقوم الإمام السجاد عليه السلام في مرحلة ما بعد الأسر بالإعتدال والتقية ويغطي بالدعاء والأعمال المعتدلة على التحركات الثورية والشديدة، وفي مرحلة الأسر يتصرف بشدة وقوة ووضوح؟

والجواب أن مرحلة الأسر كانت فصلاً استثنائياً حيث كان على الإمام السجاد عليه السلام، وبمعزل عن كونه إماماً أن يهيئ أرضية التحرك لإقامة الحكومة الإلهية والإسلامية، وكان اللسان الناطق للدماء المسفوكة في عاشوراء، فالإمام السجاد عليه السلام لم يكن هنا في حقيقته بل كان لسان الحسين عليه السلام الصامت الذي تجلّى في هذا الشاب الثوري في الشام والكوفة. فلو لم يكن الإمام السجاد عليه السلام شديداً وحاداً وصريحاً في بيان القضايا فلن يبقى في الحقيقة مجال لعمله المستقبلي. لأن مجال عمله المستقبلي ينطلق من دم الحسين عليه السلام الذي كان أرضاً وأرضية للنهضات الشيعية في طول التاريخ.

وهكذا ينبغي أن يبدأ العمل أولاً بتحذير الناس، ثم في ظل هذا التحذير تبدأ المعارضة الأصولية والعميقة والبعيدة المدى، ولا يمكن أن يتحقق هذا التحذير إلا باللهجة الحادة والشديدة.

لذلك كان دور الإمام السجاد عليه السلام في هذه المرحلة ودور زينب عليها السلام بيان ثورة الحسين عليه السلام إذ أن معرفة الناس بقتل الحسين عليه السلام ولماذا قتل وكيف قتل سوف تؤثر على مستقبل الإسلام ومستقبل دعوة أهل البيت عليهم السلام، وكان ينبغي بذل الجهود الكبيرة لأجل نشر هذه الحقائق على مستوى المجتمع. لهذا تحرّك الإمام السجاد عليه السلام في هذا الإتجاه مثل سكينة وفاطمة الصغرى ومثل زينب نفسها ومثل كل أسير (كل بقدر

استطاعته). لقد اجتمعت كل هذه الطاقات حتى تنثر دم الحسين المسفوك في الغربة في كل المناطق الإسلامية التي مرّوا بها من كربلاء إلى المدينة، وحين دخل الإمام السجاد عليه السلام إلى المدينة كان عليه أن يبين الحقائق أمام العيون والنظار منذ وصوله. فكان هذا الفصل القصير مقطعاً استثنائياً في حياته.

المقطع التالي يبدأ حين يباشر الإمام السجاد عليه السلام حياته في المدينة كمواطن، ويبدأ عمله من بيت النبي صلى الله عليه وآله وحرمه. ولأجل بيان برنامج الإمام نحتاج إلى دراسة الأوضاع التي كانت سائدة وظروف زمانه أيضاً.

حتى نحدد كيف بدأ الإمام السجاد عليه السلام حركته وبأي هدف وتكتيكات، يلزم أن نحقق في الوضع العام لأتباع الأئمة المخالفين والمعارضين لنظام حكم خلفاء بني أمية، وهذا يعتبر فصلاً مستقلاً في حياة الإمام السجاد عليه السلام،إذا استطعنا أن ندخل في بحثه بالتفصيل فسوف نحل الكثير من المشكلات والمسائل المرتبطة بحياته، ثم نصل بعدها إلى تفاصيل ما أقدم عليه الإمام وقام به.

الأرضية الاجتماعية:

عندما جرت واقعة كربلاء سيطرت على كافة العالم الإسلامي، وخاصة عندما وصل الخبر إلى الحجاز والعراق، حالة من الرعب والخوف الشديد بين الشيعة وأتباع الأئمة، لأنهم شعروا أن حكومة يزيد لا تتورع عن ارتكاب أي شيء لإحكام قبضتها على كل شيء حتى ولو كان قتل الحسين بن علي عليه السلام سبط الرسول المعروف بالعظمة والإعتبار والقداسة في كافة أنحاء العالم الإسلامي. هذا الرعب الذي ظهرت آثاره في الكوفة والمدينة بلغ ذروته بعد مرور زمان معين إثر وقوع عدة حوادث أخرى. إحداها حادثة الحرة. فسيطر جو القمع الشديد في منطقة نفوذ أهل البيت عليهم السلام في الحجاز (وخاصة المدينة) وفي العراق (وخاصة الكوفة). فضعفت الإتصالات وصار أتباع الأئمة والمعارضون القلة لنظام بني أمية في حالة ضعف وعدم ثبات.

وتنقل رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في الحديث عن الوضع في ذلك الزمان: «**ارتد الناس بعد الحسين عليه السلام إلا ثلاثة**».

وذُكر في رواية أنهم خمسة وفي البعض أنهم سبعة.

وفي رواية عن الإمام السجاد عليه السلام يرويها أبو عمر المهدي ـ يقول سمعت عن الإمام عليه السلام أنه قال: «**وما بمكة والمدينة عشرون رجلاً يحبنا**».

وقد نقلت هذين الحديثين حتى يتضح الوضع العام لعالم الإسلام بالنسبة للأئمة وأتباعهم. فهذا القمع الذي حدث أوجد مثل تلك الحالة التي صار فيها أتباع الأئمة عليهم السلام متفرقين آيسين خائفين لا يملكون القدرة على التحرك. ولكن في تلك الرواية يكمل الصادق عليه السلام القول: «**ثم إن الناس لحقوا وكثروا**».

التنظيمات السرية:

لو أردنا أن نفصل هذه القضية المذكورة أكثر لكانت على هذا النحو: بعد واقعة شهادة الإمام الحسين عليه السلام صار الناس في خوف ورعب لكن ليس إلى درجة زوال التنظيمات التي أعدها أتباع الأئمة عليهم السلام. ودليل ذلك أننا نرى في الوقت الذي جاءوا بأسرى كربلاء إلى الكوفة، شوهدت التحركات التي تدل على وجود التنظيمات الشيعية.

وبالطبع عندما نتحدث عن «**التنظيمات الشيعية السرية**» لا نقصد النمط الموجود للتنظيمات في هذا العصر، بل المقصود تلك الروابط العقائدية التي كانت تصل الناس بعضهم ببعض وتحملهم على التضحية والأعمال السرية، والتي تؤلف في أذهاننا مجموعة واحدة.

في تلك الأيام التي كان أهل البيت عليهم السلام في الكوفة يسقط في إحدى الليالي حجرٌ في السجن الذي كانوا فيه، وإذا بالحجر لُفَّ بورقةٍ كُتب عليها: «**لقد أرسل حاكم الكوفة رجلاً إلى يزيد في الشام حتى يعلم ماذا يفعل بكم. فإذا سمعتم غداً ليلاً صوت تكبير فاعلموا أنكم ستقتلون ها هنا وإذا لم تسمعوا فاعلموا أن الوضع سيتحسن**».

عندما نسمع مثل هذه القصة ندرك جيداً وجود شخص من أعضاء هذه التنظيمات داخل الجهاز الحاكم لابن زياد وهو مطلع على ما يجري، ويمكنه أن يصل إلى السجن ويوصل صوته إليه.

مثال آخر: عبد الله بن عفيف الأزدي الرجل الأعمى الذي قام بردة الفعل الأولى

عند ورود الأسرى إلى الكوفة وأدى ذلك إلى استشهاده. وكذلك ما رأيناه في الشام عندما التقى الناس بأهل البيت عليهم السلام من البكاء والتلاوم وقد تكررت هذه الحوادث في مجلس يزيد أيضاً.

بناءً على هذا، ومع فرض جو من القمع الشديد بعد هذه الحادثة لم ينهدم نظام عمل أتباع أهل البيت عليهم السلام ولم يحصل لهم التشتت والضياع. ولكن بعد وقوع حوادث أخرى ازداد جو القمع أكثر ومن هنا يمكن ربط الحديث «**ارتد الناس بعد الحسين عليه السلام**» بالحوادث التي وقعت بعده.

وخلال هذه المرحلة ـ قبل وقوع الحوادث الأخرى ـ قام الشيعة بإعادة الانسجام السابق والإستعداد.

وينقل الطبري قائلاً: «فلم يزل القوم في جمع آلة الحرب والإستعداد لها» وهو يقصد الشيعة في طلب الثأر لدماء الحسين بن علي عليه السلام. وازداد عددهم يوماً بعد يوم حتى مات يزيد بن معاوية.

ولهذا نجد مع كل هذا الضغط والقمع الشديد استمرار التحركات. كما ينقل الطبري. ولعله لهذا السبب يقول مؤلف كتاب «جهاد الشيعة» (وهو كاتب غير شيعي ولا يمتلك رؤية واقعية تجاه الإمام السجاد عليه السلام ولكنه أدرك هذه الحقيقة): «أصبح الشيعة بعد شهادة الحسين عليه السلام كتنظيم واحد تجمعهم الإعتقادات والروابط السياسية ويعقدون الإجتماعات، ولهم القادة والقوى العسكرية. وكان التّوابون أول مظهر لهذه التنظيمات».

وهكذا شعرنا مع تسلّل الضعف إلى التنظيمات الشيعية إثر حادثة عاشوراء أن هذه التحركات في مقابل هذا الوضع استمرت بنشاط لإعادة هذا التنظيم إلى سابق عهده إلى أن جرت «واقعة الحرة». وبرأيي فإن واقعة الحرة كانت مفصلاً عظيماً في تاريخ التشيع وضربة كبيرة جداً له.

لقد جرت هذه الواقعة سنة 63 للهجرة، وتفصيلها باختصار أنه في سنة 62هـ وُلّي أحد شباب بني أمية على المدينة ففكر لاستمالة قلوب الشيعة في المدينة أن يدعو بعضهم إلى ملاقاة يزيد. فدعى بعض أشراف المسلمين والصحابة ـ الذين كانوا في

معظمهم من محبي الإمام السجاد عليه السلام ـ إلى الشام للقاء يزيد والإستئناس به، فذهبوا إلى الشام والتقوا به ومكثوا عدة أيام وأعطاهم يزيد مبالغ كبيرة من المال (بمقدار 50 ألف درهم أو مائة ألف) ثم رجعوا إلى المدينة.

عندما عادوا إلى المدينة ـ ولأنهم رأوا الفجائع في بلاط يزيد ـ بدءوا بانتقاده والتهجم عليه. وانقلبت القضية، فبدلاً من مدحه والثناء عليه بدءوا بالتشهير به وقالوا للناس: كيف يمكن أن يكون يزيد خليفة وهو شارب للخمر ويلاعب الكلاب والقردة ويمارس أنواع الفسق والفجور. إننا نخلعه عن الخلافة.

وكان على رأس هؤلاء عبد الله بن حنظلة الذي دعا الناس إلى القيام على يزيد وخلعه. فأدت هذه الحركة إلى أن يأمر يزيد أحد قادته من بني أمية ويدعى «مسلم بن عقبة» بالإسراع إلى المدينة وإخماد الثورة فيها. فقدم ابن عقبة وحاصرها عدة أيام ثم دخلها وارتكب فيها أبشع وأفجع الجرائم التي لم يحدث مثلها في تاريخ الإسلام.

وقد عُرف بعد هذه الحادثة المفجعة باسم «مسرف بن عقبة».

مجريات وتفاصيل هذه الحادثة كثيرة ولا أريد هنا أن أشرح ما جرى، ولكن يكفي أن أقول أنها أصبحت أكبر وسيلة لإرعاب محبي وأتباع أهل البيت عليهم السلام، خاصة في المدينة التي هرب منها من هرب وقتل آخرون، بعضهم من أصحاب أهل البيت عليهم السلام الخيرين كعبد الله بن حنظلة.

لقد وصل هذا الخبر إلى كافة أقطار العالم وعُلِم أن النظام الحاكم سوف يقف بقوة أمام أية حركة من هذا القبيل.

الحادثة الأخرى التي أدت إلى إضعاف الشيعة هي حادثة شهادة المختار في الكوفة وتسلط عبد الملك بن مروان على كافة العالم الإسلامي.

فبعد موت يزيد، تبعه خلفاء لم يدوموا في الحكم إلا فترات قليلة كمعاوية بن يزيد الذي لم يحكم أكثر من ثلاثة أشهر، ثم مروان بن الحكم الذي حكم لمدة سنتين أو أقل ثم وصل الأمر إلى عبد الملك الذي كان أكثرهم تدبيراً كما جاء بشأنه.

«كان عبد الملك أشدهم شكيمة وأقساهم عزيمة».

فاستطاع أن يقبض على زمام أمور العالم الإسلامي بيده ويوجد نظاماً إرهابياً وقمعياً وكان إمساكه بزمام الأمور متوقفاً على القضاء على خصمائه.

فالمختار الشيعي قد صُفيّ قبل مجيئه على يد مصعب بن الزبير. ولكن عبد الملك أراد أن يضع نهاية لاستمرار حركة المختار وغيره في عالم التشيع. وبالفعل قام بذلك، حتى عانى الشيعة في العراق وخاصة الكوفة التي كانت في ذلك الوقت أهم مراكزهم أشد معاناة.

على كل حال، بدأت هذه الحوادث من واقعة كربلاء ثم تتالت: من قبيل واقعة الحرة والقضاء على حركة التوابين في العراق وشهادة المختار وشهادة إبراهيم بن مالك الأشتر النخعي وآخرين عظام من الشيعة. وبشهادتهم طغى جو من القمع والخوف الشديد على المراكز الشيعية في المدينة والكوفة وحلت غيوم الغربة والوحدة على المكان.

موقف الإمام عليه السلام في مراحل القمع:

يظن البعض أن الإمام عليه السلام فيما لو أراد أن يقاوم نظام بني أمية لكان ينبغي أن يرفع راية المقاومة العسكرية، أو أن يلتحق بالمختار أو عبد الله بن حنظلة أو أن يقودهما معلناً بذلك المقاومة المسلحة بكل وضوح، لكننا نفهم من خلال النظر إلى ظروف زمان الإمام السجاد عليه السلام أن هذا ظنٌّ خاطئ وذلك بالإلتفات إلى هدف الأئمة عليهم السلام الذي سأبينه لاحقاً.

لو قام الأئمة عليهم السلام، ومن جملتهم الإمام السجاد عليه السلام في تلك الظروف بمثل هذه التحركات العلنية والسلبية، فباليقين لما بقي للشيعة باقية، ولما بقيت الأرضية أو فسح المجال لاستمرار ونمو مدرسة أهل البيت عليهم السلام ونظام الولاية والإمامة فيما بعد.

لهذا نجد أن الإمام السجاد عليه السلام في قضية المختار لم يعلن التعاون معه، وبرغم ما جاء في بعض الروايات عن ارتباط سري بينهما إلاّ أنه وبدون أدنى شك لم يكن ارتباطاً علنياً، حتى قيل في بعض الروايات أن الإمام السجاد عليه السلام كان يذم المختار ويبدو هذا الأمر طبيعياً جداً من ناحية التقية وذلك حتى لا يُشعر بوجود أي ارتباط بينهما، مع العلم بأن المختار فيما لو انتصر فإنه بالتأكيد كان سيعطي الحكومة لأهل البيت عليهم السلام،

ولكن في حال هزيمته، ومع وجود أدنى ارتباط واضح وعلني، لكانت النقمة شملت وبشكل قطعي الإمام السجاد عليه السلام وشيعة المدينة واجتثت جذور التشيع أيضاً. لأجل ذلك لم يُظهر الإمام عليه السلام أي نوع من الإرتباط العلني معه.

جاء في رواية أنه عندما دخل مسلم بن عقبة إلى المدينة في واقعة الحرة، لم يشك أحد على الإطلاق في أن أول شخص سيقع ضحية نقمته هو علي بن الحسين عليه السلام، لكن الإمام السجاد بتدبيره الحكيم تصرف بحيث دفع هذا البلاء عنه، وبذلك حافظ على استمرار المحور الأصلي وهناك روايات في بعض الكتب. منها «بحار الأنوار» تحكي عن إظهار التذلل من قبل حضرة السجّاد عليه السلام عند مسلم بن عقبة، ولكنني بالقطع أكذب هذه الروايات وذلك للأسباب التالية:

أولاً: لا تستند هذه الروايات إلى أي سند صحيح.

ثانياً: يوجد روايات أخرى تكذبها وتدفعها من حيث المضمون.

ففي لقاء الإمام الحسين عليه السلام مع مسلم بن عقبة يوجد روايات عديدة لا تنسجم أية واحدة منها مع الأخرى، ولأن بعض تلك الروايات تنطبق وتنسجم أكثر مع نهج الأئمة وسيرتهم، فنحن بصورة طبيعية نقبلها.

على كل حال، مع أننا لا نقبل تلك الروايات التي تتحدث عن صدور مثل هذه الأفعال من الإمام ولكننا لا نشك أيضاً في أن الإمام لم يقابل مسلم بن عقبة بتصرف معاد، لأن أي تصرف من هذا القبيل سوف يؤدي إلى قتل الإمام، وهذا سيؤدي بدوره إلى خسارة عظيمة لا تجبر بلحاظ الدور الذي ينبغي أن يقوم به الإمام السجاد عليه السلام بالنسبة لثورة الحسين عليه السلام وتبليغ حقيقتها. لهذا يبقى الإمام ـ وكما قرأنا في رواية الإمام الصادق عليه السلام. ويلحق الناس به شيئاً فشيئاً ويزداد عددهم. وفي ظل تلك الظروف الصعبة وغير المساعدة يبدأ عمل الإمام السجاد عليه السلام.

في تلك الفترة ساد حكم عبد الملك، الذي شمل أكثر مراحل الإمامة لمدة تجاوزت الثلاثين سنة ـ وكان نظامه يقوم بالرصد التام والمراقبة الدائمة لحياة الإمام السجاد عليه السلام، ويستخدم الجواسيس والعيون الكثيرة التي كانت تنقل إليه أدق التفاصيل حتى المسائل الداخلية والخاصة للإمام.

فمثلاً كان للإمام السجاد عليه السلام جارية تزوجها بعد أن أعتقها. وصل هذا الخبر إلى عبد الملك، فكتب رسالة إلى الإمام السجاد عليه السلام أراد أن يفهمه فيها أنه مطلع على أعماله ومجريات حياته، وكان يريد ضمن ذلك أيضاً أن يقوم بنوع من التفاخر والإستعلاء، فكتب للإمام إن هذا العمل ليس من سيرة قريش وأنت من قريش فما كان ينبغي أن تفعل هذا! فأجابه الإمام جواباً شديداً مظهراً عدم تقبله لتصرف عبد الملك الممتزج بالتودد والمكر.

أهداف الإمام عليه السلام:

بعد أن توضحت ساحة الإمام السجاد عليه السلام أشير بشكل مختصر إلى الهدف والمنهج الذي اعتمده الأئمة. وبعد ذلك نقوم بدراسة جزئيات حياة هذا الإمام فيما يتعلق بهذا النهج.

بدون شك كان الهدف النهائي لحضرة السجاد عليه السلام إيجاد الحكومة الإسلامية. ولكن كيف يمكن أن تقام الحكومة الإسلامية في مثل تلك الظروف؟ إن هذا يحتاج إلى عدة أمور:

1- ينبغي أن تدوّن وتدرس وتنتشر المدرسة الإسلامية الحقيقية التي يحمل علمها الأئمة عليهم السلام، هذه المدرسة التي هي أيضاً المبنى الأساس للحكومة الإسلامية.

إذ كيف يمكن أن تقام حكومة مبينة على أساس الفكر الإسلامي الأصيل، والمجتمع الإسلامي قد أبعد لسنوات طويلة عن الفكر الإسلامي الصحيح إضافة إلى أنه لم يكن هناك أية ظروف مساعدة لنشره وتثبيت أركانه بين الناس.

إن أعظم الأدوار التي مارسها الإمام السجاد عليه السلام هي أنه دوّن الفكر الأصيل للإسلام: كالتوحيد، والنبوة، وحقيقة المقام المعنوي للإنسان، وارتباطه بالله، وأهم دور أدته الصحيفة السجادية هو في هذا المجال. فانظروا إلى هذه الصحيفة، ثم جولوا ببصركم في أوضاع الناس على صعيد الفكر الإسلامي في ذلك الزمان ستجدون مدى المسافة التي تفصل بين الإثنين.

ففي ذلك الزمان الذي كان المسلمون في أنحاء العالم الإسلامي يسيرون نحو الحياة

المادية والملذات بدءاً من شخص الخليفة عبد الملك بن مروان إلى العلماء المحيطين به (ومن جملتهم محمد بن شهاب الزهري، وسوف أذكر أسماء علماء البلاط فيما بعد)، نزولاً إلى الجميع الذين كانوا يغوصون في بحر الدنيا والماديات، يقف الإمام السجاد عليه السلام ويقول مخاطباً الناس.

«أوَلا حر يدع هذه اللماظة لأهلها».

ففي هذه الجملة يوضح الإمام أن الفكر الإسلامي الأصيل كان عبارة عن جعل الهدف للمعنويات والتحرك نحو الوصول إلى الأهداف المعنوية والإسلامية، وجعل الإنسان يرتبط بالله عبر التكليف. وهذا هو الموقف المقابل تماماً في ذلك الزمن.

كان على الإمام السجاد عليه السلام أن يقوم بعمل كبير من أجل أن يحفظ الفكر الأصيل للإسلام في فضاء المجتمع الإسلامي. وكانت هذه الحادثة بداية أعمال الإمام السجاد عليه السلام.

2 ـ تعريف الناس على حقانية أولئك الذين ينبغي أن يتسلموا زمام الحكم. إذ كيف يمكن لأهل البيت عليهم السلام تشكيل حكومة في الوقت الذي كان الإعلام والتبليغ ضد آل الرسول قد ملأ العالم الإسلامي طوال عشرات السنين حتى عصر الإمام السجاد عليه السلام وفيه ظهرت الأحاديث الموضوعة عن رسول الله صلى الله عليه وآله والتي تخالف حركة أهل البيت عليهم السلام بل إنها في بعض الموارد تشتمل على سبهم ولعنهم، وقد نشرت بين أناس لم يكن لديهم أي اطلاع على المقام المعنوي والواقعي لأهل البيت عليهم السلام.

لهذا، فإن أحد الأهداف والتحركات المهمة للإمام كانت ترتبط بتعريف الناس على حقانية أهل البيت وأن مقام الولاية والإمامة والحكومة حق ثابت لهم وهم الخلفاء الواقعيون للنبي صلى الله عليه وآله.

وهذا الأمر إضافة لما له من أهمية عقائدية وفكرية فإنه يرتبط بالحركة السياسية المناهضة للنظام الحاكم.

3 ـ كان على الإمام أن يؤسس بعض الأجهزة والتشكيلات التي يمكن أن تكون منطلقاً أصلياً للتحركات السياسية المستقبلية ففي مجتمع متمزق يعيش تحت أنواع القمع والتضييع المالي والمعنوي، وبالأخص الشيعة الذين كانوا يعانون من تضييق متزايد، لم

يكن باستطاعة الإمام السجاد عليه السلام أن يقوم وحده أو مع جماعة قليلة وغير منظمة بالثورة والمواجهة.

لهذا كان همّ الإمام السجاد عليه السلام أن يبدأ بتشكيل هذه التنظيمات التي كانت برأينا موجودة منذ أيام أمير المؤمنين غير أنها ضعفت وتلاشت إثر واقعة عاشوراء وثورة المختار.

بالنتيجة نجد أن عمل الإمام كان يدور ضمن ثلاثة محاور:

الأول: تدوين الفكر الإسلامي بصورة صحيحة وطبق ما أنزل الله، وبعد مرور أزمنة من التحريف والنسيان عليه.

الثاني: إثبات حقانية أهل البيت في الخلافة والإمامة.

الثالث: إيجاد التشكيلات المنظّمة لأتباع أهل البيت عليهم السلام وأتباع التشيع.

هذه الأعمال الثلاثة هي التي ينبغي أن ندرسها ونبحث فيها لنرى أي واحد منها قد تحقق في حياة الإمام السجاد عليه السلام.

إلى جانب هذه الأعمال كانت هناك أيضاً أعمال أخرى وتحركات قام بها الإمام وأتباعه لأجل اختراق ذلك الجو المرعب والقمعي. ففي ظل الإجراءات الأمنية المشدّدة التي كان يفرضها الحكم نلاحظ مواقف عديدة للإمام أو أتباعه كان الهدف منها كسر حواجز القمع وصناعة بعض الأجواء الملائمة واللطيفة، وخاصة مع الأجهزة الحاكمة أو التابعة لها، مثل المواقف التي حدثت بين الإمام وعبد الملك عدة مرات، أو الأمور التي جرت مع العلماء المنحرفين والتابعين لعبد الملك (من قبيل محمد بن شهاب الزهري) كل ذلك لأجل خرق ذلك الجو المتشدد.

إن الباحث عندما يستعرض الروايات سواء الأخلاقية منها أو المواعظ أو الرسائل التي نقلت عن الإمام أو المواقف التي صدرت منه وذلك على أساس ما بيّنّاه فإنه سوف يجد لها المعاني المناسبة وبتعبير آخر سوف يرى أن جميع تلك التحركات والأقوال كانت ضمن الخطوط الثلاثة التي أشرنا إليها والتي كانت تصب جميعاً في دائرة إقامة الحكومة الإسلامية. وبالتأكيد لم يكن الإمام يفكر في إيجاد حكومة إسلامية في زمانه لأنه كان يعلم أن وقتها في المستقبل - أي في الحقيقة عصر الإمام الصادق عليه السلام.



أسئلة حول الدرس

1 ـ ما هي الملامح العامة للمرحلة التي عاشها الإمام السجاد عليه السلام؟

2 ـ كيف كان تعاطي الإمام السجاد عليه السلام مع أولوية حفظ الشيعة وكيف تجسد ذلك في قضية التنظيمات السرية؟

3 ـ حدد أهم الأهداف التي عمل لأجلها الإمام السجاد تبعاً لظروف حياته؟

15

الإمام علي بن الحسين عليه السلام (2)

ولقد وصلنا في الأبحاث الماضية إلى أن هدف جميع الأئمة عليهم السلام بما فيهم الإمام السجاد عليه السلام كان إقامة الحكومة الإسلامية، وأن تحقيق هذا الهدف استلزم من الإمام السجاد عليه السلام القيام بثلاثة أدوار ـ بدونها لم يكن من الممكن إقامة هذه الحكومة.

الأول: تعريف الناس على الفكر الإسلامي الأصيل. هذا الفكر الذي دفن تراب النسيان نتيجة حكم الظالمين طوال ذلك الزمان، أو تعرّض للتحريف في عقول المسلمين. فكان على الإمام السجاد عليه السلام أن يقوم بتعريف الناس على الحقائق الإسلامية والأصول الدينية بكل ما أمكنه من قوة وبأكبر درجة تصل إليها أمواج كلماته وتعاليمه.

الثاني: تعريف الناس على حقيقة قضية الإمامة، وبتعبير آخر بيان مسألة الحكومة الإسلامية، والحكم الإسلامي الحقيقي وتوعية المجتمع الإسلامي على حقيقة مجريات ذلك الزمان الذي شهد حكم الظالمين، والكفار والفاسقين، وإفهامه بأن حكومة عبد الملك وأمثالها ليست الحكومة التي يريدها الإسلام. فما دام الناس غير مدركين لهذه القضية ولم يخرجوا من حالة التخدير التي تفاقمت على مرّ الزمان، فإن إقامة الحكومة التي يريدها الإمام السجاد عليه السلام سوف تبقى غير ممكنة.

الثالث: تشكيل مجموعة لتأسيس حزب يكون أعضاؤه كوادر أساسيين لجهاز الإمامة.

وبهذه الأمور الثلاثة سوف تتهيأ أرضية إقامة الحكومة الإسلامية والنظام الإسلامي.

لقد قلت سابقاً وأؤكد ما قلته الآن بأن الإمام السجاد عليه السلام لم يكن يرى أنه سيتم تحقيق الحكومة الإسلامية في زمانه (وهذا بخلاف ما عمل لأجله الإمام الصادق عليه السلام) فالأرضية لم تكن معدة لذلك، وكان الظلم والقمع والجهاد كبيرين إلى الدرجة التي

تصعب إزالتها خلال هذه السنوات الثلاثين. وكان الإمام السجاد عليه السلام يعمل للمستقبل. ومن خلال القرائن العديدة نفهم أيضاً أن الإمام الباقر عليه السلام لم يكن يهدف إلى إقامة حكومة إسلامية في زمانه، أي أنه منذ سنة 61 حتى 95 هـ (شهادة الإمام السجاد عليه السلام) ومنذ سنة 95 حتى 114 هـ (شهادة الإمام الباقر عليه السلام) لم يسع كل منهما إلى إقامة حكومة إسلامية في زمانه ولهذا كانا يعملان على المدى البعيد.

وسوف نستشهد على ما قلناه بكلمات وبيانات الإمام السجاد عليه السلام لأنها أفضل المصادر وأكثرها أصالة للتعرف على سيرة حياته عليه السلام بل على حياة كل الأئمة عليهم السلام. غاية الأمر. وكما أشرنا سابقاً أننا نفهم هذه البيانات بصورة صحيحة عندما نطّلع على حركة الأئمة عليهم السلام ومقصدهم من الجهاد والمواجهة والسعي والسير، وبغير هذه الصورة قد يساء فهم معاني هذه الكلمات، التي سوف أبينّها، إن شاء الله.

والآن بعد أن اطلعنا على بعض تلك الحوادث والتي استفدناها ببركة بيانات الأئمة عليهم السلام وكلماتهم، سوف نعتمد على نفس المصادر وسنري أية استفادات صحيحة نحصلها.

قبل أن ندخل في صلب البحث ينبغي أن نذكر بنقطة موجزة: فبسبب مرحلة القمع الشديد التي كان يعيشها الإمام السجاد عليه السلام، لم يستطع أن يبيّن لنا تلك المفاهيم بصورة واضحة ولذلك كان يستفيد من أسلوب الموعظة والدعاء (خاصة أدعية الصحيفة السجادية التي سوف نتعرض لها فيما بعد البيانات والروايات التي نقلت عن الإمام عليه السلام والتي كانت تطغى عليها حالة الموعظة) حيث كان الإمام ضمن بيان الموعظة والنصيحة يبّين ما أشرنا إليه سابقاً، وبهذا اتّبع الإمام السجاد عليه السلام منهجاً حكيماً وشديد الحذاقة. وبذلك الأسلوب الذي ظاهره موعظة الناس ونصحهم أدخل الإمام عليه السلام إلى أذهانهم ما يريده، وهذا من أفضل أشكال التعاطي الإيديولوجي والفكري الصحيح.

ما سنقوم بدراسته هنا هو كلمات الإمام السجاد عليه السلام الواردة في كتاب «تحف العقول» حيث نشاهد عدة أنواع من الأسلوب المذكور والتي تشير إلى طبيعة الجهات المخاطبة.

البيانات الموجهة إلى عامة الناس:

أحد تلك الأنواع، البيانات الموجّهة لعامة الناس والتي يظهر فيها أن المستمع ليس من الجماعة المقربة والخاصة للإمام أو من الكوادر التابعين له. وفي هذه الخطابات يستند الإمام عليه السلام دائماً إلى الآيات القرآنية، لماذا؟ لأن عامة الناس لا ينظرون إلى الإمام السجاد عليه السلام كإمام بل يطلبون الدليل في كلماته، ولهذا كان الإمام يستدّل إما بالآيات أو بالإستعارة من الآيات، حيث استخدم هذا الأسلوب في أكثر من ٥٠ مورداً ذكر في تلك الروايات.

ولكن في الخطاب الموجّه إلى المؤمنين نجد الأمر مختلفاً لأن هؤلاء المؤمنين يعرفون الإمام السجاد عليه السلام وقوله مقبول عندهم ولهذا لم يكن يستند في كلامه إلى الآيات القرآنية. ولو أحصينا كل كلامه الموجه إليهم لوجدنا أن استخدام الآيات القرآنية فيه قليل جداً.

في رواية مفصلة في كتاب «تحف العقول» تحت عنوان: «موعظة لسائر أصحابه وشيعته وتذكيره إياهم كل يوم جمعة»، نجد هنا أن دائرة المستمعين واسعة وهذا ما نستنتجه من القرائن المفصلة الواردة فيها.

ففي هذه الرواية لم يستخدم الإمام كلمة «أيها المؤمنون» أو «أيها الأخوة» حتى نعلم أن خطابه موجّه إلى جماعة خاصة ولكنه قال «أيها الناس» وهذا يشير إلى عمومية الخطاب.

ثانياً: لا يوجد في هذه الرواية تصريح بشيء معارض للجهاز، بل انصرف كل الخطاب لبيان العقائد، وما ينبغي أن يعرفه الإنسان وذلك بلسان الموعظة.

فالخطاب يبدأ هكذا: **﴿أيها الناس، اتقوا الله واعلموا أنكم إليه راجعون...﴾**.

ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى العقائد الإسلامية ويوجّه الناس إلى ضرورة فهم الإسلام الصحيح، وهذا يدل على أنهم لا يعرفون الإسلام الصحيح، يريد بذلك إيقاظهم من غفلة الجهل إلى معرفة الإسلام وتعاليمه.

انظروا مثلاً كيف يستفيد الإمام السجاد عليه السلام من أسلوبه الجذاب، حيث يقول: «**ألا وإن أول ما يسألانك عن ربك الذي كنت تعبده**»، وبهذا يريد أن يوقظ فيهم الدافع لمعرفة

الله وفهم التوحيد، «**وعن نبيك الذي أرسل إليك**»، ثم الدافع لفهم النبوة، «**وعن دينك الذي كنت تدين به، وعن كتابك الذي كنت تتلوه..**» وأثناء عرضه لهذه العقائد الأصيلة وهذه المطالب الأساسية للإسلام كالتوحيد والنبوة والقرآن والدين، يبيّن هذه النقطة الأساسية بقوله عليه السلام: «**وعن إمامك الذي كنت تتولاه**»، فهو هنا يطرح موضوع الإمامة، وقضية الإمامة عند الأئمة تعني قضية الحكومة أيضاً، إذ لا يوجد فرق بين الولاية والإمامة على لسان الأئمة عليهم السلام. وإن كان للولي والإمام معانٍ مختلفة عند البعض ولكن هاتين القضيتين، الولاية والإمامة، على لسان الأئمة أمر واحد والمراد منهما واحد. وكلمة «الإمام» المقصودة هنا تعني ذلك الإنسان المتكفل بإرشاد الناس وهدايتهم من الناحية الدينية، وأيضاً المتكفّل بإدارة أمور حياتهم من الناحية الدنيوية، أي خليفة النبي صلى الله عليه وآله.

لفظة الإمام تعني المتقدم والقائد. فالإمام الصادق عليه السلام عندما كان يخاطب الناس في منى أو عرفات بقوله: «**أيها الناس إن رسول الله هو الإمام**»، كان يشير إلى أن الإمام هو ذلك الإنسان الذي يتولى أمور الناس الدنيوية.

في المجتمع الإسلامي أيام حكم عبد الملك بن مروان وفي عصر الإمام السجاد عليه السلام كان هذا المعنى يفهم بشكل خاطئ. لأن إمامة المجتمع، وهي إدارة شؤون حياة الناس، قد سلبت من أهلها وأعطيت إلى من لا أهلية لهم بها حيث كانوا يلقبون أنفسهم بالأئمة ويعرفهم الناس بذلك. فالناس كانوا يُطلقون لقب الإمام على عبد الملك ومن قبله أبيه وقبلهما يزيد وغيره، وقد قبلوهم على أساس أنهم قادة المجتمع وحكام الناس.

وهكذا عندما كان الإمام السجاد عليه السلام يقول: «**إنك ستسأل عن إمامك في القبر**»، كان يشير إلى أنك هل انتخبت الإمام المناسب والصحيح؟ وهل أن ذلك الشخص الذي كان يحكمك، ويقود المجتمع الذي تعيش فيه هو حقاً إمام؟ وهل هو ممن رضي الله عنه؟ لقد كان الإمام بهذا الكلام يوقظ الناس ليجعل هذه القضية في نفوسهم حساسة.

بهذه الطريقة كان الإمام يحيى قضية الإمامة التي لم يكن الجهاز الأموي الحاكم يرضى أبداً بالتطرق إليها في المواعظ وفي الخطابات العامة. (كانت من إحدى الوسائل الهادئة التي استخدمها الإمام في هذا المجال، وسوف نشير لاحقاً إلى أساليب أكثر جدية).

بناء على هذا ففي البيان العام الموجه إلى عامة الناس نجد أن الإمام وبلغة الموعظة يحيى المعارف الإسلامية، وخاصة تلك المعارف الحساسة في ذهن الناس ويسعى لأجل أن يتعرف الناس عليها ويتذكروها. ويمكن الإلتفات في هذا النوع من الخطاب إلى نقطتين اثنتين:

الأولى: إن هذا الأسلوب البياني للإمام عليه السلام لم يكن تعليمياً، بل هو من نوع التذكير، أي أن الإمام لم يكن يجلس ليبيّن للناس دقائق التوحيد، أو يفسر لهم مسألة النبوة. وإنما يذكرهم بها. لماذا؟ لأن المجتمع الذي كان يعيش فيه الإمام لم تكن تفصله عن مرحلة النبي صلى الله عليه وآله مسافة زمنية كبيرة حتى ينحرف كلياً عن العقائد الإسلامية. بل كان هناك الكثير من الأشخاص الذين عايشوا رسول الله صلى الله عليه وآله ومرت عليهم مرحلة الخلفاء الراشدين وقد عاصروا أئمتنا العظام من أمير المؤمنين عليه السلام إلى الإمام الحسن عليه السلام إلى الإمام الحسين عليه السلام. ومن الناحية الإجتماعية لم يكن الوضع قد وصل إلى مرحلة يعاني فيها المجتمع الإسلامي من الإنحراف العقائدي والأصولي بالنسبة لمسألة التوحيد والنبوة والمعاد والقرآن.

نعم، كانت هذه المسائل تدريجياً تخرج من ذاكرتهم، وكانت الحياة المادية تحيط بهم إلى درجة تنسيهم الفكر الإسلامي والعقيدة الإلهية.

كانت الحياة الدنيوية والمادية تسري في المجتمع بحيث لا تبقي في أذهان الناس أي توجه للمسابقة في مضمار المعنويات والخيرات. وإذا وجد هذا الأمر فإنه لم يكن ليتعدى القشور والسطوح.

أما بالنسبة للمفهوم الذي كان الناس في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله والعصر المتصل به يحملونه عن التوحيد والحساسية المتميزة تجاهه فإن الناس في عصر الإمام كانوا يفتقدونه، وهذا ما كان يستدعي التذكير حتى يرجع الأمر إلى سابق عهده، لا أن هناك أشياء محرفة ينبغي أن تصحح.

وهذا بخلاف المراحل اللاحقة، كمرحلة الإمام الصادق عليه السلام لأن المتكلمين والمتفلسفين والمفكرين، وتحت عناوين متعددة كانوا يجلسون في المساجد الكبرى، مثل مسجد المدينة وحتى المسجد الحرام ومسجد الشام ويدرّسون العقائد المنحرفة

والباطلة. لقد برز حينها أناس مثل «ابن أبي العوجاء» يدرسون عقائد الزنادقة والإلحاد. لهذا، إذا تأملتم أحاديث وكلمات الإمام الصادق عليه السلام تجدون بيان التوحيد والنبوة وأمثالها بصورة استدلالية.

فالحاجة إلى الإستدلال ضرورية لمواجهة استدلال الخصم، وهذا ما لا نجده في بيانات الإمام السجاد عليه السلام التي كانت تعتمد على الحالة الشعورية والوجدانية التي تذكر بالقضايا الأساسية.

وباختصار لم يكن عصر الإمام السجاد عليه السلام خروج عن الفكر الإسلامي حتى عند الحكام إلا في بعض الموارد التي يظهر فيها مثل هذا الأمر. وذلك عندما ألقى يزيد اللعين تلك الأبيات الشعرية في حالة السكر عندما أحضر أسرى أهل البيت عليهم السلام قال:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحيٌ نزل

ولكننا نستطيع أن نقول، أن هذا الكلام كان تحت تأثير السكر. فحتى أمثال عبد الملك أو الحجاج لم يكونوا يجرءون على إعلان مخالفتهم لفكرة التوحيد أو النبوة. لقد كان عبد الملك بن مروان يقرأ القرآن إلى درجة أنه عرف كأحد قرّاء القرآن. ثم عندما وصل إليه خبر تنصيبه خليفة قبل القرآن وقال: «هذا فراق بيني وبينك» إن هذا ما حدث فعلاً.

والحجاج بن يوسف الذي سمعتم عن ظلمه (وباليقين إن الذي سمعتموه هو أقل بكثير مما فعله) كان عندما يخطب في الناس يأمرهم بالتقوى. وهكذا نفهم سبب اعتماد الإمام السجاد عليه السلام على التذكير بالأفكار الإسلامية لإخراج الناس من مستنقع الدنيا والأهواء المادية إلى ساحة معرفة الله والدين والقرآن.

الثانية: وهي ما أشرنا إليه سابقاً أن الإمام عليه السلام كان يأتي على ذكر مسألة الإمامة من خلال بيانه العام الذي اتخذ أسلوب الموعظة والإرشاد. كما كان يحدث في النظام الشاهنشاهي البائد عندما كان البعض يتحدث إليكم ويذكّركم قائلاً: «**أيها الناس فكروا بالله، وبالتوحيد والنبوة وبقضية الحكومة..**»، فانظروا كيف يمكن أن نفهم مسألة الإمامة وكيف كانت هذه الكلمة في النظام السابق كلمة خطرة. فحينها لم يكن الإتيان على ذكر الحكومة بالأمر السهل.

أما إذا جاء ذلك بلغة الوعظ وعلى لسان رجل زاهد وعابد فإنه يمكن أن يقبل، وبتعبير آخر لن يثير الحساسيات.

هذا نوع من بيانات الإمام السجاد عليه السلام أما النوع الثاني فهو ذلك الخطاب الموجه إلى مجموعة خاصة لا تعرف هويتها. ولكن من الواضح أنه كان موجهاً إلى مجموعة خاصة لا تعرف هويتها. ولكن من الواضح أنه كان موجهاً إلى مجموعة من الذين يخالفون النظام الحاكم. فمن يمكن أن يكون هؤلاء؟

البيانات الموجهة إلى المعارضين للسلطة:

هذه الخطابات وإن لم يعلم منها بالتحديد من هي تلك الفئة المخاطبة، ولكن من الواضح أنها لفئة مخالفة للنظام الحاكم وأفرادها هم في الواقع من أتباع الإمام عليه السلام ومن المعتقدين بحكومة أهل البيت عليهم السلام.

ولحسن الحظ أننا نجد في كتاب تحف العقول نموذجاً لهذا النوع من البيانات (ولا نجد في غيره من الكتب موارد أخرى من هذا النوع بالرغم من أن هناك الكثير في حياة الإمام السجاد عليه السلام، ولكن على أثر الحوادث المختلفة التي جرت في ذلك العصر من القمع والتنكيل والإضطهاد وقتل الأصحاب زالت تلك الآثار وبقي القليل منها).

يبدأ الخطاب التابع لهذا النوع الثاني هكذا: «كفانا الله وإياكم كيد الظالمين وبغي الحاسدين وبطش الجبارين».

ويعلم من هذا البيان أن الإمام عليه السلام والجمع الحاضر مهددون من قبل السلطات الحاكمة. وأن المسألة ترتبط بمجموعة خاصة: المؤمنون بأهل البيت عليهم السلام، ولذلك جاء الخطاب بصيغة «يا أيها المؤمنون» خلافاً للنوع الأول حيث يستعمل «يا أيها الناس» و «يا ابن آدم». وذلك لأن الخطاب موجه في الحقيقة إلى المؤمنين بأهل البيت وأفكار أهل البيت عليهم السلام.

والدليل الآخر الواضح جداً عندما يقول عليه السلام: «**لا يفتننكم الطواغيت وأتباعهم من أهل الرغبة في الدنيا، المائلون إليها المفتونون بها، المقبلون عليها**».

فالمقصد الأصلي من الكلام هو حفظ هؤلاء المؤمنين وبناء الكادر اللازم للمستقبل ومن الواضح أنه على أثر الصراع الشديد في الخفاء ما بين أتباع الأئمة عليهم السلام وأتباع الطواغيت، فإن أتباع الأئمة عانوا من الحرمان الكبير، كما حدث في مرحلة جهادنا؛ أولئك الذين كانوا يواجهون الحكم قبل انتصار الثورة بالتأكيد لم يكونوا في حالة الراحة التي كان يعيشها غيرهم، وإنما كان السجن والنفي. والخوف والتعذيب والهروب عنوان حياتهم. فإذا كان أحدهم تاجراً أو بائعاً مثلاً يفرضون عليه ضرائب أكثر من الحد المعمول به، وإذا كان طالباً جامعياً يبقى دائماً مراقباً وقد يخرجونه من الجامعة. وإذا كان معمّماً يلاحق ويعتقل أو ينفى، أو إذا كان إدارياً يعزل أو يجمّد راتبه. فمهما كان المجاهد ومن أية طبقة كان، ففي زمن الشاه كان يعاني من حرمان مادي ونقص في الأموال. بل إنهم منعوا البعض من الذهاب إلى الحج وذلك بالتضييق عليه أو منعه من السفر.

والخطر الأكبر الذي يهدد المجاهدين هو أن يتوجهوا إلى الرفاهية، هذه الرفاهية التي لن تجرهم إلاّ إلى ترك الجهاد.

لقد كان الإمام عليه السلام يؤكد كثيراً على هذه النقطة ويحذر الناس من الرفاهيات في هذه الدنيا المتلألئة الكاذبة الخداعة التي لن تؤدي إلا إلى التقرب من الطواغيت، لهذا فإنكم تجدون في هذا البيان وفي العديد من بيانات الإمام السجاد عليه السلام وفي الروايات القصيرة التي نقلت عنه تأكيداً على هذا الأمر.

ماذا يعني التحذير من الدنيا؟ يعني حفظ الناس من الإنجذاب نحو أصحاب الرفاه والإيمان بهم وتمييزهم بحيث تخف حدة مواجهة الناس لهم. وبالطبع فإن هذا النوع من الخطابات موجه للمؤمنين، أما في الخطاب المتوجه إلى عامة الناس فقليلاً ما نجد مثل هذا النوع. ففي خطاب عامة الناس كما ذكرنا سابقاً كثيراً ما يظهر: أيها الناس التفتوا إلى الله، إلى القبر والقيامة، إلى أنفسكم والغد. فما هو هدف الإمام عليه السلام من هذا النوع الثاني من الخطاب؟ المقصود هو بناء الكادر.

فهو عليه السلام يريد أن يصنع من المؤمنين كوادر ملائمة للمرحلة ولهذا فإنه يحذرهم من الإنجذاب نحو أقطاب القدرة والرفاهية الكاذبة ويكرر ذكر النظام الحاكم للنوع الأول

من البيانات، كما يقول ﷺ مثلاً: «**وأن الأمور الواردة عليكم في كل يوم وليلة من مظلمات الفتن وحوادث البدع وسنن الجور وبوائق الزمان وهيبة السلطان ووسوسة الشيطان**».

وهنا نجد أن الإمام ﷺ مباشرة بعد ذكر هيبة السلطان وهيبته يذكر وسوسة الشيطان، يريد بذلك أن يلفت النظر إلى حاكم ذلك الزمان ويضعه إلى جانب الشيطان. وفي تتمة الكلام جملة ملفتة جداً (ولأنها مهمة جداً أنقلها عن مطلب ذكرته سابقاً): «**لتثبط القلوب عن نيتها وتذهلها عن موجود الهدى ومعرفة أهل الحق**»، (تلك الهداية الموجودة الآن في المجتمع).

فالإمام السجاد ﷺ يعظهم بنفس الأسلوب السابق، فهو يحذرهم من مجالسة أهل المعاصي؟ أولئك الذين جذبوا لنظام عبد الملك الظالم. الآن حاولوا أن تتصوروا شخصية الإمام السجاد ﷺ، وأن تكوّنوا فكرة عنه. هل ما زال ذلك الإمام المظلوم الصامت المريض الذي لا شأن له بالحياة؟ كلا، فالإمام هو الذي كان يدعو مجموعة من المؤمنين والأصحاب ويحذرهم، بهذه الصورة التي ذكرناها من التقرب إلى الظلمة ونسيان المجاهدة ويمنعهم من الإنحراف عن هذا الطريق، كل ذلك لأجل أن يكونوا مؤثرين في إيجاد الحكومة الإسلامية.

من جملة الأشياء التي أراها جلية وشديدة الأهمية في هذا القسم من بيانات الإمام السجاد ﷺ تلك الكلمات التي يّذكر فيها بتجارب أهل البيت ﷺ الماضية. ففي هذا القسم يشير الإمام ﷺ إلى تلك الأيام التي مرّت على الشيعة من قبل الحكام الجائرين مثل معاوية ويزيد ومروان. ووقائع مثل الحرة وعاشوراء وشهادة حجر بن عدي ورشيد الهجري وعشرات الحوادث المهمة ويريد الإمام ﷺ أن يحث أولئك المخاطبين من خلال ذكر تلك الحوادث الشديدة، على التحرك والثورة، والتفتوا الآن إلى هذه الجملة: «**فقد لعمري استدبرتم من الأمور الماضية في الأيام الخالية من الفتن المتراكمة والإنهماك فيها ما تستدلون به على تجنب الغواة و...**».

أي إنكم تستحضرون تلك التجارب وتعلمون ماذا سيفعل بكم أهل البغي والفساد - وهم حكام الجور - عندما يتسلطون عليكم؟ ولذلك يجب عليكم أن تتجنبوهم وتواجهوهم.

وفي هذا الخطاب يطرح الإمام مسألة الإمامة بصورة صريحة. أي قضية الخلافة والولاية على المسلمين والحكومة على الناس وإدارة النظام الإسلامي ولم يكن بمقدور الإمام في ذلك الوقت أن يوجه هذا الخطاب لعامة الناس. ثم يقول عليه السلام: «**فقدموا أمر الله وطاعته وطاعة من أوجب الله طاعته**».

وهنا يعيّن الإمام عليه السلام فلسفة الإمامة عند الشيعة والإنسان الذي يجب أن يطاع بعد الله. ولو فكّر الناس في ذلك الوقت بهذه المسألة لعلموا بوضوح أنه لا يجب طاعة عبد الملك. لأنه من غير الجائز أن يوجب الله طاعة عبد الملك. ذلك الحاكم الجائر بكل فساده وبغيه. وبعد أن يقدم الإمام عليه السلام هذه المسألة يتعرض لرد شبهة مقدّرة فيقول: «**ولا تقدموا الأمور الواردة عليكم من طاعة الطواغيت وفتنة زهرة الدنيا بين يدي أمر الله وطاعته وطاعة أولي الأمر منكم**».

ففي هذا الخطاب والخطاب السابق يركّز الإمام عليه السلام على مسألتين من المشاكل الثلاث التي أشرنا إليها سابقاً:

الأولى: تدوين الفكر الإسلامي وإحياؤه في أذهان الناس والحث على تعلمه.

والأخرى: مسألة الولاية السياسية أي الحكومة والقيادة للنظام الإسلامي.

وعندما يعرّف الإمام هاتين المسألتين فإنه يقوم في الواقع بتعريف النظام العلوي والنظام الإسلامي الإلهي.

ضرورة التشكيلات:

نوع آخر من بيانات الإمام السجاد عليه السلام وهو أهم من البيانين الأولين. ومن خلاله يدعو الإمام عليه السلام الناس بصراحة إلى ضرورة إيجاد تشكيلات خاصة، وبالطبع فإن هذه الدعوة موجهة إلى أولئك الذين يتبعون أهل البيت عليهم السلام وإلا لو كانت إلى غيرهم من عامة الناس لأفشيت وأدّت إلى إيذاء الإمام عليه السلام وتعرضه للضغوط الصعبة، وبحمد الله فإننا نجد نموذجاً لهذا النوع من البيانات في «تحف العقول».

يبدأ الإمام عليه السلام بهذه العبارة: «**إن علامة الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة، تركهم كل خليط وخليل ورفضهم كل صاحب لا يريد ما يريدون**».

وهذا تصريح بالدعوة إلى إيجاد تشكيلات شيعية.

فهو عليه السلام يعلمهم بأن عليهم الإبتعاد عن أولئك الذين يخالفونهم في الدافع ولا يتبعون الحكومة العلوية وحكومة الحق.

فليكن هناك مراودة ومعاشرة، ولكن لتكن مثل ما حدث في إيران عندما كان الناس يعلمون أن البقال الفلاني عميل للسافاك أو أن ذلك الشخص يعمل مخبراً للنظام.

وهناك نوع آخر من بيانات الإمام لا يوجد فيه تلك المطالب الكلية التي أشرنا إليها، مثل رسالة الحقوق.

ففي هذه الرسالة التي كتبها الإمام لأحد الأشخاص يذكر حقوق الأفراد والإخوان على بعضهم البعض، ويذكر حق الله عليك وحق أعضائك وجوارحك وحق العين واللسان و.. كما يذكر حق حاكم المجتمع الإسلامي وحقك عليه.

وبدون أن يذكر الإمام عليه السلام اسم الحكومة والمواجهة والنظام يبين خصائص الحكومة الإسلامية التي يمكن أن تتحقق في المستقبل .

ونوع آخر نجده في الصحيفة السجادية وهذا الأمر يتطلب مفصلاً ربما هو عمل أولئك الذين يعملون في هذا المجال.

فالصحيفة السجادية تتضمن مجموعة من الأدعية من كافة المجالات التي ينبغي أن يلتفت إليها الإنسان الحي والواعي. وأكثرها في الروابط والعلاقات القلبية والمعنوية للإنسان. ففي هذه الأدعية والمناجاة يحي الإمام عليه السلام الدوافع نحو حياة إسلامية ويوقظ الناس إليها.

إحدى النتائج التي يمكن أن تحصل من الأدعية، وقد ذكرناها مراراً، هي إحياء الشعور السليم والصحيح في القلوب. فعندما تقولون: (**اللهم اجعل عواقب أمورنا خيراً**) فإن هذا الدعاء يحي في قلوبكم ذكر العاقبة ويدفعكم للتفكر في المصير. فقد يغفل الإنسان أحياناً عن عاقبته، يعيش ولا يلتفت إلى مصيره. فإذا تلا هذا الدعاء يستيقظ فجأة إلى ضرورة تحسين عاقبته. أما كيف يتم ذلك فهذا بحث آخر. فقط أردت أن أضرب مثلاً حول الدور الصادق للدعاء. وهذا الكتاب المليء بالدوافع الشريفة للأدعية كاف لإيقاظ المجتمع وتوجيهه نحو الصلاح.

وإذا تجاوزنا ذلك، وجدنا روايات قصيرة وعديدة نقلت عن الإمام السجاد عليه السلام. منها ما ذكرته سابقاً: «**أولا حر يدع هذه اللماظة لأهلها**».

انظروا كم هو مهم هذا الحديث. فالزخارف الدنيوية والزبارج كلها بقية لعاب الكلب لا يتركها إلا الحر. وكل أولئك الذين يدورون في فلك عبد الملك إنما يريدون تلك اللماظة. وأنتم أيها المؤمنون لا تنجذبون إليها.

ونجد الكثير مثل هذه البيانات الثورية والملفتة للإمام عليه السلام.

وسوف نصل إليها فيما بعد إن شاء الله. لقد كان الإمام السجاد عليه السلام شاعراً، وشعره يحتوي على معان مهمة سوف نذكرها لاحقاً إن شاء الله.

أسئلة حول الدرس



1 ـ ما هي دوافع الإمام السجاد عليه السلام نحو التربية والبناء الفكري؟

2 ـ كيف عمل الإمام على إيصال الفكر الأصيل إلى الناس؟

3 ـ ما هي قضية التشكيلات وما هي دواعيها؟

16

الإمام علي بن الحسين عليه السلام (3)

المواجهات الشديدة مع علماء البلاط:

في تتمة بحثنا حول القضايا المرتبطة بسيرة الإمام السجاد عليه السلام وأساليبه وخططه لإيجاد الأرضية المساعدة للحركة التي يمكن أن تنتهي إلى إقامة الحكومة العلوية الإسلامية، ذكرنا ما ملخصه أن هذه التحركات كانت تتجه إلى التبيين والتوضيح عند البعض وإلى التشكيلات والتنظيم بالنسبة للبعض الآخر. وإلى الهداية والإرشاد بالنسبة لآخرين.

وهكذا يتخيل الإمام السجاد عليه السلام من خلال هذه الصورة التي قدمناها إنساناً صبوراً سعى خلال 35 سنة متواصلة إلى جعل تلك الأرضية السيئة جداً في عالم الإسلام، تتجه نحو الظروف التي يمكن له عليه السلام أو لخلفائه أن يحققوا من خلالها المجتمع الإسلامي، والحكومة الإسلامية.

ولو فرضنا أن تلك السنوات الخمس والثلاثين من عمره الشريف لم تكن موجودة لقطعنا بعدم وصول الأمر إلى الإمام الصادق عليه السلام بتلك الحال التي تمكن معها من التصرف والتعاطي الصريح والواضح مع الحكم الأموي، والعباسي فيما بعد.

وعليه، فلأجل إقامة وتحقيق المجتمع الإسلامي، لا بد من الأرضية الفكرية والذهنية وهذا ما يعتبر أهم من أي شيء آخر.

هذه الأرضية التي تطلب تحقيقها في ذلك العصر ـ من عالم الإسلام ـ متحملاً أعباءه الجسيمة وتكاليفه الباهظة.

إلى جانب هذا، نجد في حياة الإمام السجاد عليه السلام بعض المساعي الأخرى التي تدل في الواقع على مدى تقدم الإمام في المجال المذكور.

والقسم الأعظم من هذه المساعي سياسي. وأحيانا شديد القساوة، وأحد نماذجه

مواجهته، وكيفية تعامله مع العلماء التابعين، والمحدثين الكبار العاملين لصالح النظام الحاكم.

ولعل أكثر الأبحاث المتعلقة بحياة الأئمة إثارةً هو قضية تعامل الأئمة عليهم السلام مع حملة الفكر والثقافة في المجتمع الإسلامي أي العلماء والشعراء.

فالأئمة كانوا يتحملون مسؤولية هداية الناس في أفكارهم وأذهانهم، وأولئك كانوا يوجهون الناس إلى الوضع الذي يريده خلفاء بني أمية وبني العباس. والتسليم لأعمالهم.

احتياج الظلمة إلى وضع الأحاديث:

كما نعلم، فإن الحكام الظالمين: كانوا يرون في جذب قلوب الناس إليهم أهم عامل في بقاء ملكهم وسلطانهم، إذ لم يكن الفاصل الزمني بين الناس وبين صدر الإسلام كبيراً، وبالتالي كان إيمان الناس بالإسلام لا يزال قوياً. فإذا أدرك الناس أن البيعة التي قدموها للحكام ليست صحيحة. وأن هذا الظالم لا يجوز أن يكون خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله، لو أدركوا ذلك فبالتأكيد لن يرضوا أن يسلّموه قيادتهم بتاتاً. وحتى قلنا أن هذا الأمر لا يشمل الجميع. فعلى الأقل نقول: القدر المسلم به أن الكثيرين كانوا يتحملون الوضع المنافي للإسلام في الجهاز الحاكم نتيجة الإيمان القلبي، إذ أنهم كانوا يظنون أن هذا وضع إسلامي.

ولإبقاء هذه الضبابية في أذهان الناس كان حكام الجور يستغلون المحدثين وعلماء الدين قدر الإمكان ويحركونهم طبقاً لمصالحهم فيطلبون منهم وضع الأحاديث واختلاقها ونسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله والصحابة الكبار بما يوافق ميولهم وأهواءهم.

نماذج من اختلاق الحديث:

في هذا المجال يوجد موارد تقشعر منها الأبدان، ونحن ننقل بعضاً منها كمثال:

في زمن معاوية التقى شخص بكعب الأحبار. ولأن كعباً كانت له صلات حميمة مع معاوية سأل ذلك الشخص من أين أنت؟

قال: من أهل الشام.

قال له: لعلك من ذلك الجيش الذي يدخل منه 70 ألف جندي إلى الجنة بدون حساب.

قال: من هم هؤلاء.

قال: إنهم أهل دمشق.

قال: كلا لست من أهل دمشق.

قال كعب: إذن لعلك من ذلك الجيش الذي ينظر الله إليه كل يوم مرتين(11).

ـ من هم هؤلاء.

ـ أهل فلسطين.

وربما لو قال ذلك الشخص إنني لست من أهل فلسطين، لأخبره كعب الأحبار أحاديث عن كل من أهالي بعلبك وطرابلس وبقية مدن الشام بحيث يبيّن له أن أهل الشام هم الأفضل، وأنهم أهل الجنة.

وكعب الأحبار كان يختلق هذه الأحاديث ويصفها إما تملقاً لأمراء الشام حتى يكون نصيبه أكثر ومنزلته في قلوبهم أعلى، وأما بسبب العداء المتجذر في نفسه للإسلام وبغية تدمير الأساس العظيم لأحاديث رسول الله ﷺ.

ويوجد في كتب التذكرات والرجال والحديث الكثير من هذه القصص. منها قصة ذلك الأمير الذي أرسل ابنه إلى المدرسة (الكتّاب) وهناك ضربه المدرس. عندما رجع الابن باكياً إلى أبيه وأخبره غضب الأب وقال: سأذهب وأضع حديثاً على هذه المدرسة حتى لا يكرروا فعلتهم هذه.

ومن هذه القصة نعلم كم كان سهلاً اختلاق الأحاديث عندهم، حتى لو كان بدافع العصبية أو الشفقة على دموع الطفل.

وعلى أيّ حال فقد كان لهذا الوضع أثر واضح في إيجاد ذهنية وثقافة منحرفة وبعيدة عن الإسلام. كل ذلك بسبب أولئك المحدثين والعلماء العاملين في خدمة السلاطين والأقوياء.

وفي هذا الوضع تعتبر مواجهة هؤلاء عملاً في غاية الأهمية.

بعض الأحاديث المختلقة من محمد الزهري:

يوجد هنا نموذج يبين كيفية مواجهة الإمام السجاد عليه السلام لهذا الوضع:

كان محمد بن شهاب الزهري في البداية أحد تلامذة الإمام السجاد عليه السلام المقربين أي أنه من جملة الذين تعلموا علومهم ونقلوا الأحاديث عن الإمام، ولكن بالتدريج ـ بسبب التجرؤ الذي كان فيه ـ اقترب من نظام الحكم حتى صار أحد أعوانه وتحوّل إلى واحدٍ من الذين واجهوا الإمام.

ولأجل أن نطلع أكثر على وضع الزهري، ننقل عدة أحاديث بشأنه:

أحد هذه الأحاديث، ما جاء عنه: «كنا نكره كتابة العلم حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء فرأينا أن لا يمنعه أحد من المسلمين».

ويفهم من هذا الحديث أنه حتى ذلك الزمان لم يكن متعارفاً بين هذه الطائفة من المحدثين بأن كل ما يعلمونه من الأحاديث ينبغي أن يكتبوه، وكذلك يتضح أن محمداً بن شهاب الزهري كان في خدمة الأمراء وأنه كان يحمل على كتابة الأحاديث التي تناسبهم.

أحدهم يدعى معمر كان يقول: كنا نظن أننا قد نقلنا من الزهري أحاديث كثيرة إلى أن قتل الوليد. فعندما رأينا كتباً كثيرة تحمل على ظهور الدواب وتُخرج من خزائن الوليد ويقال: هذا علم الزهري أي أن الزهري وضع من الأحاديث التي تناسب الوليد وأهواءه ما عجزت عن حمله الرجال، ماذا تتصورون أن تكون تلك الأحاديث؟ مما لا شك فيه أنها لا تدين الوليد وإنما تؤيد أعماله وتصحّحها.

ويوجد حديث آخر يتعلق بفترة ارتباط الزهري بالنظام الحاكم، فقد روى اليعقوبي في تاريخه.

إن الزهري نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد المدينة والمسجد الأقصى وأن الصخرة التي وضع رسول الله قدمه عليها تقوم مقام الكعبة.

ويعود هذا الحديث إلى ذلك الزمان الذي كان عبد الله بن الزبير حاكماً على مكة. والناس الذين يريدون الحج بطبيعة الحال لا بد وأن يدخلوا مكة. وهي تحت نفوذ ابن الزبير ـ وكانت تلك الأيام فرصة مناسبة له للتبليغ ضد أعدائه ـ وخاصة عبد الملك بن

مروان ـ ومن جانب آخر بما أن عبد الملك كان يدرك خطورة هذا الأمر، ولكي يمنع الناس من الذهاب إلى مكة رأى أن أفضل الطرق هو وضع أحاديث تبيّن أن شرافة القدس بمنزلة شرافة مكة: ونحن نعلم ـ في العرف والثقافة الإسلامية ـ أنه لا توجد منطقة في العالم توازي الكعبة شرفاً ومكانةً ولا يوجد حجر في الدنيا يضاهي الحجر الأسود. فكانت تلك الأحاديث المجعولة وسيلة لعبد الملك لكي يدفع الناس للذهاب إلى المسجد الأقصى الذي كان تحت نفوذه بدلاً من مكة المكرمة.

فإلى أي مدى كان لهذه الأحاديث تأثير في نفوس الناس وأفعالهم؟ وهل حدث في زمن ما أن الناس حجوا إلى بيت المقدس بدلاً من مكة أم لا؟ ولو حدث ذلك لكان ينبغي أن نعد المجرم الأصلي أو أحد المجرمين محمداً بن شهاب الزهري الذي حرف الأمر في أذهان الناس لأجل مآرب عبد الملك السياسية.

وعندما يصبح الزهري تابعاً لجهاز الخلافة، فلن يمنعه شيء من وضع الأحاديث ضد الإمام السجاد عليه السلام والتنظيمات العلوية. منها ما وجدته في كتاب «أجوبة مسائل جار الله» ـ تأليف المرحوم السيد عبد الحسين شرف الدين ـ حيث يدعي الزهري في رواية أن أمير المؤمنين كان جبرياً، وينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال في معنى الإنسان في الآية: وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً أنه أمير المؤمنين عليه السلام (والعياذ بالله).

في رواية أخرى ينقل أن حمزة سيد الشهداء كان شارب خمر. وإنما جعل هاتين الروايتين لدعم الجبهة السياسية ـ لعبد الملك وبني أمية ـ مقابل أئمة الهدى عليهم السلام، وبالتالي لنسف صورتهم بعنوان أنهم المسلمون الأوائل، ويعرفهم على أنهم مثل غيرهم من العوام والمقصرين في تطبيق أحكام الدين.

وهذه الرواية تشير إلى وضعية محمد بن شهاب الزهري في مرحلة التبعية والإرتباط ببلاط الحكم. ومن يطالع في أوضاعه الإجتماعية والفكرية تتبين له شخصيته بشكل واضح. وأنا أترك هذا الأمر إلى كتب الرجال.

حسناً، مثل هذا الشخص الذي يتمتّع بنفوذ ومنزلة عالية في جهاز الحكم وبين الناس، لا شك أنه يعد خطراً حقيقياً على الثورة الإسلامية، وينبغي أن يتّخذ موقف بشأنه.

الموقف الشديد للإمام السجاد عليه السلام من علماء البلاط

بالنسبة للزهري وأمثاله فقد وقف الإمام السجاد عليه السلام موقفاً حازماً وقاسياً جداً حيث يلحظ من خلال الرسالة التي وجهها إليه.

وقد يتساءل البعض إلى أي مدى يمكن أن تعكس «الرسالة» هذا الموقف الشديد، ولكن بالإلتفات إلى شدة اللهجة في مضمون هذه الرسالة الموجهة إلى نفس الزهري وكذلك بالنسبة للجهاز الحاكم وأنها لا تنحصر بمحمد بن شهاب بل كانت تقع في أيدي الآخرين وتنتقل عبر الألسن وتبقى عبر التاريخ (كما أننا اليوم وبعد أكثر من 1300 سنة نتناولها بالبحث). بالإلتفات إلى هذه الأمور، يمكن أن ندرك حجم الضربة التي وجهت للقداسة الشيطانية والإصطناعية لمثل أولئك العلماء. لقد كانت الرسالة خطاباً لمحمد بن شهاب ولكنها نالت من أشخاص آخرين على شاكلته. ومن المعلوم أن هذه الرسالة عندما تقع بأيدي المسلمين وبالأخص شيعة ذلك العصر وتنتقل عبر الأيدي فأي سقوط لهيبة هؤلاء ومكانتهم في الأعين!!

وهنا ننقل مقاطع من هذه الرسالة:

في البداية يقول عليه السلام: «**كفانا الله وإياك من الفتن ورحمك من النار**».

في الجزء الثاني من هذه الجملة نجده يخصه بالخطاب، لماذا؟ لأن كل إنسان يتعرض للفتن حتى الإمام السجاد عليه السلام بدون أن يسقط فيها ومحمد بن شهاب يتعرض للفتنة ولكنه سقط، أما بالنسبة لنار جهنم فإنها لا تقترب من الإمام زين العابدين عليه السلام ولهذا خصّ الكلام هنا بالزهري. وابتداء الرسالة بمثل هذه اللهجة دليل على تعامل الإمام معه بطريقة تحقير ومعاداة.

ثم يقول عليه السلام: «**فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك بها أن يرحمك**».

ودققوا هنا في هذه الجملة، لمن الخطاب فيها؟

إنها موجهة لشخص يغبطه الجميع على حاله. فهو أحد العلماء الكبار المقربين للنظام الحاكم، بينما نجد الإمام عليه السلام يبينه ضعيفاً ووضيعاً. بعد ذلك يشير الإمام عليه السلام إلى النعم التي حباه الله بها والحجج التي أتمها عليه ثم يقول: «**إنه مع وجود تلك النعم من الله، هل تستطيع أن تقول كيف قد أديت شكرها**».

ويذكر جملة من آيات القرآن ويقول: «**إن الله تعالى لن يرضى أبداً عن قصورك وتقصيرك لأنه سبحانه قد أمر العلماء بتبيين الحقائق للناس: ﴿لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾**».

وبعد هذه المقدمة يحمل عليه بطريقة قاسية جداً بقوله عليه السلام: «**واعلم أن أدنى ما كتمت، وأخف ما احتملت، أن آنست وحشة الظالم، وسهلت له طريق الغي بدنوّك منه حين دنوت وإجابتك له حين دُعيت**».

ويظهر هذا الكلام الذي يطرحه الإمام عليه السلام بشكل واضح ارتباطه بجهاز السلطة: «**إنك أخذت لك ممن أعطاك. ودنوت ممن لم يرد أحد حقاً ولم ترد باطلاً حين أدناك**».

(وهو الخليفة الظالم) فبأي عذرٍ تبرر عدم إرجاعك للحقوق الضائعة وإزالة المظالم الكثيرة. «وأحببت من حاد الله».

والجملة المؤثرة جداً في هذه الفترة الفقرة عندما يقول عليه السلام: «**أوليس بدعائه إياك، حين دعاك. جعلوك قطباً أداروا بك رحى مظالمهم وجسراً يعبرون عليه إلى بلاياهم وسلماً إلى ضلالتهم داعياً إلى غيهم سالكاً سبيلهم، يدخلون بك الشك على العلماء ويقتادون بك قلوب الجهال إليهم**». ثم يقول: «**فلم يبلغ أخص وزرائهم ولا أقوى أعوانهم إلا دون ما بلغت من إصلاح فسادهم**».

وفي هذه الرسالة الشديدة اللهجة والبليغة يفضح الإمام السجاد تلك الحركة السياسية التي استغلت الفكر والعلم. فأولئك الذين قبلوا مهادنة النظام أصبحوا مطالبين بإجابة عن السؤال الذي بقي في المجتمع الإسلامي وسوف يبقى عبر التاريخ.

إنني أعتبر هذا إحدى مراحل حياة الإمام السجاد عليه السلام المهمة خاصة بل قام بحركة سياسية وبالطبع يوجد قسم آخر في هذا المجال يتعلق بالشعر والشعراء سوف نتعرض له فيما بعد.

تكتيك بداية المرحلة الثالثة لحركة الأئمة عليهم السلام:

بالقدر الذي اطلعت فيه على حياة الإمام السجاد عليه السلام والذي ما زلت أذكره أنه لا يوجد مواجهة أو تعريض صريح وقاطع ضد الحكام من قبيل ما نشاهده في حياة

بعض الأئمة عليهم السلام الآخرين كالإمام الصادق عليه السلام في عصر بني أمية، أو الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.

وسببه واضح، لأن مثل هذا التحرك الشديد الذي كان في بداية حركة الأئمة عليهم السلام كان في المرحلة الثالثة من المراحل الأربع للإمامة، والتي تبدأ في حياة الإمام السجاد. سوف يعرّض قافلة أهل البيت عليهم السلام التي تحمل أعباء مسؤولية الرسالة للخطر الذي لا يؤدي إلى تحقيق المقصد. ففي ذلك الوقت لم يكن بستان أهل البيت الذي تعهّد الإمام السجاد عليه السلام بتربيته وسقايته قد استحكمت غصونه وأشجاره.

وكما أشرت في بداية هذا البحث، فقد كان عدد المحبين والموالين لأهل البيت عليهم السلام قليلاً جداً، وفي ذلك العصر لم يكن من الممكن لأولئك الذين سيتحملون مسؤولية التنظيمات الشيعية أن يواجهوا خطر العدو الجائر.

وإذا أردنا أن نمثل، ينبغي أن نشبه عصر الإمام السجاد عليه السلام هذا بمرحلة بدء الدعوة الإسلامية في مكة وهي المرحلة السرية. ولعله يمكن تشبيه عصر الإمام الباقر عليه السلام بالمرحلة الثانية في مكة حين أصبحت الدعوة علنية. ولهذا فإن المواجهة في تلك المرحلة لن تكون سليمة.

ومما لا شك فيه أننا إذا لاحظنا المواجهات الحادة في بعض كلمات الإمام الصادق والإمام الثامن عليهما السلام فيما لو صدرت عن الإمام السجاد عليه السلام، فإن عبد الملك بن مروان الذي كان في أوج قدرته كان يستطيع وبكل سهولة أن يطوي بساط تعاليم أهل البيت عليهم السلام، وهذا ليس عملاً عقلائياً، لكن على كل حال، يمكن أن نشاهد في ثنايا كلمات الإمام زين العابدين عليه السلام والتي ترجع على وجه الإحتمال إلى أواخر حياته الشريفة، إشارات أو مظاهر لتعرضه ومواجهته لنظام الحكم.

أمثلة مواجهة الإمام عليه السلام:

كانت تلك المواجهات تظهر بعدة أشكال. وأحد أشكالها هو ما لاحظناه في تعامل الإمام السجاد عليه السلام مع محمد بن شهاب الزهري. والشكل الآخر يظهر من خلال بيان موقف ومكانة الخلفاء الأمويين على ضوء التعاليم والإرشادات الدينية العادية.

ويوجد حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «**إن بني أمية أطلقوا للناس الإيمان ولم يطلقوا الشرك حتى إذا حملوهم عليه لم يعرفوه**».

فبنو أمية كانوا يسمحون للعلماء وأهل الدين، ومن جملتهم الأئمة عليهم السلام، بالتحدث حول الصلاة والحج والزكاة والصيام والعبادات، وكذلك حول التوحيد والنبوة والأحكام الإلهية. لكنهم لم يسمحوا بالبحث في مفهوم الشرك ومصاديقه وأمثلته في المجتمع. تلك التعاليم المرتبطة بالشرك لو دُرِّست للناس، لفهموا مباشرة من هم المشركون، وأن ما يحملهم عليه بنو أمية ليس إلا الشرك، ولعلموا فوراً أن عبد الملك والخلفاء الباقين من بني أمية هم طواغيت يبارزون الله، وأن إطاعتهم تعد شركاً بالله.

ولهذا لم يكونوا ليسمحوا للناس بتعلّم هذه المفاهيم.

نحن عندما نبحث في الدين الإسلامي حول التوحيد، فإن قسماً مهماً من هذا البحث يرتبط بمعرفة الشرك. ما هو الصنم ومن هو المشرك؟

وللمرحوم العلامة المجلسي رحمه الله في بحار الأنوار الجزء 48 نص رائع يقول فيه: «**إن آيات الشرك ظاهرها في الأصنام الظاهرة وباطنها في خلفاء الجور الذين أشركوا مع أئمة الحق ونصبوا مكانهم**».

فأئمة الحق هم خلفاء الله وهم ينطقون عن الله، ولأن خلفاء الجور قد نصبوا أنفسهم مكانهم وادعوا الإمامة، فقد أصبحوا أصناماً وطواغيت فكل من يطيعهم يعدّ مشركاً بالله.

وللعلامة بعد هذا شرح قيم. فهو يبين أن الآيات القرآنية ليست مختصة بعصر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، بل هي سارية وجارية في كل العصور والأزمان: «**فهو يجري في أقوام تركوا طاعة أئمة الحق واتبعوا أئمة الجور لعدولهم عن الأدلة العقلية والنقلية واتباعهم الأهواء، وعدولهم عن النصوص الجلية**».

ومن هنا نرى أن الأئمة عليهم السلام إذا أرادوا أن يبينوا حقيقة الشرك فإنهم بذلك يقومون بما يشبه المواجهة مع نظام الحكم. وهذا ما يظهر في كلمات الإمام السجاد عليه السلام.

ونموذج آخر من تلك الأمثلة في المواجهة ما نشاهده في المكاتبات والرسائل بين الإمام السجاد عليه السلام وعبد الملك (الخليفة الأموي المتجبّر) أشير إلى اثنين منهما هما:

1- في إحدى المرات يكتب عبد الملك رسالة إلى الإمام السجاد عليه السلام يلومه فيها على

زواجه من إحدى جواريه. وكان للإمام جارية اعتقها ثم تزوجها. فشمت به عبد الملك. وكان عمل الإمام عملاً إنسانياً وإسلامياً صرفاً. ولكن دافع عبد الملك من تلك الرسالة كان التعرض للإمام. وإفهامه بأنه مطلع على مسائله الخاصة موجهاً له بذلك تهديداً ضمنياً. فأجابه الإمام عليه السلام برسالة بدأها بتوجيه أمر الزواج وأن العظام يفعلون مثل هذا الأمر، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله قد قام به: «**فلا لؤم على امرئ مسلم إنما اللؤم لؤم الجاهلية**».

وهو يريد أن يذكره بسوابق أجداده في الجاهلية (من كفرهم وعنادهم).. عندما وصلت الرسالة إلى عبد الملك، كان ابنه سليمان حاضراً وعندما قرأها سمعه، وسمع ذمّ الإمام وأحسّ به مثل أبيه، فالتفت إليه قائلاً: يا أمير المؤمنين! أترى كيف يتفاخر عليك علي بن الحسين عليه السلام؟. يريد بذلك أن يحرض والده على رد فعل شديد. ولكن عبد الملك كان أعقل من ولده فقال له: لا تقل شيئاً يا ولدي! فهذا لسان بني هاشم الذي يفلق الصخر. (أي إن استدلالهم قوي وقاس).

2. النموذج الثاني: المراسلة الأخرى التي تمت بين الإمام وعبد الملك ومجرياتها.

علم عبد الملك أن سيف رسول الله صلى الله عليه وآله موجود عند الإمام عليه السلام، وكان هذا أمراً ملفتاً وباعثاً على التفاخر. وكذلك فإن وجوده يعد خطراً على الخليفة، لأنه يجلب أنظار الناس إليه فكتب إليه يطلب منه تسليم السيف، ووعده بإنجاز ما يريد.

ورد عليه الإمام عليه السلام فأعاد عبد الملك مرة ثانية تهديده بوقف حصة الإمام من بيت المال إن لم يرسل السيف.

فأجابه الإمام: «**أما بعد فإن الله تعالى وعد عباده المتقين بنجاتهم من المحن ومن ﴿يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾**». وقال: ﴿**إن الله لا يحب كل خوان كفور**﴾ (فانظر أينا ينطبق عليه الكلام).

وهذه لهجة قاسية جداً أمام الخليفة، لأن تلك الرسالة إذا وقعت بيد أي إنسان فسوف يعلم **أولاً**: أن الإمام لا يعد نفسه خواناً.

ثانياً: لا يتصور أحد هذا الأمر بحق هذا الإنسان الجليل الذي تربى في بيت النبوة. وهذا يعني: أنك أنت أيها الخليفة خوان وكفور. وإلى هذا الحد كان الإمام شديداً مقابل التهديد.

كانت هذه النماذج من مواجهة الإمام للحكم، وإذا أردنا أن نضيف نموذجاً آخر ينبغي أن ننظر إلى الأشعار التي نقلت عن الإمام السجاد أو عن أصحابه ومحبيه، فهي تمثل نوعاً آخر من المواجهة.

مواجهة أصحاب الإمام السجاد عليه السلام ومحبيه من قبيل الفرزدق ويحيى بن أم الطويل للنظام الحاكم كان يعد نوعاً من مواجهة الإمام للحكم.

مواجهة الفرزدق ويحيى:

للإمام عليه السلام أشعار لم أستطع العثور عليها ولكن لا شك أنها موجودة وهي في غاية القوة والتحدي والثورة. ويمكن اعتبار شعر الفرزدق نموذجاً أخراً. فقد نقل المؤرخون والمحدثون هذه الحادثة (وما ملخصها):

عندما قدم هشام بن عبد الملك قبل فترة خلافته إلى الحج وأثناء الطواف أراد أن يتقدم لاستلام الحجر الأسود ولكن العدد الهائل والإزدحام الكبير منعه من الوصول، رغم محاولاته المتكررة مع أنه كان ابن الخليفة ومحاطاً بالمرافقين والحواشي ولكن الناس كانوا يمرون من حوله بدون اكتراث فيئس من استلام الحجر وقعد جانباً منتظراً انصراف الناس، وكان أصحابه جالسين حوله، وفي الأثناء يأتي رجل يعلوه الوقار والهيبة سيماه سيماء الزاهدين وجه الملكوتيين يسطع من بين الحجاج كالشمس فتنحّى الناس له جانباً ليمر من بينهم ويصل إلى الحجر الأسود فيقبّله ثم يرجع للطواف مجدّداً.

فصعب ذلك على هشام كثيراً، وهو يرى نفسه ابن الخليفة ولا أحد يعطيه أية قيمة بل يبعدونه بالركل والمطاحنة، ثم من جانب آخر يظهر رجل يصل إلى الحجر الأسود بكل هدوء.

فسأل غاضباً من هذا؟ وكان حواشيه يعرفون أنه علي بن الحسين عليه السلام ولكن لئلا يغضب منهم لم يقولوا شيئاً لأنهم يعلمون بوجود العداء المتجذر بين بني أمية وبني هاشم فلم يريدوا أن يقولوا أن هذا كبير العائلة المعادية لكم والناس يظهرون له كل هذا الحب والإحترام لأنهم اعتبروا ذلك نوعاً من الإهانة لهشام.

كان الشاعر الفرزدق من المحبّين لأهل البيت عليهم السلام حاضراً هناك وقد رأى تجاهلهم وإنكارهم لعلي بن الحسين عليه السلام فتقدم قائلاً: أيها الأمير، هل تسمح لي بأن أعرّفك عليه.

فقال هشام قل، فانطلق لسان الفرزدق بقصيدة من أشهر القصائد الشعرية التي قيلت بحق أهل البيت عليهم السلام. وبدأها بهذا البيت:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجده أنبياء الله قد ختموا

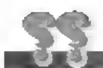
وكانت أبيات هذه القصيدة كوقع السيوف على قلب هشام فغضب منه وطرده، من جانب آخر أرسل إليه الإمام عليه السلام مالاً فلم يقبله وقال: «ما قلته لله لم أرد منه مالاً».

وهكذا نشاهد مثل هذه المواجهات عند أصحاب الإمام ونموذج آخر ما قام به يحيى ابن أم الطويل.

كان يحيى ابن أم الطويل من الشباب ذوي البأس الشديد والشجاعة الفائقة وأحد المخلصين لأهل البيت عليهم السلام، وكان يذهب دائماً إلى الكوفة ويجمع الناس ويصرخ فيهم: **«أيها الناس، إنني كافر بكم ولا أقبل بكم حتى تؤمنوا بالله»**. وهو يقصد أولئك الذين كانوا يتبعون بني أميّة.

تعرض بني أمية للإمام السجاد عليه السلام:

كان هذا مختصراً لحياة الإمام السجاد عليه السلام، فرغم أن مرحلة إمامة الإمام السجاد عليه السلام التي امتدت إلى أكثر من 34 سنة كانت بعيدة عن المواجهة المباشرة للنظام الحاكم ولكن نشر بساط الإمامة الواسع وتعليم وتربية العديد من الأفراد المؤمنين والمخلصين وتوضيح دعوة أهل البيت عليهم السلام كان من أعظم إنجازاته. وهذا ما جعل بني أمية يمقتون الإمام ويتعرضون له. وكانوا من قبل قد جروه بالأصفاد والأغلال، ولم يحدث هذا في كربلاء، فقط وإنما تكرر في زمن آخر أيضاً. وقد تعرضّوا له في موارد عديدة. وآذاه أعوانهم حتى وصل بهم الأمر سنة 95 للهجرة في زمن الوليد بن عبد الملك إلى تسميمه فارتفع إلى جوار ربه شهيداً.



أسئلة حول الدرس

1 ـ ماذا تعرف عن ظاهرة علماء البلاط؟ وكيف تعاطى الإمام السجاد عليه السلام معها؟

2 ـ شجعت السلطة الأموية موضوع اختلاق الأحاديث، كيف حصل ذلك؟

3 ـ تحدث عن بعض المواجهات بين الإمام السجاد عليه السلام والنظام الحاكم؟

17

حياة الإمام الباقر عليه السلام
استمرار منطقي لحياة الإمام السجاد(ع)

أصبح أتباع أهل البيت عليهم السلام مجموعة متميزة ذات وجود مستقل، ودعوة أهل البيت التي اعترتها وقفة واحتجبت وراء ستار سميك بسبب حادثة كربلاء وما أعقبها من حوادث دموية كوقعة الحرة وثورة التوابين وبسبب بطش الأمويين، قد أصبح لها وجود منتشر وواضح في كثير من الأقطار الإسلامية خاصة في العراق والحجاز وخراسان، وأصبح لها «تنظيم» فكري وعملي، وولّت تلك الأيام التي قال الإمام السجاد عليه السلام عنها: إن أتباعه ما كانوا يزيدون فيها على عشرين شخصاً. وأضحى الإمام الباقر عليه السلام يدخل مسجد النبي صلى الله عليه وآله في المدينة فيلتف حوله جمع غفير من أهل خراسان وغيرها من أصقاع العالم الإسلامي، يسألونه عن رأي الإسلام في مختلف شؤون الحياة، ويفد عليه أمثال طاووس اليماني وقتادة بن دعامة وأبو حنيفة وآخرون من أئمة المذاهب الفقهية لينتهلوا من علمه أو ليحاجوه في أمور مختلفة. وبرز شعراء يدافعون عن مدرسة أهل البيت، ويعبرون عن أهدافها، منهم الكميت الذي رسم في هاشمياته أروع لوحة فنية في تصوير الولاء الفكري والعاطفي لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله. وتناقلت الألسن هذه الروائع الأدبية وحفظتها الصدور.

من جهة أخرى فإن خلفاء بني مروان أحسّوا خلال هذه الفترة بنوعٍ من الطمأنينة، وشعروا بالإستقرار بعد أن استطاع عبد الملك بن مروان (ت86هـ) خلال فترة حكمه التي استمرت عشرين عاماً أن يقمع كل المعارضين. وقد يعود شعور الخلفاء المروانيين في هذا العصر بالأمن والإطمئنان إلى أن الخلافة وصلتهم غنيمة باردة، لا كأسلافهم الذين كدحوا من أجلها مما أدّى إلى انشغالهم باللهو والملذات التي تصاحب الشعور بالإقتدار والجاه والجلال.

مهما يكن الأمر فإن حساسية خلفاء بني مروان تجاه مدرسة أهل البيت قد قلّت في هذا العصر، وأصبح الإمام عليه السلام وأتباعه في مأمنٍ تقريباً من مطاردة الجهاز الحاكم.

كان من الطبيعي أن يقطع الإمام خطوة رحبة في ظل هذه الظروف على طريق تحقيق أهداف مدرسة أهل البيت، ويدفع بالتشيع نحو مرحلة جديدة وهذا ما يميّز حياة الإمام الباقر عليه السلام.

ويمكن تلخيص حياة الإمام الباقر عليه السلام خلال الأعوام التسعة عشر من إمامته (95-114هـ) بما يلي:

إن أباه الإمام السجاد عليه السلام عندما حضرته الوفاة أوصى أن يكون ابنه محمداً إماماً من بعده في حضور سائر أبنائه وعشيرته وسلمّه صندوقاً.. تذكر الروايات أنه مملوء بالعلم.. وتذكر أن فيه سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله وقال له: «**يا محمد هذا الصندوق فاذهب به إلى بيتك**». ثم قال: «**أما إنه لم يكن فيه دينار ولا درهم، ولكنه كان مملوءاً علماً**»[1].

لعل هذا الصندوق يرمز إلى أن الإمام السجاد عليه السلام سلّم ابنه محمداً مسؤولية القيادة الفكرية والعلمية (فالصندوق مملوء بالعلم) وسلّمه مسؤولية القيادة الثورية (سلاح النبي صلى الله عليه وآله).

ومع بدء الإمام وأتباعه بنشاطهم الواسع في بث تعاليم أهل البيت عليهم السلام، يتسع نطاق انتشار الدعوة، ويتخذ أبعاداً جديدة تتعدى مناطقها السابقة في المدينة والكوفة، وتجد لها شيوعاً في أصقاع بعيدة عن مركز السلطة الأموية، وخراسان في مقدمة تلك البقاع كما تحدثنا الروايات التاريخية[2].

إن الواقع الفكري والإجتماعي المزري للناس كان يدفع الإمام وأتباعه نحو حركة دائبة لا تعرف الكلل والملل من أجل تغيير هذا الواقع والنهوض بالواجب الإلهي إزاء هذا الإنحراف.

---

(1) بحار الأنوار، ج46، ص229، باب 4 - عن البصائر، ج46، ص44.

(2) من ذلك رواية أبي حمزة الثمالي يقول: «حتى أقبل أبو جعفر عليه السلام وحوله أهل خراسان وغيرهم يسألونه عن مناسك الحج» (بحار الأنوار، ج46، ص357، ط. بيروت)، وانظر حديث أحد علماء خراسان مع عمر بن عبد العزيز، وفيه أكثر من عبرة ودلالة. (بحار الأنوار، ج46، ص366).

إنهم يرون غالبية الناس قد خضعوا للجو الفاسد الذي أشاعه بنو أمية فغرقوا إلى الأذقان في مستنقع حياة آسنة موبوءة، حتى أضحوا كحكامهم لا يفقهون قولاً، ولا يصغون لنصيحة سمعاً «**إن دعوناهم لم يستجيبوا لنا**»[1].

ومن جهة أخرى يرون دراسات الفقه والكلام والحديث والتفسير تنحو منحى استرضاء الطاغوت الأموي وتلبية رغباته ومن هنا فإن كل أبواب عودة الناس إلى جادة الصواب كانت موصدة لولا نهوض مدرسة أهل البيت عليهم السلام بواجبها «**وإن تركناهم لم يهتدوا بغيرنا**»[2].

اتجهت مدرسة أهل البيت عليهم السلام فيما اتجهت إلى تقريع أولئك الذين باعوا ذممهم من العلماء والشعراء، في محاولة لإيقاظ ضمائرهم أو ضمائر أتباعهم من عامة الناس.

نرى الإمام عليه السلام يقول للكميت الشاعر مؤنباً: «**امتدحت عبد الملك؟**

قال: ما قلت له يا إمام الهدى، وإنما قلت يا أسد، والأسد كلب، ويا شمس، والشمس جماد، ويا بحر، والبحر موات، ويا حيّة، والحية دويبة منتنة، ويا جبل، وإنما هو حجر أصمّ.

فتبسم الإمام وأنشد الكميت بين يديه:

من لقلب متيم مستهام غير ما صبوة ولا أحلام[3]

وبهذه الميمية يضع الحد الفاصل بين الإتجاه العلوي والإتجاه الأموي في المكانة والسيرة في صورة فنية رائعة خالدة.

وعكرمة تلميذ ابن عباس المعروف وصاحب المكانة العلمية المرموقة في المجتمع آنذاك، يذهب لمقابلة الإمام عليه السلام، فيؤخذ بهيبة الإمام وشخصيته ووقاره ومعنوياته وفكره، فيقول له: «يا ابن رسول الله لقد جلست مجالس كثيرة بين يدي ابن عباس وغيره، فما أدركني ما أدركني آنفاً».

(1) من حديث للإمام الباقر عليه السلام في إرشاد الشيخ المفيد، ص284، وبحار الأنوار، ج46، ص288.

(2) بحار الأنوار، ج46، ص288.

(3) المناقب، ط. 207، وهذه الميمية من هاشمياته وفيها يخاطب أئمة أهل البيت عليهم السلام فيقول: ساسة لا كمن يرى رعية الناس ورعية الأنعام وهو بيت له دلالته الكبيرة.

فقال له الإمام عليه السلام: «**إنك بين يدي بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه**»[1].

ومن الأبعاد الأخرى لنشاط مدرسة أهل البيت في هذه المرحلة سرد ما أحاط بأهل بيت رسول الله وأتباعهم من ظلم واضطهاد وقتل وتشريد وتعذيب في محاولة لاستثارة عواطف الناس الميتة، وتحريك ضمائرهم الرخوة، واستنهاض عزائمهم الراكدة، وتوجيههم وجهة ثورية حركية.

عن المنهال بن عمر قال: كنت جالساً مع محمد بن علي الباقر عليه السلام إذ جاءه رجل فقال له: كيف أنتم؟ فقال الإمام الباقر: «**أوما آن لكم أن تعلموا كيف نحن؟ إنما مثلنا في هذه الأمة مثل بني إسرائيل، كان يذبح أبناؤهم وتستحيا نساؤهم، ألا وإن هؤلاء يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا، زعمت العرب: أن لهم فضلاً على العجم، فقالت العجم: وبما ذلك؟ قالوا: كان محمد منا عربياً. قالوا لهم: صدقتم. وزعمت قريش أن لها فضلاً على غيرها من العرب، فقالت لهم العرب من غيرهم: وبما ذاك؟ قالوا: كان محمد قرشياً. قالوا لهم صدقتم. فإن كان القوم صدقوا فلنا فضل على الناس لأنا ذرية محمد وأهل بيته وعترته، لا يشركنا في ذلك غيرنا**». فقال له الرجل: والله إني لأحبكم أهل البيت. قال: «**فاتخذ للبلاء جلباباً، فوالله إنه لأسرع إلينا وإلى شيعتنا من السيل في الوادي، وبنا يبدو البلاء ثم بكم، وبنا يبدو الرخاء ثم بكم**»[2].

فما أن بدت علامات الهياج جراء استثارات الإمام، حتى سارع الإمام عليه السلام إلى رسم الطريق أمامه. إنه طريق مفروش بالدماء والدموع، والإمام رائد المسيرة على هذا الطريق يصيبه البلاء أولاً قبل أن يصيب شيعته.

وفي دائرة أضيق نرى أن علاقة الإمام بشيعته تتخذ خصوصيات متميزة، نراه بين هؤلاء الأتباع كالدماغ المفكر بين أعضاء الجسد الواحد، يغذيهم ويمدهم بالحيوية والحركة والنشاط باستمرار.

وتتوفر بأيدينا وثائق تبين هذا الإرتباط متمثلاً بإعطاء المفاهيم والتعاليم الصريحة لهؤلاء الأتباع، وبتنظيم مترابط محسوب بينهم.

(1) بحار الأنوار، ج46، ص258.

(2) بحار الأنوار، ج46، ص360، رواية 1، باب 100، نقلاً عن آمالي الطوسي 95.

منها وصية الإمام الباقر عليه السلام لجابر الجعفي في أول لقاء له بالإمام أن لا يقول لأحد أنه من الكوفة، وليظهر بمظهر رجل من أهل المدينة، وبذلك يعلّم هذا التلميذ الجديد، الذي لمس الإمام عليه السلام فيه قدرة على حفظ الأسرار، درس الكتمان.. وهذا التلميذ الكفوء أصبح بعد ذلك صاحب سرّ الإمام، ويبلغ به الأمر مع الجهاز الحاكم أن يقول عنه النعمان بن بشير: «كنت ملازماً لجابر بن يزيد الجعفي، فلما أن كنا بالمدينة، دخل على أبي جعفر عليه السلام فودّعه وخرج من عنده وهو مسرور، حيث وردنا الأخيرجة (من نواحي المدينة) يوم جمعة فصلّينا الزوال فلما نهض بنا البعير إذا أنا برجل طويل آدم (أسمر) معه كتاب فناوله، فقبّله ووضعه على عينيه، وإذا هو من محمد بن علي الباقر عليه السلام إلى جابر بن يزيد وعليه طين أسود رطب. فقال له: متى عهدك بسيدي؟ فقال: الساعة، فقال له: قبل الصلاة أو بعد الصلاة؟ فقال: بعد الصلاة، فقال: فَفَكَّ الخاتم وأقبل يقرأه ويقبض وجهه حتى أتى على آخره، ثم أمسك الكتاب فما رأيته ضاحكاً ولا مسروراً، حتى وافى الكوفة».

يقول النعمان بن بشير: «فلما وافينا الكوفة ليلاً بتّ ليلتي، فلما أصبحت أتيت جابر الجعفي إعظاماً له فوجدته قد خرج عليّ وفي عنقه كعاب قد علقّها وقد ركب قصبة (كما يفعل المجانين) وهو يقول: أجد منصور بن جمهور.. أميراً غير مأمور، وأبياتاً من نحو هذا فنظر في وجهي ونظرت في وجهه فلم يقل لي شيئاً، ولم أقل له، وأقبلت أبكي لما رأيته، واجتمع عليّ وعليه الصبيان والناس، وجاء حتى دخل الرحبة، وأقبل يدور مع الصبيان، والناس يقولون: جنّ جابر بن يزيد، فوالله ما مضت الأيام حتى ورد كتاب هشام بن عبد الملك إليّ وإليه أن أنظر رجلاً يقال له: جابر بن يزيد الجعفي فاضرب عنقه وابعث إليّ برأسه، فالتفت إلى جلسائه فقال لهم: من جابر بن يزيد الجعفي؟ قالوا: أصلحك الله كان رجلاً له علم وفضل وحديث وحج، فجن وهو ذا في الرحبة مع الصبيان على القصب يلعب معهم. قال: فأشرف عليه فإذا هو مع الصبيان يلعب على القصب. فقال: الحمد لله الذي عافاني من قتله»[1].

(1) بحار الأنوار، ج46، ص282ـ283 - نقلاً عن الكافي، ج1، ص396.

هذا نموذج من نماذج الإرتباط بين الإمام عليه السلام وخاصة أتباعه، يوضح دقّة التنظيم والإرتباط، ويبين كذلك نموذجاً لموقف السلطة الحاكمة من هؤلاء الأتباع، ويؤكد أن الجهاز الحاكم لم يكن غافلاً تماماً عن علاقة الإمام عليه السلام بأتباعه المقربين، بل كان يراقب هذه العلاقات ويحاول اكتشافها ومجابهتها[1].

وبالتدريج يبرز جانب المجابهة في حياة الإمام الباقر عليه السلام وفي حياة الشيعة ليسجل فصلاً آخر في حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام.

النصوص التاريخية الموجودة بين أيدينا وهكذا الروايات الحديثية لا تتحدث بصراحة عن حركة مقاومة سياسية حادة ينهض بها الإمام. وهذا يعود إلى عوامل كثيرة منها جو البطش والتنكيل المهيمن على المجتمع مما يفرض عنصر التقية بين أتباع الإمام الذين هم المطلعون الوحيدون على حياة الإمام السياسية. لكن ردود الفعل المتشددة التي يبديها العدو تبين عمق العمل الجهادي. فحين يتخذ جهاز حاكم مقتدر كجهاز عبد الملك بن مروان، الذي يعتبر أقوى حاكم أموي، ضد الإمام الباقر عليه السلام كل أسباب الشدة والحدة، فإن ذلك يدل دون شك على إحساس الخليفة بالمخاطر التي تواجهه جرّاء حركة الإمام وأتباعه. لو كان الإمام عليه السلام منهمكاً فقط بنشاط علمي، لا ببناء فكري وتنظيمي، فإن الجهاز الحاكم لم يكن من مصلحته أن يتشدّد مع الإمام، لأن ذلك يدفع بالإمام وبأتباعه إلى موقف ساخط متشدّد كالذي اتخذه الثائر العلوي شهيد فخ الحسين بن علي من السلطة.

باختصار، موقف السلطة المتشدد من الإمام الباقر عليه السلام يمكن فهمه على أنه رد فعل لما كان يمارسه الإمام من عمل معارض للسلطة.

من الأحداث الهامة في أواخر حياة الإمام الباقر عليه السلام استدعاء الإمام إلى الشام عاصمة الخلافة الأموية، فالخليفة الأموي أراد أن يستوثق من موقف الإمام تجاه الجهاز الحاكم فأمر باعتقاله وإرساله مخفوراً إلى الشام. (وفي بعض الروايات أن الحاكم هذا شمل ابنه الشاب أيضاً جعفر الصادق عليه السلام).

يؤتى بالإمام عليه السلام إلى قصر الخليفة. وهشام أملى على حاشيته طريقة مواجهة

---

(1) يؤيد هذه الحقيقة، إضافة إلى قضية جابر ونظائرها، رواية عبد الله بن معاوية الذي يسلّم الإمام الباقر عليه السلام رسالة تهديد من حاكم المدينة (بحار الأنوار، ج46، ص246، الباب 16، الرواية 34).

الإمام لدى وروده. تقرر أن يبتدئ الخليفة ثم تليه الحاشية بإلقاء سيول التهم على الإمام، وكان يستهدف في ذلك أمرين: أولهما إضعاف معنويات الإمام وخلق حالة من الانهيار النفسي فيه. والثاني: محاولة إدانة الإمام في مجلس يضم زعيمي الجبهتين (جبهة الخلافة وجبهة الإمامة)، ثم نقل هذه الإدانة عن طريق أبواق البلاط كالخطباء ووعاظ السلاطين والجواسيس وبذلك يسجل لنفسه انتصاراً على خصمه.

يدخل الإمام عليه السلام مجلس الخليفة، وخلافاً لما اعتاده الداخلون من السلام على الخليفة بإمرة المؤمنين، يتوجه إلى كل الحاضرين، ويشير إليهم جميعاً ويقول: السلام عليكم.. ودون أن ينتظر الإذن بالجلوس يأخذ مكانه في المجلس. وهذا الموقف من الإمام أضرم نار الحسد والحقد في قلب هشام.. وبدأ هشام على الفور يقول: يا محمد بن علي لا يزال الرجل منكم قد شقّ عصا المسلمين، ودعا إلى نفسه، وزعم أنه الإمام سفهاً وقلة علم، وجعل يوبّخه[1].

وبعد هشام أخذ أفراد بطانته يرددون مثل هذه التهم والتوبيخ.. والإمام عليه السلام ساكت في كل هذه المدّة ومطرق بوقار ينتظر فرصة الإجابة.. حين أفرغت البطانة ما في كنانتها وخيّم السكوت على المجلس، نهض الإمام عليه السلام وتوجه إلى الحاضرين وبعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه، خاطب المجلس بعبارات قصيرة قارعة بيَّن تفاهة هذه البطانة وانقيادها البهيمي كما بيَّن فيها مكانته ومكانة أهل البيت وفق معايير إسلامية، واستخف بكل ما يحيط بالخليفة وحاشيته من هيل وهيلمان ومكانة وسلطان، فقال: «**أيها الناس! أين تذهبون؟ وأين يراد بكم؟ بنا هدى الله أولكم، وبنا يختم آخركم، فإن يكن لكم ملك معجّل، فإن لنا ملكاً مؤجلاً، وليس بعد ملكنا ملك، لأنا أهل العاقبة. يقول الله عز وجل: ﴿والعاقبة للمتقين﴾**»[2].

عبارات تظلّم وتهكّم وتبشير وتهديد وإثبات وردّ في جمل موجزة ذات وقع مثير تفرض على مسامعها الإيمان بحقانية قائلها.. ولم يكن أمام هشام سبيل سوى الأمر بسجن الإمام.

(1) بحار الأنوار، ج46، ص263، رواية 63، باب 5.

(2) بحار الأنوار، ج46، ص264، الباب 16، الرواية 63.

الإمام عليه السلام في سجنه واصل عمله التغييري فأثّر على من معه في السجن.

بلغ الأمر هشاماً فكبر عليه أن يرى حدوث مثل ذلك في عاصمته المحصنة من التأثير العلوي. فأمر أن يؤخذ السجين ومن معه على مركب سريع (البريد) ويُرسل إلى المدينة حيث مسكنه ومحل إقامته، وأمر أن لا يتعامل أحد في الطريق مع هذه القافلة المغضوب عليها ولا يزودها بماء أو طعام[1].

مرّت ثلاثة أيام من السير المتواصل انتهى خلالها ما في القافلة من ماء وطعام. ووصلوا «مدين». وأغلق أهل المدينة حسب ما لديهم من أوامر أبواب مدينتهم، وأبوا أن يبيعوا متاعاً. اشتد على أتباع الإمام الجوع والعطش. صعد الإمام عليه السلام على مرتفع يطل على المدينة نادى بأعلى صوته: «**يا أهل المدينة الظالم أهلها، أنا بقية الله. يقول الله: ﴿بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ﴾**».

يقول الراوي: وكان بين أهل المدينة شيخ كبير فأتاهم فقال: يا قوم هذه والله دعوة شعيب عليه السلام. والله لئن لم تخرجوا إلى هذا الرجل بالأسواق لتؤخذن من فوقكم ومن تحت أرجلكم فصدقّوني وأطيعوني.. فإني لكم ناصح. استجاب أهل المدينة لدعوة الشيخ فبادروا واخرجوا إلى أبي جعفر عليه السلام وأصحابه الأسواق[2].

وآخر فصل في هذه الرواية يبين أيضاً بطش الخليفة الأموي وتجبّره. فبعد أن فتح أهل المدينة أبوابها للإمام وصحبه، كُتب بجميع ذلك إلى هشام. فكتب هشام إلى عامله على مدين يأمره بأن يأخذ الشيخ فيقتله رحمة الله عليه وصلواته[3].

---

(1) ويروى أنه أشاع بين أهالي المدن الواقعة على الطريق أن محمد بن علي وجعفر بن محمد تنصرا وخرجا من الإسلام (بحار الأنوار، ج46، ص3060) وشبيه ذلك ما وقع لمولانا وهو من زعماء الحركة الإسلامية المناهضة للإستعمار البريطاني في منتصف القرن التاسع عشر. فقد أشاعوا عنه أنه وهابي. وكانت هذه التهمة كافية لإسقاط هذا الرجل المناضل من أعين الناس البسطاء السذّج. الوهابية كانت مقرونة في أذهان الناس بتلك العصابة التي روّعت حجاج بيت الله واستباحت دماء المسلمين في الحجاز.. فكانت كريهة لديهم ومقيتة، وتهمة الوهابية ألصقت بهذا الرجل فتقبلتها الأذهان الساذجة دون أن تسأل عن مبرر هذه التهمة وعن إمكان أن يكون رجل مناضل مثل مولانا معتنقاً لفكره جاء بها الإنجليز إلى العالم الإسلامي (راجع كتاب: في حركة تحرير الهند (بالفارسية ـ ط. آسيا) حين أرى موقف الناس من بعد اتهامه بالوهابية في القرن الماضي أتعجّب من وحدة المواقف وأردّد ما يقوله الشاعر العربي: الناس كالناس والأيام واحدة.

(2) بحار الأنوار، ج46، ص264.

(3) بحار الأنوار، ج46، ص313.

ومع كل ذلك، يتجنب الإمام عليه السلام أيّ مواجهة حادّة ومجابهة مباشرة مع الجهاز الحاكم. فلا يعمد إلى سيف، ولا يسمح للأيدي المتسرّعة إلى السلاح أن تشهره، ويوجهها توجيهاً حكيماً، وسيف اللسان أيضاً لا يشهره إذا لم يتطلب عمله التغييري الأساسي الجذري ذلك، ولا يسمح لأخيه زيد، الذي بلغ به الغضب مبلغه وثارت عواطفه أيما ثورة، أن يخرج (يثور) بل يركز نشاطه العام على التوجيه الثقافي والفكري.. وهو بناء أساس أيديولوجي في إطار مراعاة التقية السياسية.

ولكن هذا الأسلوب لم يكن يمنع الإمام ـ كما أشرنا ـ من توضيح «حركة الإمامة» لأتباعه الخلّص. وإذكاء أمل الشيعة الكبير، وهو إقامة النظام السياسي بمعناه الصحيح العلوي في قلوب هؤلاء، بل يعمد أحياناً إلى إثارة عواطفهم بالقدر المطلوب على هذا الطريق، والتلويح بمستقبل مشرق هو أحد السبل التي مارسها الإمام الباقر عليه السلام مع أتباعه. وهو يشير أيضاً إلى تقويم الإمام عليه السلام للمرحلة التي يعيشها من الحركة.

يقول الحكم بن عيينة: «**بينما أنا مع أبي جعفر عليه السلام والبيت غاص بأهله إذ أقبل شيخ يتوكأ على عنزة (عكازة) له حتى وقف على باب البيت فقال: السلام عليك يا ابن رسول الله ورحمة الله وبركاته، ثم سكت فقال أبو جعفر: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. ثم أقبل الشيخ بوجهه على أهل البيت وقال: السلام عليكم، ثم سكت حتى أجابه القوم جميعاً، وردّوا عليه السلام، ثم أقبل بوجهه على الإمام وقال: يا ابن رسول الله أدنني منك جعلني الله فداك، فوالله إني لأحبكم وأحب من يحبكم، ووالله ما أحبكم وأحب من يحبكم لطمع في دنيا، وإني لأبغض عدوكم وأبرأ منه، ووالله ما أبغضه وأبرأ منه لوتر كان بيني وبينه. والله إني لأحل حلالكم وأحرم حرامكم، وأنتظر أمركم، فهل ترجو لي جعلني الله فداك؟ فقال الإمام: إليّ إليّ، حتى أقعده إلى جنبه ثم قال: «أيها الشيخ، إن أبي علي بن الحسين عليه السلام أتاه رجل فسأله عن مثل الذي سألتني عنه فقال له أبي عليه السلام: إن تمت ترد على رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى علي والحسن والحسين وعلى علي بن الحسين، ويثلج قلبك، ويبرد، فؤادك، وتقر عينك، وتستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين.. وإن تعش ترى ما يقر الله به عينك، وتكون معنا في السنام الأعلى**».

قال الشيخ وهو مندهش من عظمة البشرى: كيف يا أبا جعفر؟ فأعاد عليه الكلام،

فقال الشيخ: الله أكبر يا أبا جعفر، إن أنا متُ أرد على رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى علي والحسن والحسين وعلي بن الحسين وتقر عيني ويثلج قلبي ويبرد فؤادي وأستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين لو قد بلغت نفسي ههنا، وإن أعش أرى ما يقر الله به عيني، فأكون معكم في السنام الأعلى؟ ثم أقبل الشيخ ينتحب حتى لصق بالأرض. وأقبل أهل البيت عليهم السلام ينتحبون لما يرون من حال الشيخ. ثم رفع الشيخ رأسه وطلب من الإمام أن يناوله يده فقبّلها ووضعها على عينه وخدّه، ثم ضمّها إلى صدره وقام فودّع وخرج والإمام ينظر إليه ويقول: «من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»[1].

مثل هذه التصريحات، تزكي روح الأمل في قلوب جوّ الإضطهاد والكبت، فتكسبها زخماً ودفعاً نحو الهدف المنشود المتمثل في إقامة النظام الإسلامي العادل.

تسعة عشر عاماً من إمامة الباقر عليه السلام تواصلت على هذا الخط المستقيم المتماسك الواضح.. تسعة عشر عاماً من التعليم الإيديولوجي، والبناء، والتكتيك النضالي، والتنظيم، وصيانة وجهة الحركة، والتقية وإذكاء روح الأمل.. تسعة عشر عاماً من مسير شائك وعر يتطلب كثيراً من الجدّ والجهد ـ وحين أشرفت هذه الأعوام على الانتهاء وأوشكت شمس عمره المبارك على المغيب، تنفس أعداؤه الصعداء، لأنهم بذهاب هذا القائد الموجّه سوف يتخلّصون من مصدر إثارة قضّ مضاجعهم وسرق النوم من عيونهم. لكنّ الإمام خيّب آمالهم وفوّت عليهم هذه الفرصة، حين جعل من وفاته مصدر عطاء، ومنطلق إثارة ووسيلة توعية مستمرة! لقد وجّه ولده الصادق عليه السلام في اللحظات الأخيرة من حياته توجيهاً يمثل نموذجاً رائعاً من نماذج التقية التي مارسها الإمام الباقر عليه السلام والأسلوب الذي استعمله في مرحلته الزمنية الخاصة.

في الرواية عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**قال لي أبي: يا جعفر أوقف لي من مالي كذا وكذا لنوادب تندبني**[2]**، عشر سنين بمنى أيام منى**»[3].

وهذه الرواية لم يقف عندها من بحث في حياة الإمام الباقر وغفلوا عما فيها من

(1) بحار الأنوار، ج46، ص362ـ363.
(2) هكذا في الأصل، ولعل الصحيح: لنوادب يندبنني.
(3) بحار الأنوار، ج46، ص2200.

دلالات كبيرة. لقد خلّف الإمام (800) درهم، وأوصى أن يخصص جزء منها لمن يندبه في منى.. وندب الإمام في منى له معنى كبير. إنه عملية إحياء ذلك المصدر الذي كان يشع دائماً بالتوعية والإثارة وخلق روح الحماس والمقاومة.

واختيار منى بالذات يعني مواصلة العمل في تمركز الوافدين من كل أرجاء العالم الإسلامي. خلال فترة الإستقرار الوحيدة في موسم الحج، فكل مناسك الحج يمرّ بها الحاج وهو في حركة دائبة مستمرة، إلاّ في منى، حيث يبيت الليلتين أو الثلاث، فيتوفر لديه الوقت الكافي لكي يسمع ويطّلع. وندب الإمام في هذا المكان سيثير التساؤل عن شخصية هذا المتوفّى، من هو فيحصلون على الجواب من أهل المدينة الذين عاصروه. إنه من أبناء رسول الله، وأستاذ الفقهاء والمحدّثين، ولماذا يندب في هذا المكان؟ ألم يكن موته طبيعياً؟ من الذي قتله أو سمّه؟ هل كان يشكل خطراً على الجهاز الأموي؟ و..و..عشرات الأسئلة كانت تثار حين يندب الإمام في هذا المكان. ثم يحصل السائلون على الإجابة..وتنتشر الأخبار في أطراف البلاد وأكنافها بعد عودة الحجيج إلى أوطانهم. وكان هناك في مواسم الحج من يأتي من الكوفة والمدينة ليجيب عن هذه التساؤلات مغتنماً فرصة تجمّع المسلمين. وليبث روح التشيع من خلال أعظم قناة إعلامية آنذاك.

هكذا عاش الإمام عليه السلام، وهكذا خطط لما بعد وفاته، فسلام عليه يوم ولد ويوم جاهد ويوم استشهد في سبيل الله ويوم يبعث حياً.

توفيّ الإمام الباقر عليه السلام وهو في السابعة والخمسين من عمره، على عهد هشام بن عبد الملك، وهو من أكثر ملوك بني أمية اقتداراً. ورغم ما كانت تحيط بالحكومة الأموية آنذاك من مشاكل ومتاعب، فإن ذلك لم يصرفها عن التآمر على القلب النابض للشيعة، أي الإمام الباقر عليه السلام، فأوعز هشام إلى عملائه أن يدسوّا السم للإمام، وحقق بذلك انتصاره في القضاء على أخطر أعدائه.



أسئلة حول الدرس

1 ـ ماذا تعرف عن حقبة بني مروان التي عاصرها الإمام الباقر عليه السلام؟

2 ـ كيف علم الإمام الباقر عليه السلام خاصته موضوع التورية والتقية؟ ولماذا؟

3 ـ كيف تابع الإمام الباقر عليه السلام حياته بعد العودة إلى المدينة حتى شهادته؟

حياة الإمام الصادق عليه السلام (1)

وتحمّل الإمام الصادق عليه السلام مسؤولية مواصلة المسيرة في ظروف معقّدة وصعبة للغاية.

فالإنتفاضات تنشب في طول البلاد وعرضها، والولاة منهمكون بجمع الأموال والثروات الطائلة[1]، والطاعون والقحط يضرب مناطق واسعة منها خراسان والعراق، والجهاز الحاكم يبطش دون رحمة، ويخلق حالة من الذلّ والخنوع بين الناس. والمنشغلون بالعلوم الإسلامية من فقه وحديث وتفسير لم يكن خطرهم غالباً يقلّ عن خطر الساسة والحكّام، وهم الذين يُفترض بهم أن يكونوا ملاذ الناس وملجأهم، كثير من هؤلاء يدبّجون الفتاوى ليرضوا السلطان والولاة[2]. وكثيرٌ منهم كانوا يشغلون أنفسهم ويشغلون الناس بتوافه الأمور ويثيرون النزاعات الكلامية الفارغة التي لا تمتّ بصلة إلى الإسلام وإلى معاناة الجماهير.

مهمة الإمام الصادق عليه السلام في هذه الظروف المظلمة هي ما ذكرناه بشأن مهمة الإمامة، وتتلخص في طرح الفكر الإسلامي الصحيح، أي تبيين الإسلام كما جاء في

(1) خالد في بن عبد الله القسري والي العراق كان عائده السنوي ثلاثة عشر مليوناً. وكتب إليه الخليفة أن لا يبيع غلّته الخيفة. فصعد خالد المنبر، وذكر أن قوماً يتهمونه بالتلاعب بالأسعار، ولعن من يتلاعب بالأسعار (ويقصد بذلك الخليفة وكان عليه واجداً). وامرأة هشام كان لها ثوب خيوطه من الذهب، ومرصع بالمجوهرات القيّمة، وقد ثقل وزنه حتى ما كانت تقدر على أن تمشي به، ولم يستطع أحد أن يضع له قيمة. وهشام نفسه كان له بساط من الحرير والذهب طوله 100 ذراع وعرضه 50 ذراعاً. (ابن ايرج، ج5، ص220، وبين الخفاء، ص28ـ56).

(2) من ذلك فتوى الحسن البصري في عدم جواز الخروج على الحجاج بن يوسف، ذلك الطاغية الذي سفك الدم الحرام، وأخذ المال الحرام، وترك الصلاة قائلاً: أرى أن لا تقاتلوه، فإنها إن تكن عقوبة من الله فما أنتم برادّي عقوبة الله بأسيافكم. وإن يكن بلاء فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين (نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثني عشرية، د. أحمد محمود صبحي، ص23).

القرآن وسنة رسول الله ﷺ مع مكافحة كل الإنحرافات والتشويهات الجاهلة والمغرضة، وكذلك التخطيط لإقامة نظام العدالة الإسلامية، وصيانة هذا النظام في حالة إقامته.

كلا المهتمين: المهمة الفكرية والمهمة السياسية، تشكلان خطراً كبيراً على النظام الحاكم. ليست المهمة السياسية وحدها تثير سخط السلطة، فالمهمة الفكرية أيضاً تلغي تلك الأفكار والمفاهيم المنحرفة التي قدمها السلطان ووعاظه باسم الدين إلى المجتمع[1]. من هنا فإن العملية الفكرية لها الأولوية، لأنها تقضي على الزيف الديني الذي يستند إليه الحاكم في مواصلة ظلمه، من جهة أخرى فإن الأوضاع السائدة مستعدة للفكر الشيعي الثوري، والحرب والفقر والإستبداد عوامل تغذّي روح الثورة، أضف إلى ذلك عامل الأجواء التي وفرها نشاط الإمام الباقر عليه السلام في المناطق القريبة والنائية.

إن الإستراتيجية العامة للإمامة هي النهوض بثورة توحيدية علوية، ومتطلباتها هي:

أولاً: إيجاد مجموعة تحمل فكر الإمامة وتهضمه، وتتطلع بشوق إلى تطبيقه.

وثانياً: إيجاد مجموعة منظمة مجاهدة مضحية.

وهذه المتطلبات تستلزم بدورها نشر الدعوة في جميع أرجاء العالم، وإعداد الأرضية النفسية لتقبل الفكر الإسلامي الثائر في جميع الأقطار، وتستلزم أيضاً دعوة أخرى لإعداد أفراد مضحين متفانين يشكلون التنظيم السري للدعوة.

وهذا هو سر صعوبة الدعوة على طريق الإمامة الحقّة. فالدعوة الرسالية التي تستهدف القضاء على الطاغوت، وعلى التفرعن والتجبر والعدوان والظلم في المجتمع، وتلتزم بالمعايير الإسلامية، لا بد أن تستند إلى إرادة الجماهير وقوتها وإيمانها وتضحها. خلافاً لتلك الدعوات التي ترفع شعار محاربة الطغاة، وهي تمارس في الوقت نفسه أعمال الطغاة والظلمة في حركتها، دون أن تتقيّد بمبادئ أخلاقية واجتماعية، فمثل هذه الدعوات لا تواجه صعوبات الدعوات الرسالية الهادفة، وهذا هو سر عدم

(1) مع كل الإنحرافات التي عصفت بالمجتمع كان الإيمان بالدين يسيطر على الأفكار والقلوب، والظلمة الطغاة استغلوا هذا الإيمان، فقدموا للمجتمع مفاهيم منحرفة باسم الدين تضمن بقاءهم واستمرار ظلمهم وتحكمهم. من ذلك إضفاء صفة القدسية على «البيعة». فكلما تمادى الخليفة في غيّه وظلمه لا تجوز معصيته ولا الثورة عليه لأن له في الأعناق بيعة! وكان لهذا المفهوم دوره الكبير في خلق حالة من الخضوع والخنوع أمام الجهاز الحاكم.

تحقق أهداف حركة الإمامة على المدى العاجل. وهو أيضاً سرّ الإنتصار السريع للحركات الموازية لحركة الإمامة (مثل حركة العباسيين).

الظروف المساعدة والأرضية المناسبة التي وفرها نشاط الإمام السابق الباقر عليه السلام أدت إلى أن يظهر الإمام الصادق عليه السلام في جو العذاب الطويل الذي عانى منه الشيعة بمظهر الفجر الصادق الذي ينتظره أتباع أهل البيت عليهم السلام في سالف أيامهم. والإمام الباقر عليه السلام ذكر بالإشارة والتصريح ما يركز هذا المفهوم.

عن جابر بن يزيد الجعفي سُئِل الإمام الباقر عليه السلام عن القائم فضرب يده على أبي عبد الله عليه السلام وقال: هذا والله ولدي قائم آل بيت محمد صلى الله عليه وآله[1].

والقائم هنا طبعاً غير قائم آل محمد في آخر الزمان، وهو المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف الذي تواترت الروايات لدى كل المسلمين أنه يظهر في آخر الزمان، وأنه الخليفة الثاني عشر من خلفاء رسول الله. القائم هنا بمعناه اللغوي ينطبق على كل من ينهض بوجه الظلم والإستبداد، وهو اصطلاح معروف في مدرسة أهل البيت، ولا يعني ذلك أن يكون القائم بالسيف بالضرورة. بل إنه يقوم بهجوم ثقيل خطير، سواء في أسلوب النشاط الفكري أو التنظيمي أو بأية صورة أخرى تستهدف مقارعة الظالمين ومهاجمتهم. فالإمام الباقر عليه السلام يركّز هنا على مفهوم نهوض الإمام الصادق عليه السلام بمسؤولية كبيرة تجاه السلطة القائمة، ولا يركّز على النتيجة.. بل في رواية أخرى يتحدّث بلغة تكاد تكون يائسة من إمكان انتصار الإمامة على الوضع السياسي القائم.

ومن الروايات التي يركّز فيها الإمام الباقر عليه السلام على الدور الذي سينهض به الإمام الصادق عليه السلام ما رواه أبو الصباح الكناني قال: «**نظر أبو جعفر إلى ابنه أبي عبد الله فقال: ترى هذا؟ هذا من الذين قال الله تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾**»[2].

ولعل تصريحات الإمام هذه هي التي أشاعت فكرة قيام الإمام الصادق وخلافته بين الشيعة، وجعلت أصحاب الباقر والصادق يترقبون ساعة الصفر بين آونة وأخرى.

---

(1) بحار الأنوار، ج47، ص13، باب 3، الرواية 6، ط. بيروت.

(2) بحار الأنوار، ج47، ص13، باب 3، الرواية 4، عن الإرشاد، ص289.

معالم حياة الإمام الصادق عليه السلام :

والمعالم الهامة البارزة في حياة الإمام الصادق عليه السلام وجدتها من منظار بحثنا تتلخص بما يلي:

1 ـ تبيين مسألة الإمامة والدعوة إليها.

2 ـ بيان الأحكام وتفسير القرآن وفق ما ورثته مدرسة أهل البيت عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

3 ـ إقامة تنظيم سري إيديولوجي ـ سياسي.

وطريقة بحثنا أن ندرس كل واحد من هذه المعالم، ونضع في النهاية فهرساً لنشاطات الإمام عليه السلام، وأن يكون ذلك قدر المستطاع بأسلوب المؤرخين لا بأسلوب المحدثين.

1 ـ تبيين مسألة الإمامة والدعوة إليها:

هذا الموضوع يشكل أبرز خصائص دعوة أئمة أهل البيت، منذ السنوات الأولى التي أعقبت رحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. كانت مسألة إثبات إمامة أهل البيت عليهم السلام تشكّل طليعة الدعوة في كل أعصار الإمامة.. هذه المسألة نشاهدها أيضاً في ثورة الحسين بن علي عليه السلام، ونشاهدها بعد ذلك أيضاً في ثورات أبناء أئمة أهل البيت، مثل زيد بن علي. ودعوة الإمام الصادق عليه السلام لم تخرج عن هذا النطاق أيضاً.

ولإثبات هذه الحقيقة التاريخية، أمامنا روايات متضافرة تنقل بوضوح وصراحة عن الإمام الصادق عليه السلام ادعاءه الإمامة، وكما سنوضح فيما بعد، أن الإمام حين يعلن دعوته هذه كان يرى نفسه في مرحلة من الجهاد تستدعي أن يرفض بشكل مباشر صريح حكّام زمانه، وأن يعلن نفسه بأنه صاحب الحق الواقعي، وصاحب الولاية والإمامة.

ومثل هذا التصدي يعني عادة اجتياز سائر المراحل الجهادية السابقة بنجاح، ولا بدّ أن يكون الوعي السياسي والإجتماعي قد انتشر في قاعدة واسعة، وأن الإستعداد محسوس بالقوة في كل مكان، وأن الأرضية الأيديولوجية قد توفرت في عدد ملحوظ من الأفراد، وأن جمعاً غفيراً آمن بضرورة إقامة حكومة الحق والعدل، وأن يكون القائد ـ أخيراً ـ قد اتخذ قراره الحاسم بشأن هذه المواجهة الساخنة. وبدون هذه المقدمات فإن إعلان إمامة شخص معين وقيادته الحقة للمجتمع أمر فيه تعجّل ولا جدوى منه.

المسألة الأخرى التي لا بدّ من التركيز عليها في هذا المجال، أن الإمام ما كان يكتفي في بعض الموارد بإثبات إمامته وحسب، بل يذكر إلى جانب اسمه أسماء أئمة الحق من أسلافه أيضاً، أي أنه يطرح في الحقيقة سلسلة أئمة أهل البيت بشكل متصل غير قابل للتجزئة والإنفصال.

هذا الموقف يشير إلى ارتباط جهاد أئمة أهل البيت عليهم السلام وتواصله من الأزمنة السابقة إلى عصر الإمام الصادق عليه السلام. إن الإمام الصادق عليه السلام يقرر إمامته باعتبارها النتيجة الحتمية المترتبة على إمامة أسلافه، وبذلك يبين جذور هذه الدعوة وعمقها في تاريخ الرسالة الإسلامية، وارتباطها بصاحب الدعوة الرسول الأكرم عليه أفضل الصلاة والسلام.

ولنعرض بعض نماذج دعوة الإمام:

أروع رواية في هذا الباب عن «عمرو بن أبي المقدام»، وفيها تصوير لواقعة عجيبة.

في يوم التاسع من ذي الحجة إذ اجتمع الحجاج في عرفة لأداء منسك الوقوف، وقد توافدوا على هذا الصعيد من كل فج عميق.. من أقصى خراسان حتى سواحل الأطلنطي.. والموقف حساس وخطير، والدعوة فيه تستطيع أن تجد لها صدى في أقاصي العالم الإسلامي.

انضم الإمام عليه السلام إلى هذه الجموع الغفيرة المحتشدة، ليوصل إليها كلمته، يقول الراوي: رأيت الإمام قد وقف بين الجموع ورفع صوته عالياً ليبلغ أسماع الحاضرين ولينتقل إلى آذان العالمين وهو ينادي: «**أيها الناس، إن رسول الله كان الإمام ثم كان علي بن أبي طالب ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي ثم..**» فينادي ثلاث مرات لمن بين يديه، وعن يمينه وعن يساره ومن خلفه، اثني عشر صوتاً[1].

ورواية أخرى عن «أبي الصباح الكناني» أن الإمام الصادق عليه السلام يصف نفسه وأئمة الشيعة بأن لهم «الأنفال» و«صفو المال»..

(1) البحار، ج47، ص58، ح107.

عن أبي الصباح قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «**يا أبا الصباح، نحن قوم فرض الله طاعتنا، لنا الأنفال ولنا صفو المال، ونحن الراسخون في العلم، ونحن المحسودون الذين قال الله في كتابه: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾**»[1].

و«صفو المال» هو من الأموال ذات القيمة الرفيعة في غنائم الحرب، وكان لا يقسم كما تقسم الغنائم بين المجاهدين، كي لا يستأثر به أحد دون آخر، ويكون كرامة كاذبة لأحد من الناس، بل إنه يبقى لدى الحاكم الإسلامي يتصرّف به لما يحقق مصلحة عامة المسلمين. وكان الحكّام الظلمة يستأثرون بهذا المال ويجعلونه مختصاً بهم غصباً. والإمام يصرّح بأن «صفو المال» يجب أن يكون لهم، وهكذا الأنفال وهذا يعني أنه يعلن نفسه بصراحة حاكماً شرعياً للمسلمين مسؤولاً عن استثمار هذه الأموال وفق ما يراه تحقيقاً لمصلحة الأمة.

وفي حديث آخر يذكر الإمام الصادق عليه السلام أسماء أسلافه من الأئمة عليهم السلام واحداً واحداً، ويشهد بإمامتهم وبوجوب طاعتهم، وحين يصل إلى نفسه يسكت، والمخاطبون يعلمون جيداً أن ميراث العلم والحكم بعد الإمام الباقر عليه السلام وصل إلى الإمام الصادق. وبذلك يعلن الإمام عليه السلام حقه في قيادة الأمة بأسلوب يجعله مرتبطاً بجدّه علي بن أبي طالب عليه السلام[2].

وفي أبواب كتاب الحجة من «الكافي» وكذلك في الجزء 47 من «بحار الأنوار» أحاديث كثيرة من هذا القبيل، تتحدث بصراحة أو بكناية عن ادّعاء الإمامة والدعوة إليها.

ولإثبات هذه الحقيقة التاريخية أمامنا شواهد عن شبكة منظمة لدعوة الإمام عليه السلام في جميع أرجاء العالم الإسلامي، والوثائق الكثيرة المتوفرة في هذا المجال تجعل وجود هذه الشبكة أمراً حتمياً لا مراء فيه. وهذه الشواهد تبلغ من الكثرة والوقوف بحيث يمكن أن نستدل بها على موضوعنا استدلالاً قاطعاً، ولو لم يتوفر حديث صريح واحد في هذا المجال.

---

(1) البحار، ج23، ص199، ح32، كذلك راجع الرواية 20، من نفس الباب.

(2) الكافي، ج 1، ص186.

نحن في هذا المجال أمام ظواهر تاريخية ثابتة:

1 ـ ثمة ارتباط منظم فكري ومالي بين الأئمة عليهم السلام وأتباعهم، وكانت الأموال تُحمل من أطراف العالم إلى المدينة كذلك والأسئلة الدينية تتقاطر عليها.

2 ـ اتساع الرقعة الموالية لآل البيت عليهم السلام خاصة في البقاع الحساسة من العالم الإسلامي.

3 ـ تجمّع عدد غفير من المحدثين والرواة الخراسانيين والسيستانيين والكوفيين والبصريين واليمانيين والمصريين حول الإمام عليه السلام.

فهل إن هذه الظواهر المنسجمة المتناسبة مع بعضها قد حدثت بالصدفة؟

ولا بد أن نضيف أن هذه الظواهر حدثت في ظل سيطرة سياسية كانت جادّة كل الجدّ في إلغاء حتى اسم علي وآل علي عليهم السلام، بل وسب علي على المنابر، وتسليط أنواع البطش والإرهاب على أتباعهم، فكيف أمكن في مثل هذا الجو خلق قاعدة شعبية عريضة موالية لآل البيت تطوي آلاف الأميال للوصول إلى الحجاز والمدينة لتتلمذ على أئمة أهل البيت عليهم السلام وتأخذ عنهم فكر الإسلام في الحياة الفردية والإجتماعية، وتتحدث معهم في موارد كثيرة وعن مسائل الثورة على الوضع الفاسد، أو بعبارة الروايات، تتحدث معهم عن مسائل القيام والخروج؟!!

فلو كان دعاة أهل البيت يقتصرون في حديثهم على علم الأئمة عليهم السلام وزهدهم، فلماذا يدور الحديث في وسط هؤلاء الأتباع دائماً عن الثورة المسلحة؟

ألا يدل كل هذا على وجود شبكة منظمة للدعوة إلى إمامة أهل البيت عليهم السلام بالمعنى الكامل للإمامة، أي الفكرية والسياسية؟

ثمة وثائق أخرى تبين محتوى دعوة أئمة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم إلى الإمامة، تعرضها المناقشات والمجادلات بينهم وبين خصومهم السياسيين (الأمويين والعباسيين). هذه المنازعات كانت تدور أحياناً بلغة الإستدلال الكلامي والديني، وأحياناً بلغة الأدب الرفيع المتمثل بالشعر، وكان كل الإحتجاج يقوم على أساس إثبات حق الإمامة السياسية والحكم لأئمة أهل البيت عليهم السلام، ومقارعة المتربّعين ظلماً وغصباً على كرسي حكومة المسلمين.

إن عصر الإمام الصادق عليه السلام ـ لمعاصرته حركة بني العباس وانتصار هذه الحركة ـ كان مفعماً بهذا اللون من الحجاج.

كان شعراء بني العباس يحاولون إثبات حق الحكم لبني العباس استناداً إلى الأدلة نفسها التي يقدمها عادة الطامعون إلى السلطة والمتشبثون بكرسي الحكم. ويقف شعراء الشيعة مقارعين لحججهم مستدلّين على زيف الحكم العباسي من منطق إسلامي، يقوم على أساس رفض الظلم والإجرام والخيانة بحق الأمة الإسلامية.

وللحجاج الشعري بين العباسيين والعلويين أهمية في هذا المجال، لما كان ينهض به الشعر آنذاك من دور كبير في التعبير عن العواطف والأفكار، ولما كان يؤديه في القاعدة الشعبية من تأثير. يذكر صاحب كتاب «العباسيون الأوائل» دور الأدب في القرنين الأول والثاني فيقول: «... كان الأدب يؤثر في النفوس ويكسب عواطف الناس وميولهم إلى هذه الفئة أو تلك. وكان الشعراء والخطباء بمثابة جريدة العصر، يعبّر كل منهم عن رأي سياسي ويدافع عن حزب معين، مبرزاً الدليل تلو الدليل على صحة دعواه، مفنداً آراء الخصوم بكلام مؤثر وأسلوب بليغ»[1].

شعراء البلاط العباسي كانوا يجتهدون في إثبات حق العباسيين في الخلافة، باعتبار ارتباطهم بالنبي عن طريق العمومة، مستدلين على ذلك من حقّ العباس عم النبي ومن بعده أبناؤه من بني العباس:

قال مروان بن أبي حفصة:

أنّى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمـام

وقال أبان بن عبد الحميد اللاحقي:

فـأبنـاء عبـاس هـم يرثـونـه كما العمُ لابنِ العم في الإرث قد حجب

منطلقين من عاطفة الشعور بالظلم للرد على هذه الأدلة، بالمنطلق نفسه، وأحياناً بمنطق آخر للإستدلال على حق أئمة أهل البيت عليهم السلام في الإمامة. من ذلك استدلالهم بحديث غدير خم كقول السيد الحميري:

مـن كنـت مـولاه فهـذا لـه مولى فلم يرضوا ولم يقنعوا

(1) د. فاروق عمر، العباسيون الأوائل، ص104.

ويرد محمد بن يحي بن أبي مرة التغلبي على استدلال الشاعر العباسي بشأن وراثة الأعمام فيقول:

لِـمَ لا يكـون وإن ذاك لكائـن — لبني البـنات وراثـة الأعمـام
للبنـت نصف كامـل من مالـه — والعـم متـروك بغـير سـهام
مـا للطليـق وللـتراث وإنمـا — صلّى الطليق مخافة الصمصام

ويرى دعبل أن كل ما حلّ بأهل البيت عليهم السلام من مصائب إنما هو لأنهم ورثوا النبي صلى الله عليه وآله، فتكالب على هذا الإرث الطامعون، وأضروا بمن له الحق في الإمامة:

أضرّ بهـم إرث النبـي فأصبحـوا — تسـاهم فيهـم خيفـة ومنـون
دعتهم ذئـاب من أميـة وانتحـت — عليهـم دراكـاً أزمـة وسـنون
وعاشت بنو العباس في الدين عيشة — تحكّـم فيهـا سالـم وخـؤون
وسمّوا رشيداً ليس فيهـم لرشـده — وهـا ذاك مأمـون وذاك أمـين
فما قبلت بالرشـد منهـم رعايـة — ولا للولـي بالأمـانـة ديـن

وليس من العسير على الباحث في العصر العباسي الأول أن يجد مئات النماذج من المحاورات والمناظرات السياسية بلغة الشعر في هذا المجال.

وقبل أن نختم هذا القسم من المناسب أن نشير إلى لغة حجاج أخرى، هي لغة الرسائل. هذه الرسائل الإحتجاجية كانت تتضمن من جهة أهداف الفرقاء بشكل واضح دون لبس، وكانت تجد لها من جهة أخرى صدىً شعبياً بعد انتشار مضمونها. وتأثيراً قوياً على الأنصار والخصوم.

نذكر من ذلك رسالة محمد بن عبد الله بن الحسن ذي النفس الزكية إلى المنصور العباسي، هذا العلوي الثائر يذكر بصراحة ووضوح أنه يطلب نزع الخلافة من خصومه لتكون في أبناء علي عليه السلام، يقول: **«وإن أبانا علياً كان الوصي وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء»!؟**.

ويبدو أن هذا الإستدلال أورده العلوي رداً على استدلال العباسيين في وراثتهم الخلافة، لأن بني العباس لم تكن لهم حجة سوى هذا الإرث المزعوم، فأراد أن يسد عليهم الطريق ويرد عليهم بنفس منطقهم، ويلاحظ في العبارة أن ذا النفس الزكية يركّز

على إمامة علي عليه السلام انطلاقاً من فهمه لمعنى الإمامة، ثم يركز على طبيعة دعوة البيت العلوي التي يمثلها هذا الثائر.



أسئلة حول الدرس

1 ـ حدد طبيعة المهمة الفكرية للإمام الصادق عليه السلام بالإجمال؟

2 ـ من المعالم الرئيسية في حياة الإمام الصادق عليه السلام تبيان مسألة الإمامة والدعوة إليها. كيف حصل ذلك؟

3 ـ ما هي المواقف والمناسبات التي استفاد منها الإمام الصادق عليه السلام في تبيان أحقية أهل البيت عليهم السلام بالخلافة؟

19

حياة الإمام الصادق عليه السلام (2)

2 ـ بيان الأحكام وتفسير القرآن وفق ما ورثته مدرسة أهل البيت عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

هذا النشاط يمكن ملاحظته أيضاً في حياة الإمام الصادق عليه السلام بشكل متميز عما نراه في حياة بقية أئمة آل البيت عليهم السلام، حتى سمي فقه الشيعة باسم «الفقه الجعفري» حتى الذين يغضون الطرف عن النشاط السياسي للإمام الصادق عليه السلام يجمعون على أن الإمام كان يدير أوسع، أو واحدة من أوسع الحوزات الفقهية في زمانه. والذي بقي مستوراً عن أعين أغلب الباحثين في حياة الإمام، هو المفهوم السياسي ومفهوم المواجهة لهذا اللون من نشاطات الإمام، وهذا ما سنتعرض له الآن. لابدّ أن نذكر أولاً، أن منصب الخلافة في الإسلام له خصائص متميزة لاجهازاً سياسياً فحسب، بل هي جهاز سياسي ـ ديني، وإطلاق لقب الخليفة على الحاكم الإسلامي يؤيد هذه الحقيقة، فهو خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله في كل ما كان يمارسه الرسول من مهام دينية قيادية سياسية في المجتمع. والخليفة في الإسلام يتحمل المسؤوليات السياسية والمسؤوليات الدينية معاً. هذه الحقيقة الثابتة دفعت الخلفاء الذين جاءوا بعد الخلفاء الأولين والذين كانوا ذوي حظ قليل في علوم الدين، أو لم يكن لهم من حظ أصلاً، دفعتهم إلى سدّ هذا النقص عن طريق رجال دين مسخرين لهم. فاستخدموا فقهاء ومفسرين ومحدثين في بلاطهم، ليكون جهازهم الحاكم جامعاً أيضاً للجانبين الديني والسياسي.

والفائدة الأخرى من وجود وعّاظ السلاطين في الجهاز الحاكم، هي أن الحاكم الظالم المستبد كان قادراً متى ما أراد أن يغيّر ويبدّل أحكام الدين وفقاً للمصالح، وكان هؤلاء المأجورون يقومون بهذه العملية إرضاء لأولياء نعمتهم، تحت غطاء من الإستنباط والإجتهاد ينطلي على عامة الناس.

الكتّاب والمؤرخون المتقدمون ذكروا لنا نماذج فظيعة من اختلاف الحديث ومن

التفسير بالرأي كانت يد القوة السياسية فيها واضحة، وسنشير إلى جانب منها في أقسام حديثنا التالية. هذا العمل الذي اتخذ غالباً في البداية (حتى أواخر القرن الهجري الأول) شكل وضع رواية أو حديث، راح تدريجياً يأخذ طابع الفتوى: ولذلك نرى في أواخر عصر بني أمية وأوائل عصر بني العباس ظهور فقهاء كثيرين استفادوا من أساليب رجراجة في أصول الإستنباط، ليصدروا الأحكام وفق أذواقهم التي كانت في الواقع أذواق الجهاز الحاكم.

هذه العملية نفسها أنجزت أيضاً في حقل تفسير القرآن، فالتفسير اتجه غالباً إلى إعطاء مفاهيم عن الإسلام لا تقوم على أساس سوى ذوق المفسر ورأيه المستمد من ذوق الجهاز الحاكم وإرادته.

من هنا انقسمت العلوم الإسلامية: الفقه والحديث والتفسير منذ أقدم العصور الإسلامية إلى تيارين عامين.

التيار الأول: تيار مرتبط بجهاز الحكومة الظالمة الغاصبة، ويتميز بتقديم الحقيقة في موارد متعددة قرباناً على مذبح «المصالح» التي هي في الواقع مصالح الجهاز الحاكم، ويتميز أيضاً بتحريف أحكام الله لقاء دراهم معدودات.

التيار الثاني: التيار الأصيل الأمين الذي لا يرى مصلحة أرفع وأسمى من تبيين الأحكام الإلهية الصحيحة، وكان يصطدم - شاء أم أبى - في كل خطوة من خطواته بالجهاز الحاكم ووعاظ السلاطين، ولذلك اتجه منذ البدء اتجاهاً شعبياً في إطار من الحيطة والحذر.

انطلاقاً من هذا الفهم نعرف بوضوح أن اختلاف «الفقه الجعفري» مع الفقهاء الرسميين في زمن الإمام الصادق عليه السلام لم يكن اختلافاً فكرياً عقائدياً فحسب، بل كان اختلافاً يستمد وجوده من محتواه الهجومي المعارض أيضاً.

أهم أبعاد هذا المحتوى إثبات خواء الجهاز الحاكم، وفراغه من كل مضمون ديني، وعجزه عن إدارة الشؤون الفكرية للأمة، وبعبارة أخرى، عدم صلاحيته للتصدي لمنصب «الخلافة».

والبعد الآخر تشخيص موارد التحريف في الفقه الرسمي. هذه التحريفات القائمة

على أساس فكر «مصلحي» في بيان الأحكام الفقهية ومداهنة الفقهاء للجهاز الحاكم. والإمام الصادق عليه السلام بنشاطه العلمي وتصدّيه لبيان أحكام الفقه والمعارف الإسلامية، وتفسير القرآن بطريقة تختلف عن طريقة وعاظ السلاطين قد اتخذ عملياً موقف المعارضة تجاه الجهاز الحاكم. الإمام عليه السلام بنشاطه هذا قد يلغي كل الجهاز الديني والفقهي الرسمي الذي يشكّل أحد أضلاع حكومة الخلفاء، ويفرّغ الجهاز الحاكم من محتواه الديني.

ليس بأيدينا سند ثابت يبين التفات الجهاز الأموي إلى هذا المحتوى المعارض لما قام به الإمام الصادق عليه السلام من نشاط علمي فقهي. ولكن أغلب الظن أن الجهاز العباسي - وخاصة في زمن المنصور الذي كان يتمتع بحنكة وذكاء وتجربة اكتسبها من صراعه السياسي الطويل مع الحكم الأموي قبل وصوله إلى السلطة، كان يعي المسائل الدقيقة في نشاطات البيت العلوي. وكان الجهاز الحاكم العباسي يفهم الدور الفاعل الذي يستطيع أن يؤديه هذا النشاط العلمي بشكل غير مباشر.

والتهديدات والضغوط والمضايقات التي كانت تحيط بنشاطات الإمام الصادق عليه السلام التعليمية والفقهية من قبل المنصور المنقولة إلينا في روايات تاريخية كثيرة ناتجة من هذا الإلتفات إلى حساسية المسألة. وهكذا اهتمام المنصور بجمع الفقهاء المشهورين في الحجاز والعراق في مقرّ حكومته - كما تدل على ذلك النصوص التاريخية العديدة، فإنه ناشئ عن هذا الإلتفات أيضاً.

في حديث الإمام عليه السلام وتعاليمه لأصحابه ومقربيه كان يستند إلى » خواء الخلفاء وجهلهم» ليستدلّ على أنهم في نظر الإسلام لا يحق لهم أن يحكموا. ونحن نشهد هذه الصيغة من الهجوم على الجهاز الحاكم بوضوح وصراحة في دروسه الفقهية.

يروى عنه قوله عليه السلام: «**نحن قوم فرض الله طاعتنا وأنتم تأتمون بمن لا يُعذر الناس بجهالته**»[1].

أي إن الناس انحرفوا بسبب جهل حكّامهم وولاة أمورهم، وسلكوا سبيلاً غير سبيل

(1) الكافي، ج1، ص186، ح3.

الله، وهؤلاء غير معذورين عند الله. لأن إطاعة هؤلاء الحكام كانت عملاً انحرافياً، فلا يبرّر ما يستتبعها من وقوع من الإنحرافات[1].

في تعليمات الأئمة عليهم السلام قبل الإمام الصادق وبعده نرى أيضاً تركيزاً على ضرورة اقتران القيادة السياسية بالقيادة الفكرية والأيديولوجية. ففي رواية عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن جده الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: «**إنما مثل السلاح فينا مثل التابوت في بني إسرائيل أينما دار التابوت دار الملك،** (تأمل بدقة المعنى الرمزي في التعبير) **وأينما دار السلاح فينا دار العلم..**» وفي رواية أخرى: «**حيثما دار السلاح فينا فثمّ الأمر (الحكم)**»[2].

ويسأل الراوي الإمام عليه السلام: فيكون السلاح مزايلاً (مفارقاً) للعلم؟

قال الإمام عليه السلام: «**لا. أي إن قيادة المجتمع المسلم يجب أن تكون في من بيده السلاح والعلم معاً**».

الإمام إذن يرى أن علم الدين وفهم القرآن بشكل صحيح شرط من شروط الإمامة. ومن جهة أخرى فهو بنشاطه العلمي، وجمع عدد غفير من مشتاقي علوم الدين حوله، وتعليمه الدين بشكل يختلف تماماً عن الطريقة المعتادة لدى العلماء والمحدثين والمفسرين المرتبطين بجهاز الخلافة، يثبت عملياً أصالة المحتوى الديني لمدرسته، وزيف الظاهر الديني الذي يتقمّصه جهاز الخلافة ومن لفّ لفّه من علماء بلاطه. وعن هذا الطريق المهاجم المتواصل العميق الهادئ يضفي على جهاده بعداً جديداً.

وكما ذكرنا من قبل، فإن الحكام العباسيين الأوائل الذين قضوا سنين طوالاً قبل تسلّمهم السلطة في نفس أجواء الجهاد العلوي وإلى جانب أنصار العلويين، كانوا على علم بكثير من الخطط والمنعطفات، وكانوا متفهمين لدور الهجوم والمواجهة الذي يؤديه هذا النشاط من الفقه والحديث والتفسير أكثر من أسلافهم الأمويين. وقد يكون هذا السبب هو الذي دفع المنصور العباسي في مواجهاته مع الإمام الصادق عليه السلام أن يمنع الإمام زمناً من الجلوس في حلقات التدريس وعن تردد الناس عليه. حتى أن المفضل بن

(1) الكافي، ج1، ص238.
(2) الكافي، ج1، ص238.

عمر يقول: «إن المنصور قد كان همّ بقتل أبي عبد الله عليه السلام غير مرة، فكان إذا بعث إليه ودعاه ليقتله فإذا نظر إليه هابه ولم يقتله، غير أنه منع الناس عنه ومنعه من القعود للناس، واستقصى عليه أشد الإستقصاء، حتى أنه كان يقع لأحدهم مسألة في دينه في نكاح أو طلاق أو غير ذلك فلا يكون علم ذلك عندهم، ولا يصلون إليه فيعتزل الرجل وأهله، فشق ذلك على شيعته وصعب عليهم..»[1].

3 ـ إقامة تنظيم سري إيديولوجي ـ سياسي:

مرّ بنا أن الإمام الصادق عليه السلام قاد في أواخر العصر الأموي شبكة إعلامية واسعة استهدفت الدعوة إلى إمامة آل علي عليهم السلام وتبيين مسألة الإمامة بشكلها الصحيح. وهذه الشبكة نهضت بدور مثمر وملحوظ في أقاصي بقاع العالم الإسلامي، وخاصة في العراق وخراسان لنشر مفاهيم الإمامة.

ونشير هنا إلى جانب صغير من هذه المسألة. مسألة التنظيمات السرية في الحياة السياسية للإمام الصادق عليه السلام وباقي الأئمة من أهم المسائل وأكثرها حساسية، وهي في الوقت نفسه من أغمض فصول حياتهم وأشدّها إبهاماً. وكما ذكرنا، لا يمكن أن نتوقع وجود وثائق صريحة في هذا المجال، حيث لا يمكن أن نتوقع من الإمام أو أحد أصحابه أن يعترف صراحة بوجود هذه التنظيمات ـ السياسية، الفكرية.

فهذا مما لا يمكن الكشف عنه، الشيء المعقول هو أن الإمام ينفي بشدّة وجود مثل هذا التنظيم السري، وهكذا أصحابه، ويعتبرون ذلك تهمة وسوء ظن فيما لو تعرّضوا لاستجواب جهاز السلطة. هذه هي خاصية العمل السري، والباحث في حياة الأئمة عليهم السلام أيضاً من حقّه أن لا يقتنع بوجود مثل هذا التنظيم دون دليل مقنع. إذن فلا بدّ أن نبحث عن القرائن والشواهد والحوادث التي تبدو بسيطة لا تلفت نظر المطالع العادي، لنبحث عن دلالاتها في هذا المجال. وبهذا اللون من التدقيق في حياة الأئمة عليهم السلام خلال قرنين ونصف القرن من حياتهم يستطيع الباحث أن يطمئن إلى وجود مثل هذه التنظيمات التي تعمل تحت قيادة الأئمة عليهم السلام.

(1) المناقب، باب شهر آشوب، ص238، ط. بيروت.

ما المقصود بالتنظيم؟ ليس المقصود به طبعاً حزباً منظماً بالمفهوم المعروف اليوم، ولا يعني وجود كوادر منظمة ذات قيادات إقليمية مرتبطة ارتباطاً هرمياً، فلم يكن شيء من هذا موجوداً ولا يمكن أن يوجد. المقصود بالتنظيم وجود جماعة بشرية ذات هدف مشترك تقوم بنشاطات متنوعة تتجه نحو الهدف، وترتبط بمركز واحد وقلب نابض وواحد ودماغ مفكر واحد، وتسود بين أفرادها روابط عاطفية مشتركة.

هذه الجماعة كانت في زمن الإمام علي عليه السلام (أي خلال السنوات الخمس والعشرين بين وفاة الرسول الأكرم وبيعته للخلافة) وكان يجمعها الإيمان بأحقية الإمام علي عليه السلام في الخلافة، وكانت تعلن وفاءها الفكري والسياسي للإمام، غير أنها كانت تحذو حذو الإمام علي عليه السلام في عدم إثارة ما يزلزل المجتمع الإسلامي الوليد، كما كانت تنهض بما كان ينهض به الإمام علي عليه السلام في تلك السنوات من مهام رسالية تستهدف صيانة الإسلام ونشره. ومحاولة الحدّ من الإنحرافات واتخذت لولائها هذااسم «شيعة علي» ومن وجوههم المشهورة: سلمان وعمار وأبو ذر وأبي بن كعب والمقداد وحذيفة وغيرهم من الصحابة الأجلاء.

ولدينا ثوابت تاريخية تثبت أن هؤلاء كانوا يشيعون بين الناس فكرهم بشأن إمامة علي عليه السلام بشكل حكيم، وعملهم هذا كان مقدمة لالتفاف الناس حول الإمام وإقامة الحكم العلوي.

بعد أن استلم الإمام علي عليه السلام مقاليد الأمور سنة 35 هجرية، كان حول الإمام علي صنفان من الناس: صنف عرف الإمام ومكانته وفهم معنى الإمامة وآمن بها، وهم شيعته الذين تربّوا على يد الإمام بشكل مباشر أو غير مباشر. وعامة الناس الذين عاشوا أجواء تربية الإمام ونهجه ولكنهم لم يكونوا مرتبطين فكرياً وروحياً بالجماعة التي ربّاها الإمام تربية خاصة.

ولذلك نجد بين أتباع الإمام صنفين من الأفراد بينهما تفاوت كبير: صنف يضم عماراً ومالكاً الأشتر وحجر بن عدي وسهل بن حنيف وقيس بن سعد وأمثالهم، وصنف من مثل أبي موسى الأشعري وزياد بن أبيه ونظرائهم.

بعد حادثة صلح الإمام الحسن عليه السلام كانت الخطوة الهامة التي اتخذها الإمام نشر

فكر مدرسة أهل البيت، ولمّ شتات الموالين لهذا الفكر، إذ أتيحت الفرصة لحركة أوسع بسبب اضطهاد السلطة الأموية. وهكذا كان دائماً، فالإضطهاد يؤدي إلى انسجام القوى المضطهدة وتلاحمها وتجذّرها بدل تبعثرها وتشتتها. واتجهت استراتيجية الإمام الحسين عليه السلام إلى تجميع القوى الأصيلة الموالية، وحفظها من بطش الجهاز الأموي، ونشر الفكر الإسلامي الأصيل في دائرة محدودة، ولكن بشكل عميق، وكسب الأفراد إلى صفوف الموالين، وانتظار الفرصة المؤاتية للثورة على النظام وتفجير أركانه، وإحلال الحكم العلوي مكانه.. وهذه الإستراتيجية في العمل هي التي جعلت الإمام الحسن عليه السلام أمام خيار واحد وهو الصلح.

ومن هنا نرى أن جمعاً من الشيعة برئاسة المسيب بن نجية وسليمان بن صرد الخزاعي يقدمون على الإمام الحسن عليه السلام بعد حادثة الصلح في المدينة، حيث اتخذها الإمام قاعدة لعمله الفكري والسياسي بعد عودته من الكوفة، ويقترحون عليه إعادة قواهم وتنظيماتهم العسكرية والإستيلاء على الكوفة والإشتباك مع جيش الشام، والإمام يستدعي هذين الإثنين من بين الجمع، ويختلي بهما ويحدثهما بحديث لا نعرف فحواه، يخرجان بعده بقناعة تامة بعدم جدوى هذه الخطة. وحين يعود الإثنان إلى من جاء معهما يفهمانهم باقتضاب أن الثورة المسلحة مرفوضة، ولا بد من العودة إلى الكوفة لاستئناف نشاط جديد فيها[1].

هذه حادثة مهمة لها دلالات كبيرة حدث ببعض المؤرخين المعاصرين إلى اعتبار ذلك المجلس الحجر الأساس في إقامة التنظيم الشيعي.

والواقع أن الخطوة الأولى لإقامة التنظيم الشيعي لو كانت حقاً قد اتخذت في ذلك اللقاء بين الإمام الحسن عليه السلام والرجلين القادمين من العراق، فإن مثل هذه الخطوة قد أوصى بها الإمام علي عليه السلام من قبل حين أوصى المقرّبين من أصحابه بقوله: «**لو قد فقدتموني لرأيتم بعدي أشياء يتمنّى أحدكم الموت مما يرى من الجور والعدوان والأثرة والإستخفاف بحق الله والخوف على نفسه. فإذا كان ذلك:**

(1) المعنى نفسه جاء في كتاب الشيخ راضي ياسين صلح الإمام الحسن عليه السلام ٣١ ـ٣٢، بيروت.

. فاعتصموا بحبل الله ولا تفرقوا...

. وعليكم بالصبر والصلاة.

. والتقية.

واعلموا أن الله عز وجل يبغض من عباده (التلّون) لا تزولوا عن (الحق وأهله) فإن من استبدل بنا هلك وفاتته الدنيا وخرج منها آثماً»[1].

هذا النص الذي يرسم بوضوح الوضع المأساوي في العصر الأموي، ويوجه المؤمنين إلى التلاحم والتعاضد والتنسيق والإنسجام يعتبر أروع وثيقة من وثائق الجهاز التنظيمي في حركة آل البيت عليهم السلام. وهذا المشروع التنظيمي يتبلور في شكله العملي في اللقاء بين الإمام الحسن عليه السلام واثنين من الشيعة الخلّص. ومما لا شك فيه أن اتباع أهل البيت عليهم السلام لم يكونوا جميعاً مطّلعين على هذا المشروع الدقيق. ولعل هذا يبرّر ما كان يصدر من بعض صحابة الإمام الحسن عليه السلام من اعتراض وانتقاد. وكان المعترضون يواجهون قول الإمام الذي مضمونه: «... **من يدري، لعله اختبار لكم ونفعٌ زائلٌ لأعدائكم...**».

وفي هذه الإجابة إشارة خفية إلى سياسة الإمام وتدبيره[2].

خلال الأعوام العشرين من حكومة معاوية بكل ما أحاط فيها البيت العلوي من إعلام مكثّف مضاد، بلغ درجة لعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على منابر المسلمين، وبكل ما شهدتها من انسحاب الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام من ساحة النشاط العلني المشهود، لا نرى سبباً في انتشار فكر أهل البيت عليهم السلام واتساع القاعدة الشيعية في الحجاز والعراق سوى وجود هذا التنظيم.

ولنلق نظرة على الساحة الفكرية في هذه المناطق بعد العشرين عاماً من صلح الإمام الحسن عليه السلام.

في الكوفة نرى رجال الشيعة من أبرز الوجوه وأشهرها. وفي مكة والمدينة بل وفي المناطق النائية نرى أتباع أهل البيت مثل حلقات مترابطة يعرف بعضها ما يلّم بالبعض الآخر.

---

(1) تحف العقول، ص115، ط2.

(2) هذا الوضع يمكن مقارنته وتشبيهه إلى حد ما بوضع المجتمعات المعاصرة التي تحكمها الأنظمة الحزبية.

حين يستشهد بعد أعوام أحد رجال الشيعة وهو «حجر بن عدي» ترتفع أصوات الإعتراض في مناطق عديدة من البلاد الإسلامية، على رغم الإرهاب المفروض على كل مكان، ويبلغ الحزن والأسى بشخصية معروفة في خراسان أن يموت كمداً بعد إعلان الإعتراض الغاضب[1].

وبعد موت معاوية ترد على الإمام الحسين ﷺ آلاف الرسائل تدعوه أن يأتي إلى الكوفة لقيادة الثورة. وبعد استشهاد الإمام يلتحق عشرات الآلاف بمجموعة «التوّابين»، أو ينخرطون في جيش المختار وإبراهيم بن مالك ضد الحكم الأموي.

ومن حق الباحث في التاريخ الإسلامي أن يسأل عن العوامل الكامنة وراء شيوع هذا الفكر والتحرّك الموالي لآل البيت ﷺ. هل يمكن أن يتم دون وجود نشاط مكثّف محسوب منظّم متحد في الخطة والهدف؟!

الجواب: لا طبعاً، فالإعلام الهائل، الذي وجهته السلطة الأموية عن طريق مئات القضاة والولاة والخطباء، لا يمكن إحباطه وإفشاله دون إعلام مضاد مخطط مرسوم، ينهض به تنظيم منسجم موحَّد غير مكشوف. وقبيل وفاة معاوية تزايد نشاط هذا الجهاز العلوي المنظّم وتصاعدت سرعة عمله، حتى أن والي المدينة يكتب إلى معاوية ما مضمونه: «أما بعد، فإن عمر بن عثمان عين والي المدينة على الحسين ﷺ أخبرنا بأن رجلاً من العراق وبعض شخصيات الحجاز يترددون على الحسين بن علي، وتدور بينهم أحاديث حول رفع راية التمرّد والعصيان.. فاكتبوا لنا ماذا ترون»[2].

بعد واقعة كربلاء، وشهادة الإمام الحسين ﷺ تضاعف النشاط التنظيمي لشيعة العراق على أثر الصدمة النفسية التي أصيبوا بها في مقتل الإمام الحسين ﷺ وأهل بيته في كربلاء، وكان هذا التحرك، مؤطّراً بالألم والحسرة والأسف.

يقول الطبري فلم يزل القوم في جمع آلة الحرب والإستعداد للقتال ودعاء الناس في

(1) مات الربيع بن زياد الحارثي غماً لمقتل حجر، وذكر ذلك ابن الأثير في الكامل، ج3، ص195، وكان سبب موته أنه سخط قتل حجر بن عدي.. وذكر ذلك في الإستيعاب، وأسد الغاب، والدرجات الرفيعة وغيرها. صلح الحسن ﷺ 338.

(2) ثورة الحسين، ص18، نقلاً عن أعيان الشيعة والأخبار الطوال.

السرّ من الشيعة وغيرها إلى الطلب بدم الحسين فكان يجيبهم القوم بعد القوم والنفر بعد النفر، فلم يزالوا كذلك حتى مات يزيد بن معاوية"[1].

وحقاً ما تقوله مؤلّفة جهاد الشيعة إذ تعلّق على قول الطبري بالقول: وظهرت جماعة الشيعة بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام كجماعة منظمة، تربطها روابط سياسية وآراء دينية، لها اجتماعاتها وزعمائها، ثم لها قواتها العسكرية، وكانت جماعة «التوابين» أول مظهر لذلك كله"[2].

ويبدو من دراسة أحداث التاريخ ورأي المؤرخين في تلك البرهة الزمنية، أن الشيعة كانوا يتولّون مسؤولية القيادة والتخطيط، أما القاعدة العريضة الساخطة على بني أمية، فكانت أوسع من المجموعة الشيعية المنظمة، وكانت هذه القاعدة تضمّ إلى كل حركة ذات صبغة شيعية.

من هنا فإن المتحركين ضد بني أمية، وإن رفعوا شعارات شيعية، لا ينبغي أن نتصورهم جميعاً بأنهم في عداد الشيعة، أي في عداد الجهاز التنظيمي لأئمة أهل البيت عليهم السلام.

انطلاقاً مما سبق، أودّ التأكيد على أن اسم الشيعة بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام أطلقت فقط على المجموعة التي كانت لها علاقة وثيقة بالإمام الحق، تماماً كما كان الحال في زمن أمير المؤمنين عليه السلام.

هذه المجموعة هي التي عمدت بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام إلى تأسيس التنظيم الشيعي بأمر الإمام، وهي التي نشطت في كسب الأفراد إلى التنظيم ودفع أفراد أكثر، لم يرتفعوا في الفكر والنضج العملي إلى مستوى الإنخراط في التنظيم نحو التيار العام للحركة الشيعية.

والرواية التي أوردناها عن الإمام الصادق عليه السلام في بداية هذا الحديث، والتي تذكر أن عدد المؤمنين بعد حادثة عاشوراء لم يتجاوز الثلاثة أو الخمسة، إنما تقصد أفراد المؤمنين بعد حادثة عاشوراء لم يتجاوز الثلاثة لهم الدور الرائد الواعي في مسيرة حركة التكامل الثورية العلوية.

(1) الطبري، ج7، ص46، نقلاً عن د. سميرة مختار الليثي - جهاد الشيعة، ص28.
(2) د. سميرة الليثي (جهاد الشيعة، ص27).

وعلى أثر النشاط المتستر الهادئ الذي قام به الإمام السجاد عليه السلام توسعت قاعدة هذه المجموعة، وإلى هذا يشير الإمام الصادق عليه السلام في الرواية المذكورة: «**ثم لحق الناس وكثروا**». وسنرى أن عصر الإمام السجاد والإمام الباقر والإمام الصادق عليهم السلام شهد تحرّك هذا الجمع تحركاً أثار الرعب والفزع في قلوب الحكام والظالمين، ودفع هؤلاء الحكام إلى ردود فعل قاسية.

وبعبارة موجزة، فإن اسم الشيعة في القرنين الأول والثاني الهجريين وفي زمن الأئمة عليهم السلام ما كان يُطلق على الذين يحبّون آل بيت النبي صلى الله عليه وآله أو المؤمنين بحقهم ويصدق دعوتهم فقط، من دون اشتراك في مسيرتهم الحركية. بل أن الشيعة كانوا يتميزون بشرط أساسي وحتمي، وهو عبارة عن الإرتباط الفكري والعملي بالإمام، والإشتراك في النشاط الفكري والسياسي، بل والعسكري الذي يقوده لإعادة الحق إلى نصابه، وإقامة النظام العلوي الإسلامي. هذا الإرتباط هو نفسه الذي يطلق عليه في قاموس التشيع اسم «الولاية».

جماعة الشيعة كانت تطلق في الواقع على أعضاء حزب الإمام.. هذا الحزب الذي كان يتحرك بقيادة الإمام عليه السلام، وكان يتخذ من الإستتار والتقية خندقاً له مثل كل الأحزاب والتنظيمات المضطهدة التي تعيش في جو الإرهاب. هذه خلاصة النظرة الواقعية لحياة الأئمة عليهم السلام وخاصة الإمام الصادق عليه السلام، وكما ذكرنا من قبل لا يمكن أن يكون لمثل هذه المسألة دلائل صريحة، إذ لا يمكن أن نتوقع من بيت سرّي أن يحمل لافتة تقول: «هذا بيت سرّي»! وكذلك لا يمكن أن نطمئن إلى النتيجة دون قرائن حاسمة.

من هنا ينبغي أن نتتبع القرائن والشواهد والإشارات.

من العبارات العميقة التي تلفت نظر الباحث المدقق في الروايات المرتبطة بحياة الأئمة عليهم السلام، أو في كلام مؤلّفي القرون الإسلامية الأولى، عبارة «باب» و«وكيل» و«صاحب السر» وهي عبارات تطلق على بعض أصحاب الأئمة. فمثلاً، يقول ابن شهر آشوب المحدث الشيعي الشهير في سيرة الإمام السجاد عليه السلام: «**وكان بابه يحيى بن أم الطويل**» وفي سيرة الإمام الباقر عليه السلام يقول: «**وكان بابه جابر بن يزيد الجعفي**». وفي

ترجمة الإمام الصادق عليه السلام يقول: «**وكان بابه محمد بن سنان**». وفي «رجال الكشي» ترد حول زرارة وبريد ومحمد بن مسلم وأبي بصير عبارة: «**مستودع سرّي**».

وفي كتب الحديث تروى عن الإمام الصادق عليه السلام عبارة «**وكيل**» بشأن المعلّى بن خنيس. وكل واحد من هذه التعبيرات، إن لم تكن صادرة عن الإمام، فإنها دون شك حصيلة دراسة موسعة في حياة الأئمة، نهض بها المؤلفون الشيعة القدامى. واختيار هذه التعبيرات العميقة على أي حال ينطلق من معالم بارزة في حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام. ولو تأملنا في هذه التعبيرات لألفينا إن كل واحد منها يدل على وجود جهاز فعّال مستتر وراء النشاط الظاهري للأئمة عليهم السلام.

مستودع السر:

إذا لم يكن لأحدٍ «سرٌّ» فليس له مستودع سر. فما هو هذا السر في حياة الأئمة؟ ما هذا الذي لا يتحمله أصحاب الأئمة عامة، بل ثمة نفر معدود له لياقة وصلاحية تحمّله، وبذلك نال شرف اسم «**مستودع السر**»؟!

ولقد راحت الذهنية المتأخرة البعيدة عن واقع الأحداث وتمحيصها تفسّر هذا السر بأنه « سر الإمامة». كما راحت تفسّر سرّ الإمامة بأنه الأسرار الغيبية والقدرة على الخوارق والمعاجز.

أنا أؤمن بقدرة هذه الصفوة المقدسة من أهل البيت، الذين اختارهم الله لمواصلة مهمة حمل الرسالة وتبليغها بعد رسول الله، أن يحملوا مثل هذه القدرة ومثل هذه العلوم، كما أؤمن بأن تحلّيهم بهذه القوى والعلوم لا يتنافى أصلاً مع نظرة الإسلام إلى الإنسان والنواميس الطبيعية وسنن الكون. ولكن هذه القوى والعلوم ليست هي «سر الإمام». فمثل هذه القوى والعلوم أوضح دليل على الإمامة وعلى صدق دعوى الإمام. لماذا يكتم الإمام هذه الأمور ويوصي أصحابه بكتمانها في روايات كثيرة، تضافرت حتى أصبحت الكتب الحديثية الشيعية تتضمن باباً يحمل عنوان: «**باب الكتمان**»[1]؟ لا بدّ أن

(1) رجال الكشي، ص380، ط. مصطفوي.

يكون هذا السر مما لو شاع لشكل خطراً كبيراً على الإمام وأصحابه، وهذا شيء غير الغيبيات والخوارق.

هل السرّ هو معارف أهل البيت؟ هل هو رؤية مدرسة أهل البيت للإسلام وفقهها وأحكامها؟ لا ننكر أن معارف مدرسة أهل البيت كانت تنشر في عصر الإضطهاد الأموي والعباسي وفق منهج الحكمة والتدبير، لكي لا يخوض فيها كلّ من هبّ ودبّ. ولكن هذه المعارف لا يمكن أن تكون هي سرّ الإمام. فمع كل ما أحاط بهذه المعارف من اختصاص، كانت تدرس في مئات الحوزات الفقهية والحديثية في عدد من كبريات مدن الصقع الإسلامي آنذاك، كان الشيعة يتناقلون هذه المعارف ويشرحونها ويتداولونها. بعبارة أخرى كانت هذه المعارف خاصة لا سرية.

واختصاصها يعني أن رواجها كان محدوداً بالدائرة الشيعية، لكنها كانت تصل إلى غير الشيعة أيضاً في ظروف خاصة. لم تكن أبداً محدودة بأفراد معدودين من أصحاب الأئمة وخافية على غيرهم.

الحق أن الأسرار هي ما يتعلق بالمعلومات المرتبطة بالجهاز التنظيمي للإمام.. بالجهاز الذي يخوض معتركاً سياسياً باتجاه هدف ثوري.. بالتكتيك الذي ينتهجه الجهاز.. بالعمليات التي ينفذها.. بأسماء ومهام أعضاء الجهاز.. بمصادر التمويل.. بالأخبار والتقارير المتعلّقة بالأحداث الهامة.. هذه وأمثالها من الأسرار التي لا يجوز أن يطلّع عليها سوى القائد والكوادر المسؤولة. ربما تحين الظروف المناسبة عاجلاً أم آجلاً لإعلان هذه الأسرار وكشفها، ولكن قبل أن تحين تلك الظروف لا يمكن أن يطلع على هذه الأسرار سوى من يرتبط عمله مباشرة بها، وهم «**مستودع السر**». وكل تسريب لهذه المعلومات إلى أوساط الشيعة فإنه يفتح ثغرة تسرّبها إلى الأعداء، وهو خطأ كبير لا يغتفر، خطأ قد يؤدي إلى انهدام الجهود والأعمال والمجموعة المنتظمة. ومن هنا نفهم ما يعنيه الإمام عليه السلام إذ يقول: «**ليس الناصب لنا حرباً بأعظم مؤنة علينا من المذيع علينا سرّنا. فمن أذاع سرّنا إلى غير أهله لم يفارق الدنيا حتى يعضه السلاح**»[1].

(1) رجال الكشي، ص380، ط. مصطفوي.

الباب والوكيل:

في الإرتباطات السرية بين الإمام عليه السلام و الشيعة قد يتطلب الأمر إيصال بعض المعلومات إلى الشيعة عن طريق «واسطة»، وهذا تدبير معقول وطبيعي. العيون المتلصصة على كشف ارتباطات الإمام عليه السلام تترصّد التقاءاته بأتباعه في موسم الحج في مكة والمدينة حين تؤمها القوافل من أقاصي العالم، وقد يؤدي رصد هذه اللقاءات إلى اكتشاف خيوط الجهاز المركزي لتنظيم الإمام، لذلك نرى أن الإمام عليه السلام كان يُبعد عنه بعض الأفراد بلهجة لينة أحياناً، ومعاتبة تارة أخرى. يقول لسفيان الثوري مثلاً: «**أنت رجلٌ مطلوب وللسلطان علينا عيون فاخرج عنا غير مطرود**»[1].

ويترحّم الإمام عليه السلام على شخص صادفه في الطريق وأعرض بوجهه عنه، ويذم شخصاً آخر رآه في ظروف مشابهة فسلّم عليه باحترام وإجلال[2].

مثل هذه الظروف تستلزم وجود فرد يكون واسطة بين الإمام عليه السلام وبين من يحتاج إلى معلومات تصل إليه من الإمام، وهذا الواسطة هو «الباب». ويجب أن يكون من أخلص أتباع الإمام، وأقربهم إليه، وأغناهم بالمعلومات والخطط. يجب أن يكون مثل «نحلة» إذا عرفت الحشرات المضّرة ما تحمله من عسل قطّعتها وأغارت على شهدها[3]. وليس صدفة أن نرى تعرّض هؤلاء «الأبواب» غالباً للمطاردة وأقسى ألوان البطش والتنكيل.

إن يحيى بن أم الطويل «باب» الإمام السجاد عليه السلام يُقتل بشكل شنيع[4]. وجابر بن يزيد الجعفي باب الإمام الباقر عليه السلام يتظاهر بالجنون ويشيع عنه ذلك فينجّيه من القتل الذي صدر الأمر به من الخليفة قبل أيام من اشتهار جنونه. ومحمد بن سنان، باب الإمام الصادق عليه السلام يتعرّض لطرد ظاهري من الإمام رغم أن الإمام أبدى رضاه عنه في مواضع أخرى وأثنى عليه، وما ذلك إلاّ لتعرض محمد بن سنان لمثل هذه

(1) مناقب ابن شهر آشوب، ج4، ص248.

(2) الكافي، ج2، ص219.

(3) هذا التعبير مقتبس من أحد نصوص الإمام عليه السلام.

(4) قطعت رجله وهو حي ثم قتل. للتعرف على هذه الشخصية الكبيرة راجع: رجال الكشي وسائر كتب الرجال.

الأخطار. كما أن إعلان الإمام براءته من راوٍ معروف مشهور حظي بإعلان رضا الإمام عليه السلام مراراً يعود على الأقوى إلى تكتيك تنظيمي.

مثل هذا المصير يواجهه «الوكيل» أيضاً. مسؤول جمع الأموال المرتبطة بالإمام وتوزيعها، يملك أيضاً كثيراً من الأسرار وأقلّها أسماء الدافعين والقابضين، وليست هذه المعلومات بالتي يستهين بها أعداء الإمام، وأفضل دليل على ذلك مصير المعلّى بن خنيس وكيل الإمام الصادق عليه السلام في المدينة، وتعبيرات الإمام القائمة على أساس التقية بشأن المفضّل بن عمر وكيل الإمام في الكوفة.

هذه العناوين الثلاثة (الباب، الوكيل، صاحب السر) التي نجد مصاديقها في وجوه بارزة من رجال الشيعة تلقي ظلالاً على واقع الشيعة وارتباطهم بالإمام والحركة التنظيمية الشيعية.

يمكننا بهذه النظرة أن نفهم الشيعة بأنهم مجموعة من العناصر المنسجمة الهادفة النشطة المتمركزة حول محور مقدس يشعّ بتعاليمه وأوامره على القاعدة، والقاعدة ترتبط به وتنقل إليه المعلومات وتضبط مشاعرنا وتسيطر على عواطفها بتوصياته الحكيمة، وتلتزم التزاماً دينياً بأساليب العمل السرّي، مثل حفظ الأسرار، وقلّة الكلام، والابتعاد عن الأضواء والتعاون الجماعي والزهد الثوري.

أسئلة حول الدرس

1 ـ كيف بين الإمام الصادق عليه السلام اجتماع الحاكمية السياسية مع الحاكمية الدينية للولي؟

2 ـ ما المقصود بالتنظيم الإيديولوجي السري الذي عمل الإمام الصادق عليه السلام على بنائه؟

3 ـ عبر باختصار عن مراحل تشكل الشيعة في القرنين الهجريين الأول والثاني؟

20

الإمام موسى بن جعفر عليه السلام

استمر الإمام موسى بن جعفر عليه السلام يعمل على نفس محاور العمل والتخطيط الذي اعتمده الإمام الصادق عليه السلام في مواجهته للمجتمع.

المحور الأول: الإستمرار المتصاعد في التخطيط الفكري والتوعية العقائدية، ومعالجة الإتجاهات العقائدية المنحرفة، والنزعات الشعوبية والعنصرية والنحل الدينية.

وكانت من أخطر تلك الدعوات المحمومة هي الدعوة إلى الأفكار الإلحادية والتي أخذت تنشط وتبث سمومها في نفوس الناشئة الإسلامية وكان موقف الإمام موسى عليه السلام من هذه الدعوى موقف المتصدي والناقد لها بالأدلة العلمية الرصينة وتبيان تهافتها وبعدها عن منطق الواقع، حتى اعترف قسم كبير من حملة تلك المبادئ بخطئهم وفساد اتجاههم وقد لمعت بسبب ذلك حركة الإمام عليه السلام وذاعت مقدرتها العلمية، حتى دان بها قسم كبير من المسلمين وقد ثقل ذلك الأمر على المسؤولين فتصدوا لهم بالإضطهاد والتنكيل ومنعوهم من الكلام في مجالات العقيدة مما اضطر الإمام موسى عليه السلام أن يبعث إلى هشام (وهو أحد أصحابه) أن يكف عن الكلام نظراً لخطورة الموقف فكف هشام عن ذلك حتى مات المهدي[1].

ولقد التف بالإمام أثناء إقامته في يثرب جمع غفير من كبار العلماء ورواة الحديث ممن تتلمذوا في جامعة أبيه الكبرى، وقد زود الفقه الإسلامي بطاقات كبيرة من آرائه الحصيفة، وتنسب له مجموعة كبيرة من الأحكام الإسلامية، وقد دونت في موسوعات الحديث والفقه، وكان العلماء والرواة لا يفارقونه ولا يفترقون عنه يسجلون أحاديثه وفتاواه، فقد روى السيد ابن طاووس أن أصحاب الإمام وخواصه كانوا يحضرون

---

(1) رجال الكاشي، ص172.

مجلسه ومعهم في أكمامهم ألواح آبنوس وأمبال فإذا نطق بكلمة أو أفتى في نازلة بادروا إلى تسجيل ذلك[1]، وقد روى عنه هؤلاء العلماء جميع أنواع العلوم على اختلافها وتباعد أطرافها، وقد عمت جهوده العلمية جميع المراكز الإسلامية، وأصبح عطاؤه العلمي يتناقله العلماء جيلاً بعد جيل.

المحور الثاني: الإشراف المباشر على قواعده الشعبية ومواليه والتنسيق معها في اتخاذ المواقف السلبية تجاه الحكم لإضعافه سياسياً ومقاطعته وحرمة الإتصال به، وعدم الترافع إلى مجالس قضائه تمهيداً لإسقاطه وإزالة وجوده سياسياً.

ومما شجع الإمام على هذا الموقف الصارم ذلك التحول الواضح من التوسع والإنتشار لقواعده الشعبية، والتي أخذت تتعاطف مع حركة الإمام عليه السلام ونشاطاته السلبية من الحكم العباسي المنحرف ودعوته في تحريم التعاون مع الحكم في أي مجال من مجالاتها، وقد ظهر هذا الموقف في حواره مع أحد أصحابه (صفوان) فقد قال له الإمام عليه السلام:

«يا صفوان، كل شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً.

ـ جعلت فداك أي شيء؟.

ـ كراؤك جمالك من هذا الطاغية ـ يعني هارون ـ .

ـ والله ما أكريته أشراً، ولا بطراً، ولا للصيد ولا للهو ولكن أكريته لهذا الطريق ـ يعني طريق مكة ـ ولا أتولاه بنفسي، ولكن أبعث معه غلماني.

ـ فقال له الإمام: يا صفوان، أيقع كراك عليهم؟

ـ نعم جعلت فداك.

ـ أتحب بقاءهم حتى يخرج كراك؟

ـ نعم.

ـ فقال عليه السلام: من أحب بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم كان وارداً للنار».

واستمر الإمام عليه السلام يعرب عن نقمته وسخطه الشديدين على حكومة هارون،

(1) الأنوار البهية، ص91.

ودعوته إلى حرمة التعاون معهم بأي لون كان، وقد منع عليه السلام الركون إليهم مستشهداً بقوله: **﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾** وقد حرّم على المسلمين الميل وضرورة مقاطعتهم حتى لو كان ذلك مستنداً إلى بعض المصالح الشخصية وحذر أصحابه من الدخول في سلك حكومة هارون أو القبول لأي وظيفة من وظائف الدولة. فقال عليه السلام لزياد بن أبي سلمة: «**يا زياد، لإنْ أسقط من شاهق فأتقطع قطعةً قطعة أحب إليّ من أن أتولَ لهم عملاً أو أطأ بساط رجل منهم**»[1].

وقد استثنى الإمام عليه السلام علي بن يقطين أحد أصحابه الكبار أن يتولى منصب الوزارة أيام هارون ومن قبلها منصب الأزمة أيام المهدي[2] وقد تقدم إلى الإمام موسى عليه السلام يطلب منه الإذن في ترك منصبه والإستقالة منه فنهاه عليه السلام عن ذلك وقال له: «**لا تفعل فإن لنا بك أنساً، ولإخوانك بك عزاً، وعسى الله أن يجبر بك كسيراً أو يكسر بك ثائرة المخالفين عن أوليائه.**

يا علي كفارة أعمالكم الإحسان إلى إخوانكم، إضمن لي واحدة أضمن لك ثلاثاً. أضمن لي أن لا تلقى أحداً من أوليائنا إلا قضيت حاجته وأكرمته وأضمن لك أن لا يظلمك سقف سجن أبداً، ولا ينالك حد السيف أبداً ولا يدخل الفقر أبداً، يا علي من سر مؤمناً فبالله بدأ، وبالنبي ثنى وبنا ثلث»[3]..

المحور الثالث: الموقف العلني والصريح في احتجاجه على الحاكم بأنه أحق بالخلافة من غيره وأولى بها من جميع المسلمين.

وقد جرى احتجاجه عليه السلام مع هارون الرشيد وهو في مرقد النبي صلى الله عليه وآله أمام حشد غفير من الأشراف وقادة الجيش وكبار الموظفين في الدولة، فقد أقبل هارون بوجهه على الضريح المقدس وسلم بقوله: «السلام عليك يا ابن العم» معتزاً ومفتخراً على غيره بصلته من النبي صلى الله عليه وآله وأنه إنما نال الخلافة لقربه من الرسول صلى الله عليه وآله وكان الإمام ـ آنذاك ـ حاضراً فسلم على النبي صلى الله عليه وآله قائلاً: «**السلام عليك يا أبتِ**».

ففقد الرشيد صوابه واستولت عليه موجات من الإستياء، حيث قد سبقه الإمام إلى

---

(1) المكاسب للشيخ الأنصاري باب الولاية من قبل الجائر. (3) المكاسب للأنصاري.
(2) الجهشياري.

ذلك المجد والفخر، فقال له بنبرات تقطر غضباً وحقداً: «لم قلت إنك أقرب إلى رسول الله ﷺ منا؟».

فأجابه عليه السلام برد مفحم قائلاً: «**لو بعث رسول الله ﷺ حياً وخطب منك كريمتك هل كنت تجيبه إلى ذلك**»؟

فقال هارون: سبحان الله!! وكنت أفتخر بذلك على العرب والعجم.

فانبرى الإمام عليه السلام قائلاً: «**لكنه لا يخطب مني ولا أزوجه لأنه والدنا لا والدكم فلذلك نحن أقرب إليه منكم**»[1].

وأضطر هارون بعدما أعياه الدليل إلى منطق العجز، فأمر باعتقال الإمام عليه السلام وزجه في السجن[2].

وقد كان موقف الإمام موسى عليه السلام من هارون صريحاً وواضحاً فقد دخل عليه في بعض قصوره المشيدة الجميلة التي لم يُرَ مثلها في بغداد ولا في غيرها، فانبرى إليه هارون وقد أسكرته نشوة الحكم قائلاً: ما هذه الدار؟

فأجابه الإمام غير مكترث بسلطانه وجبروته قائلاً له: «**هذه دار الفاسقين، قال الله تعالى ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً﴾**».

ومشت الرعدة في جسم هارون واستولت عليه موجة من الإستياء فقال للإمام: دار من هي؟

ـ هي لشيعتنا فترة ولغيرهم فتنة.

ـ ما بال صاحب الدار لا يأخذها.

ـ أخذت منه عامرة ولا يأخذها إلا معمورة.

ـ أين شيعتك؟

ـ فتلا الإمام عليه السلام قوله تعالى: **﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة﴾**.

---

(1) أخبار الدول، ص113.

(2) تذكرة الخواص، ص359.

فثار هارون غاضباً «أنحن كفار»؟.

ـ لا ولكن كما قال تعالى: ﴿**الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار**﴾.

وهكذا فقد يرى الإمام أن هارون غاصب لمنصب الخلافة ومختلس للسلطة والحكم، مما أثار غضب هارون عليه وأغلظ في كلامه على الإمام عليه السلام[1] بعد أن سمعه يتحداه بموقف لا لين فيه.

وفي موقف آخر، حينما سأله هارون عن فدك وحدودها لكي يرجعها إليه، فأبى عليه السلام أن يأخذها إلا بحدودها، فقال: ما حدودها؟

فقال عليه السلام: «**إن حددتها لم تَرُدَّها**».

فأصر هارون عليه أن يبينها له، ولم يجد الإمام عليه السلام بداً من إجابته فقال له: «**أما الحد الأول فعدن**» فلما سمع الرشيد ذلك تغير وجهه، واستمر الإمام عليه السلام في بيانه قائلاً: «**والحد الثاني سمرقند**» فأربد وجه هارون، واستولت عليه موجة من الغضب الهائل، ولكن الإمام عليه السلام استمر قائلاً: «**والحد الثالث إفريقيا**» فاسود وجه هارون وقال بنبرات تقطر غيظاً: «هيه» وانطلق الإمام يبين الحد الأخير قائلاً: «**والحد الرابع فسيف البحر مما يلي الجزر وأرمينية**».

فثار الرشيد، ولم يملك أعصابه قائلاً:

ـ لم يبق لنا شيء.

ـ قد علمت أنك لا تردها.

المحور الرابع: تحريك الضمير الثوري للأمة عن طريق تشجيعهم ومباركتهم للثورات والإنتفاضات التي مارسها علويون ثائرون حفاظاً على الضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية من الإنهيار أمام الحكام المنحرفين، وكان الأئمة عليهم السلام يسندون المخلصين منهم.

وعندما عزم الحسين بن علي بن الحسن ـ صاحب واقعة فخ الشهيرة ـ أن يثور على الأوضاع الفاسدة التي وصلت إلى حد الإذلال والإضطهاد الشديد لكل من هو شيعي

(1) المناقب، ج2، ص381.

وعلوي يوالي الإمام عليه السلام، أقبل إلى الإمام موسى عليه السلام يستشيره في ثورته وعرض عليه فكرة الثورة، فالتفت إليه الإمام عليه السلام قائلاً: «**إنك مقتول فأجد الضراب، فإن القوم فساق يظهرون إيماناً، ويضمرون نفاقاً وشركاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون وعند الله أحتسبكم من عصبة**».

ولما سمع الإمام موسى عليه السلام بمقتل الحسين (رض) بكاه وابنه بهذه الكلمات: «**إنا لله وإنا إليه راجعون، مضى والله مسلماً صالحاً صواماً قواماً، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، ما كان في أهل بيته مثله**»[1].

ولما استأصل موسى الهادي شأفة العلويين أخذ يتوعد الأحياء منهم بالقتل والدمار، وقد ذكر الإمام موسى عليه السلام فقال: «**والله ما خرج حسين إلا عن أمره، ولا اتبع إلا محبته لأنه صاحب الوصية في أهل هذا البيت**»[2].

فأسرع إلى الإمام أصحابه مسرعين فزعين، يشيرون عليه أن يختفي ليسلم من شر هذا الطاغية، فتبسم عليه السلام وتمثل بقول الشاعر كعب بن مالك:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها وليغلبن مغالب الغلاب

عمل الإمام عليه السلام ومجالاته:

كان عمل الإمام عليه السلام يجري في مجالين أحدهما سري وثانيهما علني:

العمل السري: مقاومة الإمام عليه السلام للأوضاع سلكت طريقين أولاهما: الطريقة السلبية ـ التي تحدثنا عنها ـ وقد تمثلت في أمره لقواعده ومواليه والمرتبطين به بمقاطعة الحكم، وتجنب أي معاملة معهم على أي مستوى من المستويات (كما في حديثه مع صفوان المار الذكر).

وكانت بعض التنظيمات الشيعية تعتمد على نظام الخلايا، وكانت هناك سجلات خاصة سرية بأسماء الشيعة عند بعض أصحاب الأئمة عليهم السلام[3] وقد جهدت السلطات الحاكمة آنذاك للعثور عليها فلم تتمكن.

(1) المقاتل، ص453.
(2) بحار الأنوار.
(3) رجال النجاشي.

وعلى أي حال فإن تلك الخلايا هي التي عملت على نشر التشيع في جميع الأقاليم الإسلامية بعيداً عن أعين السلطة ورقابتها حتى أصبح قوة كبيرة وصار من العسير إرغام معتنقيه وإخضاعهم إلى رغبات السلطة، مما سوف تضطر السلطات ـ فيما بعد كما سنرى في عهد الإمام الرضا عليه السلام ـ كيف أن المأمون لجأ إلى الإمام الرضا وأولاه ولاية العهد[1].

وبهذا الأسلوب من العمل السري يؤكد الإمام عليه السلام حقه في الحكم ويعمل على صيانة أصحابه وقواعده من الإندماج في الوضع الفاسد والإشراف عليهم والتخطيط لسلوكهم وتنمية وعيهم وإمدادهم بكل أساليب الصمود والإرتفاع بهم إلى مستوى الطليعة الواعية المتفهمة لدورها ورسالتها.

وتتمثل الطريقة السرية في عمله بجانبين:

❖ تأييده للحركات الثورية، وإسناده للمخلصين منهم والتي قادها ثوار من أهل بيته أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، كما رأينا في موقفه عليه السلام من وقعة ـ فخ ـ التي قادها الحسين بن علي بن الحسن الذي يرجع نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

فهذه الثورات كانت ترتبط بشكل من أشكال الإرتباط بإذن الإمام عليه السلام وموافقته، فهي واجهات ظاهرة لعملهم ترتبط بهم، وتعمل من أجل انتزاع الأمر للرضا من آل محمد.

❖ ممارسة الإمام للقيادة والإشراف المباشر على شؤون شيعته وتوجيههم توجيهاً عقائدياً وفكرياً وسلوكياً خاصاً ليصنع منهم قاعدة صلبة لحركته تمتد داخل الأمة لتحقيق أهداف الإمام وتصحيح الإنحرافات التي تقع داخل الأمة.

ومن هنا كان الإمام عليه السلام ومن قبله آباؤه يتعرضون للملاحقة والمراقبة والإضطهاد.

ونظراً للمحن الشاقة والخطوب العسيرة التي واجهتها الشيعة في تلك الظروف السود، فقد كانوا لا يجدون سبيلاً للتعبير عن آلامهم وبث شكواهم حتى التجأ البعض منهم إلى أن يكتب على الجدران، ليطلع على ذلك الجمهور من الناس[2] ويعرّفوا مدى ما لحقهم من الضيم والإضطهاد.

---

(1) حياة الإمام موسى عليه السلام، باقر شريف القرشي، ج2، ص188.

(2) حياة الإمام موسى عليه السلام، القرشي، ص190.

وكانت بعض الشعارات المكتوبة تصور جانباً من احتجاج العلويين في أحقيتهم للخلافة ورعاية شؤون المسلمين، فهم أولى الناس بالنبي ﷺ وأنهم خلفاؤه على أمته[1].

العمل العلني: وقد أتاح العمل العلني للإمام عليه السلام أن يباشر علاج جهل الأمة بالإسلام عقيدة وأحكاماً، ورد الشبهات الإلحادية التي أخذت تبثها الحركات التي تولدت نتيجة لانفتاح العالم الإسلامي آنذاك على التيارات الأجنبية والغربية[2] وهي من المشاكل الكبرى التي كانت تواجه الإمام عليه السلام وتباعد بينه وبين هدفه ولهذا بادر إلى مقاومة هذه العقائد وإبطال نظرياتها المخالفة للإسلام.

وفي مجال آخر كان الإمام يعقد المناظرات والإحتجاجات العلنية مع أئمة المذاهب الإسلامية وقادتها للتدليل على فكرة الإمامة وأطروحتها وكانت تلك المناظرات تعقد في الأماكن العامة، وكان يقوم بتلك المناظرات كل من هشام بن الحكم وهشام بن سالم، ومؤمن الطاق مما أدى إلى انتشار الفكر الشيعي وذيوع أفكاره بين المسلمين بفضل تلك الحجج القوية والبراهين الحاسمة، التي كانت تقوم على المنطق والبحث الموضوعي المجرد، وقد نعتهم (كرادي فوا) بأنهم أصحاب الفكر الحر[3].

ولا شك أن عمله عليه السلام في هذين المجالين الآنفين كان يقربه من الهدف بما يفرضه من إمامته العلمية وبما يهيئه من سلطان لمبادئه وقوة لأفكاره وبما يشيعه في أوساط الأمة من مناخ ملائم لدعوته.

الوشاية بالإمام عليه السلام:

كانت بعض أخبار نشاط الإمام عليه السلام تتسرب عن طريق الواشين إلى هارون الرشيد، فيثير هذا حقده وغضبه، وقد أخبر مرة بأن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام تجبى له الأموال الطائلة من شتى أقطار العالم الإسلامي وتحمل إليه من المشرق والمغرب وأن له بيوت أموال[4] وقد أمر هارون بإلقاء القبض على الإمام وإيداعه السجن[5].

(1) الفصول المهمة، ص252.

(2) راجع هذه التيارات الإلحادية في كتاب حياة الإمام موسى عليه السلام، للقرشي، ص126، وما بعدها.

(3) الحضارة الإسلامية، ج1، ص127.

(4) عيون أخبار الرضا.

(5) الفصول المهمة، ص252.

وقد سعى يحيى البرمكي إلى هارون فأوغر صدره على الإمام عندما أخبره بأن الإمام عليه السلام يعمل على طلب الخلافة إلى نفسه وأنه كتب إلى قواعده في سائر الأقطار الإسلامية يدعوهم إلى نفسه ويحفزهم إلى الثورة ضد حكومته.

وعمل هارون من جانبه على سجن الإمام عليه السلام وعزله عن شيعته وقضى الإمام عليه السلام زمناً طويلاً (ربما ستة عشر سنة) في السجون حتى لقي ربه فيها وقد عانى أمر الآلام وأدهى العذاب وقد سئم الإمام من السجن وضاق صدره من طول المدة، وكان ينقل من حبس إلى حبس تراقبه الشرطة والعيون خوفاً من اتصال أحدٍ من شيعته به.

وقد مكث الإمام عليه السلام زمناً طويلاً في سجن هارون وقد هدّ السجن صحته وأذاب جسمه حتى أصبح حين يسجد لربه كالثوب المطروح على الأرض فيدخل عليه رسول الزعامة المنحرفة فيقول إن الخليفة يعتذر إليك ويأمر بإطلاق سراحك على أن تزوره وتعتذر إليه، أو تطلب رضاه، فيشمخ الإمام عليه السلام وهو يجيب بالنفي بكل صراحة ويتحمل مرارة الكأس لا لشيء إلا لكي لا يحقق للزعامة المنحرفة هدفها في أن يبارك الإمام عليه السلام خطها فتنعكس معالم التشويه[1].

وأرسل الإمام عليه السلام وهو في السجن رسالة إلى هارون يعرب فيها عن سخطه البالغ عليه، وهذا نصها: «**أنه لن ينقضي عني يوم من البلاء حتى ينقضي عنك يوم من الرخاء حتى نفنى جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء، وهناك يخسر المبطلون**»[2].

ولقد عانى الإمام عليه السلام من سجنه ألوان العذاب والتنكيل، فتكبيل بالقيود، وتضييق شديد، وأذى مرهق، وبعدما صب عليه الرشيد جميع النكبات الموجعة دسَّ إليه سماً فاتكاً، فقضى عليه ومضى لربه شهيداً سعيداً وكانت وفاته سنة 173 هجرية لخمس بقين من شهر رجب[3].

ويمكن تلخيص أسباب استشهاد الإمام موسى الكاظم عليه السلام بهذه النقاط:

أولاً: كان هارون يرى في وجود الإمام الكاظم عليه السلام منافساً قوياً في مسألة الخلافة، ويحس بالخطر الشديد من ناحيته.

---

(1) دائرة المعارف دور الأئمة، للصدر، ص٩٦.

(2) البداية والنهاية، ج١٠، ص١٨٣، وتاريخ بغداد.

(3) ابن خلكان، ج٢، ص١٧٣، وتاريخ بغداد.

ثانياً: التبليغ الذي يقوم به الإمام عليه السلام ضد النظام، وإصراره على توضيح القضايا للناس، وفضح مساوئ الحكام أمامهم، كلما سنحت فرصة لذلك، منتهى الأمر أنه عليه السلام كان يمارس التقية في هذا العمل.

و(التقية) هي: العمل لإسقاط الحاكم الظالم مع المراعاة قدر الإمكان أن لا يقع بيد الخصم ـ مالك القوة والسلطة ـ أي سند أو دليل يكون ذريعة للقضاء على المجاهدين قبل أن يؤدوا دورهم المرسوم. ولا تعني (التقية) بأي حال ترك العمل الجهادي، والنوم على فراش الأحلام الحريري.

ثالثاً: روح المقاومة العظيمة، والصمود العجيب الذي كان يتمتع به الإمام، ورفضه الإستجابة والخضوع لإرادة الخليفة الجائر، رغم تلك العروض المغرية التي كان يلوح بها له.

وهكذا رأى هارون أنه فشل بكل محاولاته في التأثير على شخصية الإمام، والقضاء على الروح الرسالية فيه، ووجد فيه خصماً لا يمكن أن يستسلم أو يلين أمامه. ولذلك فكر بأن الحل النهائي لهذه المشكلة هو قتل الإمام، مع علمه اليقيني بأن هذا العمل يعدّ جريمة عظمى، نتيجتها الحتمية هي سخط الله، وعقابه الشديد، ولكن السياسة الطاغوتية التي كان هارون يصرّ على اتباعها، فرضت عليه أن يسلك هذا الطريق للتخلص من حياة هذا الخصم العنيد مهما كانت النتائج.

أسئلة حول الدرس



1 ـ لماذا وافق الإمام الكاظم عليه السلام على مشاركة علي بن يقطين في حكومة الخليفة العباسي المهدي؟

2 ـ كيف تعاطى الإمام الكاظم عليه السلام مع الحركات المناوئة للنظام؟

3 ـ لماذا سجن هارون الإمام الكاظم عليه السلام وما هي قصة الوشاية بالإمام عليه السلام؟

21

الإمام الرضا عليه السلام وولاية العهد

ولما استشهد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام مسموماً بعد سنوات أمضاها في سجن هارون ساد جو من التوتر والضغط في جميع أرجاء السلطة العباسية وفي هذا الجو الضاغط، يذكر أحد أصحاب الإمام علي بن موسى عليه السلام قائلاً:

«في الوقت الذي كانت الدماء تقطر من سيف هارون كانت براعة الإمام المعصوم حيث استطاع أن يحفظ ويصون شجرة التشيع من خطر الأحداث الجارفة، ويمنع تفرق أصحاب والده عليه السلام ويحافظ على حماستهم وروحيتهم»، وتمكن من خلال سلوك طريق التقية أن يحافظ على حياته التي كانت محوراً وروحاً لوحدة وتجمّع الشيعة وكذلك استمرت المواجهات الأساسية والصلبة من قبل خط الإمامة رغم قوة ونفوذ الخلفاء العباسيين في تلك المرحلة التي نعم فيها النظام الحاكم بجو من الإستقرار والثبات النسبي، حيث كان الخليفة العباسي في تلك الفترة أقوى وأقدر من أسلافه، مع أن التاريخ لم يستطع أن يحدد لنا بشكل واضح حدود ومعالم تلك الفترة من العشر سنوات لحياة الإمام الرضا عليه السلام في زمان هارون وما بعده من الخمس سنوات التي وقعت فيها حروب ونزاعات داخلية بين خراسان وبغداد ضمن السلطنة العباسية.

لكن عند التأمل والتدبر في تلك الفترة ندرك أن الإمام الثامن عليه السلام قام في تلك الفترة بنفس المواجهة الناظرة إلى المدى البعيد، والتي انتهجها أهل البيت عليهم السلام في كل المراحل التي تلت حادثة عاشوراء ومضى للوصول إلى الأهداف نفسها. ولما فرغ المأمون في سنة ١٩٨هـ من حربه ضد أخيه الأمين واستولى على الخلافة من دون منازع، كان أول ما قام به وعمل عليه هو حل مشكلة العلويين وثورات التشيع، ولقد أخذ بعين الإعتبار تجارب أسلافه لتحقيق ذلك، وواقع هذه الحركة، والتي كانت تدل على

صلابة هذه الثورة يوماً بعد يوم، وعلى عجز وضعف الأنظمة الحاكمة عن اقتلاع جذورها أو حتى تحجيمها وإيقافها عن التكامل والنمو.

فالمأمون رأى أن قوة هارون وسطوته التي وصلت إلى حد أسر الإمام السابع وسجنه لتلك المدة الطويلة ومن ثم قتله بالسم، لم تُجدِ نفعاً ولم تمنع التحركات السياسية والعسكرية والإعلامية والفكرية لتيار التشيع. فكيف به إذا أراد أن ينتهج هذه الطريقة. وهو لم يكن يتمتع بما تمتع به أبوه. فهو، إضافة إلى الحروب الداخلية التي ابتلي بها بنو العباس وورث هو مخلفاتها وآثارها، كان يعاني من مشاكل كبرى تهدد السلطنة العباسية ومن دون شك فقد كان من اللازم عليه أن ينظر بجدية إلى خطر ثورة العلويين، ولعل المأمون في تقييمه لخطر الشيعة على نظامه كان ينظر ببصيرة. لذا فهناك ظن كبير بأن الفترة الفاضلة والتي تقدر بخمسة عشر سنة أي من بعد شهادة الإمام السابع حتى ذلك اليوم الذي جعلت فيه ولاية العهد للإمام الثامن عليه السلام، بالأخص فرصة الخمس سنوات التي سادت فيها الحروب الداخلية، كان تيار التشيع أكثر جهوزية واقتداراً لرفع راية الحكومة العلوية. ولقد تنبه المأمون إلى هذا الوضع الخطر وهبّ لمواجهته من خلال ما كان يراه مناسباً بعد تقييمه لتجارب المواجهات السابقة. فقام بدعوة الإمام الرضا عليه السلام إلى مدينة خراسان وعرض عليه عرضاً ملزماً بتسلم ولاية العهد حيث لم يسبق في كل المراحل السابقة للإمامة أن حدث مثل هذا الأمر، وسنتحدث عنه بشيء من الإختصار. حيث أن ولاية العهد التي سُلِّمت للإمام الثامن علي بن موسى الرضا عليه السلام والتي تعد تجربة تاريخية عظيمة كانت في حقيقة الأمر حرب سياسية خفية بحيث كان الإنتصار أو الهزيمة فيها يمكن أن يحدد مصير التشيع. والطرف المقابل في هذه الحرب كان المأمون الذي تسلّح بكل إمكاناته وقدراته.

فالمأمون بحنكته وتدبيره ودرايته للأمور التي لم يسبقه بها أحد من أقرانه فكر بأنه لو انتصر في هذه الحرب وتمكن من تحقيق مخططه إلى النهاية، لكان من المؤكد حقق الهدف الذي سعى وجهد الخلفاء الأمويون والعباسيون لتحقيقه من بعد شهادة علي بن أبي طالب عليه السلام ولم يتمكنوا من ذلك، أي أنه كان استطاع أن يقتلع شجرة التشيع من جذورها. فهذا هو الهدف، ولكان استطاع أن يقلع تلك الشوكة التي كانت دائماً في عين

الملوك الظالمين والطواغيت إلى الأبد. لكن الإمام الثامن علي بن موسى الرضا عليه السلام وبالتدبير الإلهي استطاع أن يتغلب على المأمون الذي مُني بهزيمة نكراء، مع أنه هو الذي جهز نفسه وأعدّ العدة لهذه الحرب السياسية. وهو لم يفشل في إضعاف التشيع أو القضاء عليه فحسب، بل أن السنة التي تسلم فيها الإمام ولاية العهد (201هـ) كانت واحدة من أعظم البركات التاريخية على التشيع، حتى أنها نفخت روحاً جديدة في نضال وكفاح العلويين. وهذا كله كان من بركات التدبير الإلهي للإمام الثامن عليه السلام وأسلوبه الحكيم.

ولقد كان للمأمون عدة أهداف أساسية من وراء دعوة الإمام إلى خراسان، أولها وأهمها تحويل ساحة المواجهات الثورية العنيفة للشيعة إلى ساحة التحرك السياسي الهادئ والذي لا يشكل خطراً. لأنه وكما ذكرت، فالشيعة لم يكونوا يعرفون التعب أو الملل في المواجهة ولم تكن ثورتهم لتقف عند حد. هذه المواجهات كان لها خاصيتين، الأولى: المظلومية، والثانية: القداسة، حيث كانتا تمثلان عنصر قوة يعتمد عليه الشيعة لإيصال الفكر الشيعي - الذي هو نفس شرح وبيان الإسلام من منظار أئمة أهل البيت عليهم السلام - إلى عقل وقلب جمهورهم، بحيث أن كل شخص لديه أدنى استعداد كان إما أن يؤمن بهذا الفكر أو أنه يميل إليه. وبهذا الشكل صارت دائرة التشيع تزداد سعةً وانتشاراً يوماً بعد يوم. ونفس المظلومية والقداسة اللتين كانتا الداعم لحركات النهوض والتحرر من ظلم الخلافة.

كان المأمون يريد أن يواجه هذا الإستتار الشيعي العميق والمؤثر دفعة واحدة، فأراد أن يحيّد الإمام من ساحة المواجهة الثورية وينقله إلى الميدان السياسي وأن يقضي بهذه الوسيلة على فعالية الثورة الشيعية والتي كانت تتكامل يوماً بعد يوم بفعل العمل السري والمركّز. وبهذه الطريقة يكون المأمون قد انتزع من الشيعة العلويين الخاصيتين المظلومية، والقداسة، اللتان تشكلان عامل نفوذ قوي لهم في الساحة. وذلك لأن قائدهم وهو الشخص العالي المقام عندهم قد أصبح في صفوف جهاز الخلافة ولي العهد للملك المطلق العنان في التصرف في أمور البلاد، إذن فهو لم يعد لا مظلوماً ولا مقدساً.

وهذا التكتيك الذي قام به المأمون كان يأمل بواسطته أن يحوّل الفكر الشيعي إلى فكر مشابه لبقية الأفكار والعقائد والتيارات التي لها مؤيدون في المجتمع. فيخفف من وهجه وإشراقه ويخرجه من كونه فكراً معارضاً للنظام الحاكم وذلك لأن غالباً ما يكون مرفوضاً من الجهاز الحاكم ومخالفاً له يكون مرغوباً فيه عند الناس المستضعفين ومورد اهتمامهم.

هذا هو **الهدف الأول** من وراء دعوة الإمام إلى خراسان ومن ثم تنصيبه لولاية العهد.

أما **الهدف الثاني** فهو تخطئة الإعتقاد الشيعي القائل بأن الخلافة قد غُصبت من قبل الخلفاء الأمويين والعباسيين وإعطاء الشرعية لهذه الحكومات السابقة. فالمأمون كان يرمي بتعيين الإمام ولياً للعهد إلى أن يثبت وبالقوة لكل الشيعة أن ادعاءهم بغصب الخلافة وعدم شرعية الخلفاء الحاكمين (هذا الإدعاء الذي كان دائماً يعتبر من ضمن الأصول العقائدية للشيعة) بأنه كلام لا أساس له. وأنه قد نشأ نتيجة الضعف والإحساس بالإستحقار. فلو كانت الحكومات السابقة غير شرعية ومتسلطة فبالتالي خلافة المأمون الذي هو خليفة لأولئك السابقين غير شرعية وغاصبة أيضاً. فكيف يدخل علي بن موسى الرضا عليه السلام في صفوف هذا النظام الحاكم ويقبل بخلافة المأمون؟ فهذا يعني أنها قانونية وشرعية ويترتب على هذا أن تكون خلافة الحكام السابقين شرعية أيضاً وليست غاصبة.

وهذا الأمر ينقض كل ادعاءات الشيعة، وبذلك لا يكون المأمون فقط قد حصل على الإعتراف بشرعية حكومته وحكومات أسلافه. بل يكون قد قضى على أحد الأركان العقائدية للتشيع والذي يعتبر أساساً أن أصل الحكومات السابقة هو الظلم وغصب الخلافة، إضافة إلى نقض الفكرة السائدة والمعروفة عن زهد وعدم اهتمام الأئمة بزخارف الدنيا ومقاماتها. ويُظهر بأن الأئمة فقط في الظروف التي لا تصل فيها أيديهم إلى الدنيا - أي أنهم عندما يمنعون عنها - يلجئون إلى الزهد - بينما عندما تفتح أمامهم أبواب جنة الدنيا يسرعون نحوها. وحالهم في هذا حال الآخرين. فهم يتنعمون بالدنيا إن أقبلت عليهم.

والهدف الثالث للمأمون هو أن يجعل الإمام المعصوم الذي كان دوماً ركيزة المعارضة والمواجهة في جهازه الحاكم وكذلك بقية القادة والأبطال العلويين الذين يتبعون الإمام فيدخلون تحت سيطرة المأمون. وهذا النجاح لم يتمكن أحد على الإطلاق أن يحققه لا من العباسيين ولا من الأمويين.

والهدف الرابع هو أن يجعل الإمام الذي يمتلك العنصر الشعبي ويعد قبلة الآمال ومرجع الناس في كل أسئلتها من ضمن صفوف أجهزة الحكومة. وبذلك يفقد شيئاً فشيئاً الطابع الشعبي ويبني حاجزاً بينه وبين الناس حتى يضعف بالتالي الرابط العاطفي بينه وبين الطبقة الشعبية.

الهدف الخامس للمأمون كان أن يكسب سمعة معنوية وصيتاً بالوقار والتقوى. فمن الطبيعي عندها أن يمدح الجميع ذلك الحاكم الذي اختار لولاية عهده ابن بنت النبي ﷺ، وهو شخص مقدس ذو مقام معنوي. وفي المقابل يحرم أخوته وأبنائه من هذا المنصب. والمعروف دائماً أن التقرب من الصالحين والمتدينين من قبل طلاب الدنيا يُذهب ماء وجه الصالحين ويزيد من ماء وجه أهل الدنيا.

الهدف السادس كان باعتقاد المأمون أن الإمام بتسلمه لولاية العهد سيتحول إلى حامي ومرشد للنظام. فمن البديهي بأن شخصاً كالإمام بما لديه من تقوى وعلم ومقام لا نظير لها فهو في أعين الجميع من أبناء النبي ﷺ، وإذا قام بدور شرح وتبرير ما يقوم به جهاز الحكومة، سوف يأمن النظام من أي صوت مخالف، وبذلك أيضاً لا يستطيع أحد أن ينكر شرعية تصرفات هذا النظام. فهذا الأمر كان عند المأمون حصانة ووقاية لحكمه. فمن خلال الإمام يستطيع أن يخفي كل أخطاء وعيوب نظامه وحكومته ولم يكن ليخطر ببال أحد سوى المأمون. هذا الدهاء السياسي والحنكة والمكر. حتى أن الأصدقاء والمقربين من المأمون لم يكن لديهم علم بأبعاد وجوانب هذه السياسة. ويظهر هذا الأمر من خلال بعض الوثائق التاريخية. حتى أن فضل بن سهل الوزير والقائد والذي هو من أقرب الأشخاص لجهاز الحكومة لم يكن يعلم حقيقة خلفية هذه السياسة. وذلك حتى لا تتعرض أهدافه في هذه الحركة الإلتفافية إلى أي نكسة.

وحقاً يجب القول أن سياسة المأمون كانت تتمتع بتجربة وعمق لا نظير له، لكن

الطرف الآخر الذي كان في ساحة الصراع مع المأمون هو الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام. وهو نفسه الذي كان يحول أعمال وخطط المأمون الذكية والممزوجة بالشيطنة إلى أعمال بدون فائدة ولا تأثير لها وإلى حركات صبيانية. بينما المأمون الذي بذل كل جهوده وتجمل المصاعب من أجل مشروعه هذا، ليس أنه فقط لم يحقق أي شيء من الأهداف التي كان يسعى لها، بل أن سياسته التي اتبعها انقلبت عليه. فالسهم الذي كان يريد أن يرمي به مقام ومكانة وطروحات الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أصاب المأمون بحيث أنه وبعد مضي فترة قصيرة أصبح مضطراً إلى أن يعتبر كل تدابيره وإجراءاته الماضية هباءً منثوراً كأنّ شيئاً لم يكن منها.

وفي نهاية المطاف عاد المأمون ليختار نفس الأسلوب الذي سلكه أسلافه من قبله وهو قتل الإمام. فالمأمون الذي قد سعى جاهداً لتكون صورته حسنة ومقدسة وليتصف بأنه خليفة طاهر عاقل، سقط في النهاية في الهوّة التي قد سقط فيها كل الخلفاء السابقين له. أي انجرّ إلى الفساد والفحشاء ووسمت حياته بالظلم والقهر. ويمكن مشاهدة نماذج من حياة المأمون خلال 15 عاماً بعد حادثة ولاية العهد تكشف ستار الخداع والتظاهر عند المأمون. فكان لديه قاضٍ للقضاة، فاسق وفاجر مثل يحيى بن أكثم. وكان المأمون يحضر المغنيات أيضاً إلى قصره. وكان لديه مغنٍ خاص يدعى إبراهيم بن مهدي. وعاش مرفهاً مسرفاً حتى أن ستائر دار خلافته في بغداد كانت من الدرّ.

بعد هذا العرض لسياسة المأمون، نتعرض إلى السياسة والإجراءات التي قام بها الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام لمواجهة هذا الواقع.. فعندما دعي الإمام لينتقل من المدينة إلى خراسان من قبل المأمون نشر في المدينة جواً يدل على انزعاجه وتضايقه من هذه الخطوة بحيث أن كل شخص كان حول الإمام تيقن أن المأمون يضمر سوءاً للإمام من خلال إبعاده عن موطنه. ولقد أعرب الإمام للجميع عن سوء ما يرمي إليه المأمون بكل الأساليب الممكنة. فقام بذلك عند توديع حرم النبي صلى الله عليه وآله وعند توديع عائلته وأثناء خروجه من المدينة وبكلامه وسلوكه ودعائه وبكائه، كان واضحاً للجميع أن هذا السفر هو رحلته الأخيرة ونهاية حياته عليه السلام. وبناءً على ما كان يتصوره المأمون في أن

يُنظر إليه نظرة حسنة، بينما يُنظر إلى الإمام الذي قبل بطلب المأمون نظرة سيئة، نرى أن قلوب الجميع لرد فعل الإمام الذي قام به في المدينة زادت حقداً على المأمون من اللحظة الأولى لسفر الإمام. فإمامهم العزيز عليه السلام قد أبعده المأمون عنهم بهذا الشكل الظالم ووجهه إلى مقتله. هذه الخطوة الأولى للإمام.

وعندما طرحت ولاية العهد على الإمام رفض الإمام هذا الطرح بشدة. ولقد انتشر في كل مكان رفض الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام لولاية العهد من قبل الخلافة، كما أن العاملين في الحكومة الذين لم يكونوا على علم بدقائق سياسة وتدابير المأمون قاموا وعن غباء بنشر رفض الإمام عليه السلام في كل مكان. حتى أن الفضل بن سهل صرح في جمع من العاملين في الحكومة أنه لم يرَ على الإطلاق خلافة بهذا القدر من المذلة، فالمأمون الذي هو أمير المؤمنين يقدم الخلافة أو ولاية العهد لعلي بن موسى الرضا وهو يرفض ذلك.

ولقد سعى الإمام عليه السلام في كل فرصة تتاح له أن يبيّن أنه مجبر على تسلم هذا المنصب (ولاية العهد) ودائماً كان يذكر أنه هُدد بالقتل حتى يقبل بولاية العهد. وكان من الطبيعي جداً أن يصير هذا الحديث الذي هو من أعجب الظواهر السياسية متناقلاً على الألسن، ومن مدينة إلى مدينة. فكل العالم الإسلامي في ذلك اليوم وفيما بعد فهم أن شخصاً مثل المأمون حارب أخاه الأمين حتى قتله لأجل أن يبعده عن ولاية العهد ووصل به الأمر من شدة غضبه على أخيه أن قام برفع رأسه على الرمح وطاف به من مدينة إلى مدينة. مثل هكذا شخص كان من الواضح أنه أجبر الإمام عليه السلام الذي لم يكن مبالياً بولاية العهد. على أن يقبل بها وإلا قتله، وعند المقارنة بين عمل المأمون والإمام المعصوم نرى أن كل ما جهد من أجل تحقيقه المأمون ووفر في سبيله كل ما لديه كانت نتيجته عكسية بالكامل. هذه هي الخطوة الثانية للإمام.

أما النقطة الثالثة في سياسته عليه السلام والتي واجه بها سياسة المأمون. هي أنه مع كل الضغوطات والتهديدات التي مورست عليه، لم يقبل ولاية العهد إلا بشرط الموافقة على عدم تدخله في أي شأن من شؤون الحكومة من حرب وصلح وعزل ونصب وتدبير وإشراف على الأمور. والمأمون الذي كان يعتقد أن هذا الشرط ممكن قبوله وتحمله في

بداية الأمر، حيث يستطيع فيما بعد أن يجر الإمام إلى ساحة أعمال ونشاطات الحكومة، وافق على قبول شرط الإمام عليه السلام الذي ينص على عدم التدخل بأي شيء مهما كان. ومن الواضح أن قبول المأمون بهذا الشرط جعل خطته كمن يكتب على وجه الماء. فأكثر أهدافه التي كان يرمي إلى تحقيقها من وراء هذه الخطوة (تسليم ولاية العهد للإمام) لم تتحقق من جراء موافقته على هذا الشرط. والإمام عليه السلام الذي كان يطلق عليه لقب ولي العهد ويتمتع بسبب موقعه من إمكانات جهاز الحكم كان دائماً يقدم نفسه على أنه مخالف وعلى خلاف معها. فهو لم يكن يأمر ولا ينهى، ولا يتصدى لأي مسؤولية ولا يقوم بأي عمل للسلطة، ولا يدافع عن الحكومة، ولا يقدم أي تبرير لأعمال النظام. لذا كان من الواضح أن هذا الشخص الذي يُعتبر عضواً في النظام الحاكم والذي أدخل إليه بالقوة وكان يتنحى عن كل المسؤوليات، لا يمكن أن يكون شخصاً محباً ومدافعاً عن هذا النظام. ولقد أدرك المأمون جيداً هذا الخلل والنقص. فحاول عدة مرات وباستخدام أكثر الحيل مكراً ليحمل الإمام على العمل خلافاً لما اشترطه سابقاً. فيجر بذلك الإمام إلى التدخل في أعمال الحكومة ويقضي أيضاً على سياسة الإمام المواجهة والرافضة. لكن الإمام كان في كل مرة يحبط خطته بفطنته وبراعته. وكنموذج على هذا الأمر يذكر معمر بن خلاد نقلاً عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أن المأمون كان يقول للإمام إذا أمكن أن تكتب شيئاً لأولئك الذين يسمعون كلامك ويطيعونك حتى يخففوا التوتر والأوضاع المضطربة في مناطق وجودهم لكن الإمام عليه السلام رفض ذلك وذكّره بشرطه السابق القاضي بعدم تدخله مطلقاً في أي من الأمور.

نموذج آخر مهم جداً وملفت وهو حادثة صلاة العيد حيث أن المأمون وبحجة أن الناس يعرفون قدر الإمام وقلوبهم تهفو حباً له. طلب من الإمام أن يؤمّ الناس في صلاة العيد، رفض الإمام عليه السلام في البداية لكن بعد إصرار المأمون على طلبه وافق الإمام بشرط أن يخرج إلى الصلاة ويصلي بنفس طريقة النبي وعلي بن أبي طالب عليه السلام.

فلما استفاد الإمام عليه السلام من هذه المناسبة وانتهزها كفرصة جيدة لصالح مشروعه ندم المأمون الذي كان قد أصر على ذلك وأرجع الإمام من منتصف الطريق قبل أن

يصلي، مضطراً بفعله هذا أن تتلقى سياسة نظامه المخادعة والمتملقة ضربة أخرى في صراعه مع الإمام عليه السلام.

النقطة الرابعة في سياسة الإمام عليه السلام أن استفادته الأساسية من مسألة ولاية العهد كانت أهم من كل ما ذكر، فبقبوله لولاية العهد استطاع أن ينهض بحركة لا نظير لها في تاريخ حياة الأئمة (بعد انتهاء خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سنة ٤٠ هجرية حتى آخر عهود الخلافة الإسلامية)، ولقد تمثل ذلك بظهور ادعاء الإمامة الشيعية على مستوى كبير في عالم الإسلام وخرق ستار التقية الغليظ في ذاك الزمان، حيث تم إيصال نداء التشيع إلى كل المسلمين، فمنبر الخلافة العظيم الذي سمح للإمام باعتلائه مكنه من أن يتحدث بما لم يكن يقال طوال فترة 150 سنة إلا إلى الخواص والأصحاب المقربين وذلك بالسر والتقية، فخطب بالصوت العالي ليصل ذلك لجميع الناس، فاستفاد من هذه الفرصة ومن هذه الوسيلة (منبر الخلافة) التي لم تكن متيسرة في ذلك الزمان إلا للخلفاء أنفسهم أو لمقربيهم من الدرجة الأولى. وكذلك أيضاً مناظرات الإمام التي جرت بينه وبين جمع من العلماء في محضر المأمون حيث بيّن أمتن الأدلة على مسألة الإمامة، وهناك أيضاً رسالة جوامع الشريعة التي كتبها الإمام للفضل بن سهل حيث ذكر فيها كل أمهات المطالب العقائدية والفقهية للتشيع، وأيضاً حديث الإمامة المعروف الذي قد ذكره الإمام في مرو لعبد العزيز بن مسلم، إضافة إلى كل ذلك القصائد الكثيرة التي نظمت في مدح الإمام بمناسبة تسليمه ولاية العهد وقسم منها مثل قصيدة دعبل وأبو نواس تعدّ من أهم القصائد المخلدة في الشعر العربي.

إن كل ما ذكرناه من الإستفادة الأساسية للإمام عليه السلام من مسألة قبوله بولاية العهد يدل على مدى النجاح العظيم الذي حققه الإمام في صراعه ضد سياسة المأمون. وفي خطبته التي ألقاها من على منبر الحكومة أورد فضائل أهل البيت الذين ظلوا يشتمون علناً على المنابر لمدة 90 سنة. فلسنوات طويلة لم يكن شخص ليجرؤ على ذكر فضائلهم، فعاد في زمانه عليه السلام ذكر عظمة وفضائل أهل البيت في كل مكان، كما أن أصحابهم ازدادوا جرأة وإقداماً من هذه الحادثة (ولاية العهد وخطبة الإمام الجريئة)

وتعرف الأشخاص الذين كانوا يجهلون مقام أهل البيت عليهم السلام عليهم وصاروا يحبونهم وأحسّ الأعداء الذين أخذوا على عاتقهم محاربة أهل البيت بالضعف والهزيمة. فالمحدثون الشيعة أصبحوا ينشرون معارفهم. التي لم يكونوا ليجرؤا قبلاً على ذكرها إلا في الخلوات. في حلقات دراسية كبيرة وفي المجامع العامة علناً.

النقطة الخامسة التي قام بها الإمام تظهر عندما رأى المأمون أنه من المفيد فصل الإمام عن الناس فهذا الفصل والإبعاد هو في النهاية وسيلة لقطع العلاقة المعنوية والعاطفية بين الإمام والناس. وهذا ما يريده المأمون. ولمواجهة هذه الخطوة لم يكن الإمام يترك أي فرصة تمكنه من الإتصال بالناس إلا ويستفيد منها خلال تحركه ومسيره. مع أن المأمون كان قد حدد الطريق التي سيسلكها الإمام من المدينة وصولاً إلى مرو بحيث لا يمر على المدن المعروفة بحبها وولائها لأهل البيت عليهم السلام مثل قم والكوفة، لكن الإمام استفاد من كل فرصة في مسيره لإيجاد المودة ورابطة الحب بينه وبين أهل هذه المدن، فأظهر في منطقة الأهواز آيات الإمامة، وفي البصرة التي لم يكن أهلها من محبي الإمام سابقاً جعلهم عليه السلام من محبيه ومريديه وفي نيشابور ذكر حديث السلسلة الذهبية ليبقى ذكرى خالدة، إضافة إلى ذلك الآيات والمعجزات التي أظهرها. وقد اغتنم الفرصة لهداية وإرشاد الناس في سفره الطويل هذا. وعندما وصل إلى مرو التي هي مركز إقامة الخلافة كان عليه السلام كما سنحت له الفرصة وأفلت من رقابة الجهاز الحاكم يسارع للحضور في جمع الناس. والإمام عليه السلام فضلاً عن أنه لم يحضّ ثوار التشيع على الهدوء أو الصلح مع جهاز الحكومة بل أن القرائن الموجودة تدل على أن الوضع الجديد للإمام المعصوم كان عاملاً محفزاً ومشجعاً لأولئك الذين أصبحوا بفعل حماية الإمام ومؤازرته لهم محل احترام وتقدير ليس فقط عند عامة الناس بل حتى عند العاملين وولاة الحكومة في مختلف المدن بعد أن كانوا ولفترات طويلة من عمرهم يعيشون في الجبال الصعبة والمناطق النائية البعيدة، فشخص مثل دعبل الخزاعي صاحب البيان الجريء لم يكن على الإطلاق يمدح أي خليفة أو وزير وأمير ولم يكن في خدمة الجهاز الحاكم، بل لم يسلم من هجائه ونقده أي شخص من حاشية الخلافة. وكان لأجل كل ذلك ملاحقاً دوماً من قبل الأجهزة الحكومية وظل

لسنوات طوال مهاجراً ليس له موطن، فأصبح الآن يمكنه بوجود الإمام علي بن موسى الرضا أن يصل ويلتقي بمقتداه ومحبوبه بحرية، وأن يوصل في فترة قصيرة شعره إلى كل أقطار العالم الإسلامي، ومن أشهر وأبهى قصائده تلك التي تلاها للإمام عليه السلام حيث اشتهر بها، والتي تبين ادعاء الثورة الحسينية على الأنظمة الأموية الحاكمة.

حتى أنه وفي طريق عودته من عند الإمام سمع تلك القصيدة نفسها يرددها قطاع الطرق. وهذا يدل على الإنتشار السريع لشعره.

والآن لنلقي نظرة عامة على ساحة الصراع الخفي الذي بدأ المأمون بالإعداد له، ودخل فيه الإمام علي بن موسى الرضا للدوافع التي قد أشرنا إليها، والآن لنرى كيف كان الوضع بعد مضي سنة على تسلم الإمام ولاية العهد.

المأمون، وفي رسالة أمر تسليم الإمام ولاية العهد، وبعدة كلمات ومحطات كان قد مدح الإمام بالفضل والتقوى والإشارة إلى مقامه الرفيع والأصيل. بحيث أصبح الإمام خلال سنة بعد أن كان قسم من الناس لا يعرفون سوى اسمع (حتى أن مجموعة من الناس كانت قد ترعرعت على بغضه) يعرف عند الناس بأنه شخصية تستحق التعظيم والإجلال واللياقة لاستلام الخلافة. حيث أنه أكبر من الخليفة المأمون سناً وأغزر علماً وتقوى وأقرب إلى النبي صلى الله عليه وآله وأعظم وأفضل وبعد مضي سنة لم يكن الوضع لصالح المأمون لأنه لم يستطع أن يكسب ود ورضا الشيعة المعارضين يجلب الإمام إلى قربه فحسب، بل إن الإمام قد قام بدور أساسي في تقوية إيمان وعزيمة وروحية أولئك الشيعة الثائرين.

وعلى خلاف ما كان ينتظره المأمون ففي المدينة ومكة وفي أهم الأقطار الإسلامية لم يقذف الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام بتهمة الحرص على الدنيا وحب الجاه والمنصب ولم يخبُ نجمه الساطع. بل على العكس من ذلك تماماً حيث ازداد احترام وتقدير مرتبته المعنوية لدرجة فتح الباب أمام المادحين والشعراء بعد عشرات السنين ليذكروا فضل ومقام آبائه المعصومين المظلومين. وخلاصة ما نريد قوله أن المأمون في هذا الصراع فضلاً عن أنه لم يحصل على شيء فإنه فقد مكاسب كثيرة، وكان على طريق خسارة ما تبقى لديه.

بعد مضي سنة على تسلم الإمام ولاية العهد. وأمام هذا الواقع الذي أشرنا إليه، شعر المأمون بالهزيمة والخسارة. ولكي يعوض عن هذه الهزيمة ويجبر أخطاء سياسته وجد نفسه مضطراً. بعد أن أنفق كل ما لديه واستنفذ كل الوسائل في مواجهة أعداء حكومته الذين لا يقبلون الصلح. أي أئمة أهل البيت عليهم السلام إلى أن يستخدم نفس الأسلوب الذي لجأ إليه دوماً أسلافه الظالمون والغادرون، وهو اغتيال الإمام المعصوم. ولكن كان من الواضح عند المأمون أن قتل الإمام الذي يتمتع بهذه الموقعية العالية والمرتبة الرفيعة ليس بالأمر السهل. والقرائن التاريخية تدل على أن المأمون قام بعدة إجراءات وأعمال قبل أن يصمم على قتل الإمام لعله من خلالها يسهل أمر قتل الإمام ويحد من خطورته وحساسيته. ولأجل ذلك لجأ إلى نشر الأقوال والأحاديث الكاذبة عن لسان الإمام كواحدة من هذه التحضيرات. وهناك ظن كبير بأن نشر الشائعة التي تقول أن علي بن موسى الرضا عليه السلام يعتبر كل الناس عبيداً له بهذا الشكل المفاجئ في مرو، لم يكن ممكناً. لولا قيام عمال المأمون بنشر هذه الإفتراءات. وحينما نقل أبو الصلت هذا الخبر للإمام قال عليه السلام ما معناه: «يا الله يا خالق السموات والأرض أنت الشاهد على أنه لا أنا ولا أحد من آبائي قد قلنا مثل هذا. وهذه واحدة من المظالم التي تأتي إلينا من هؤلاء القوم».

إضافة إلى هذا الإجراء كان تشكيل مجالس المناظرات مع أي شخص عنده أقل أمل في أن يتفوق على الإمام واحدة من هذه الإجراءات التي مارسها المأمون. ولما كان الإمام عليه السلام يتفوق ويغلب مناظريه من مختلف الأديان والمذاهب في كافة البحوث كان يذيع صيته بالعلم والحجة القاطعة في كل مكان، وفي مقابل ذلك كان المأمون يأتي بكل متكلم من أهل المجادلة إلى مجلس المناظرة مع الإمام لعل أحداً منهم يستطيع أن يغلب الإمام عليه السلام وكما تعلمون فإنه كلما كانت تكثر المناظرات وتطول كانت القدرة العلمية للإمام عليه السلام تزداد وضوحاً وجلاءً. وفي النهاية يئس المأمون من تأثير هذه الوسيلة. وحاول أن يتآمر لقتل الإمام كما تذكر الروايات من خلال حاشيته وخدم الخليفة، وفي إحدى المرات وضع الإمام في سجن سرخس منطقة شمال شرق وإيران) لكن هذا لم يكن نتيجته إلا إيمان الجلاوزة والسجانين أنفسهم بالمقام المعنوي للإمام. وهنا لم يجد

المأمون العاجز والغاضب أمامه في النهاية وسيلة إلا أن يسم الإمام وبنفسه من دون أن يكلف أي أحد وقام بذلك فعلاً. ففي شهر صفر من سنة 203 هـ أي تقريباً بعد سنتين من خروج الإمام عليه السلام من المدينة إلى خراسان وبعد سنة أو أقل من تسلمه ولاية العهد قام المأمون بجريمته العظيمة التي لا تنسى وهي قتل الإمام عليه السلام.

أسئلة حول الدرس

1 ـ لماذا دعا المأمون الإمام الرضا عليه السلام للمجيء إلى خراسان؟

2 ـ ما هي أسباب قبول الإمام الرضا عليه السلام بولاية العهد؟

3 ـ لماذا انقلب المأمون على الرضا عليه السلام؟

الإمام محمد الجواد عليه السلام

حياة الإمام محمد الجواد عليه السلام استمرار لخطة أبيه الرضا عليه السلام ويبدو ذلك من علاقة المأمون نفسها بالإمام الجواد عليه السلام ومحاولة المأمون وخطته لصهر الإمام الجواد وتقريبه من أروقة الحكم، استمراراً لمؤامرته لتمييع حركة التشيع وقضيتها ضمن إطار الخلافة العباسية، ومستهدفاً بذلك حجز الإمام وعزله عن قواعده الشعبية بشكل لا يثير الأمة وخصوصاً وهو يعيش معززاً مكرماً في قصور المأمون ومبانيه الفخمة، وبعدها سوف يجعله تحت رقابة القصر المحكمة والتي تحصي عليه كل تحركاته وسكناته بدقة تامة.

ولهذا بادر المأمون إلى خطته القديمة في الظهور أمام الناس بالشخص المشفق المحب للإمام عليه السلام فزوجه ابنته أم الفضل[1] لكي يضمن تأييد الإمام له، ولذلك عرض عليه البقاء في مركز الخلافة، لكن الإمام الجواد أصر على الرجوع إلى المدينة، ليحبط خطة المأمون في كسب تأييده لخلافته المغتصبة فهي من جانب الإمام عليه السلام استنكار لخلافة المأمون وإيحاء للآخرين بعدم شرعية حكمه، ومن جانب آخر إثبات لإمامته وانفصال أطروحته عن أطروحة السلطة الحاكمة.

فقبول الإمام عليه السلام بالبقاء مع المأمون في بلاطه وحاشيته معناه أن تندمج الأطروحتان، وتبدو للجمهور أنهما غير متناقضتين مما يضع على أطروحة الإمام معالمها الفكرية الخاصة التي تميزها عن أطروحة الحاكم المنحرف.

والإمام الجواد عليه السلام استمر في خط أبيه، في تخطيطه الفكري وتوعيته العقائدية، فكان في المدينة يجمع عنده الفقهاء من بغداد والأمصار ليسألوه ويستنيروا بهديه **«وكان**

(1) أنظر خبر تزويجه، البحار، ج50، ص73.

وقت موسم الحج فاجتمع من فقهاء بغداد والأمصار وعلمائهم ثمانون رجلاً فخرجوا إلى الحج وقصدوا المدينة ليشاهدوا أبا جعفر»[1].

وكان الإمام الجواد عليه السلام يمارس مهام مسؤولياته الجهادية لتوسيع قواعده الشعبية، حتى سمع به المعتصم واستدعاه إلى بغداد بالقوة ليغدر به، وينهي حياته الشريفة بالسم، وقال ابن بابويه: سمه المعتصم[2].

فالإمام عليه السلام إذن كان يشكل خطراً على حياة السلطة ويسلط الأضواء على مواضع انحرافهم وبعدهم عن الإسلام، وليس ذلك وحده بل كان الكل يعرف منزلته وتفوقه العلمي والفكري على صغر سنه وتحديه للفقهاء وللقضاة في عصره، «**ففي مجلس واحد سألوه عن ثلاثين ألف مسألة فأجابهم فيها وله تسع سنين»**[3].

قال المفيد : إن المأمون كان قد شغف بالجواد لما رأى من فضله مع صغر سنه وبلوغه من الحكمة والعلم والأدب وكمال العقل ما لم يساوه فيه أحد من مشايخ أهل الزمان».

وقال الطبري في (أعلام الورى) «**إنه كان عليه السلام قد بلغ في وقته من الفضل والعلم والحكم والآداب مع صغر سنه منزلة لم يساوه فيها أحد من ذوي الأسنان من السادة وغيرهم»**[4].

ننهي حديثنا عن عمل وتخطيط الإمام الجواد بهذا القدر المختصر وذلك لتشابه دوره مع دور أبيه الرضا عليه السلام. لنتوفر على دراسة ظاهرة إعجازية، وجدت مع الإمام الجواد عليه السلام وقد أثارت حولها كثيراً من التساؤلات والأقاويل. ألا وهي ظاهرة توليه مرجعية الإمامة والقيادة وهو في سن الطفولة وكان عمره آنذاك ثماني سنين.

الإمام عليه السلام وصغر سنه:

وهي من الظواهر الإعجازية التي وجدت مع الإمام الجواد عليه السلام والتي كان لها أثرها الكبير على واقع الحكام آنذاك.

وقد أجمعت المصادر التاريخية أن الإمام الجواد توفي أبوه الرضا عليه السلام وعمره

(1) البحار، المجلسي، ج50، ص10.
(2) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج2، ص92.
(3) البحار، ج50، ص86.
(4) دائرة المعارف، ج2، ص93.

«ثماني سنين أو سبع سنين وأربعة أشهر»[1]، وتولى الإمامة بعد أبيه وهو في سن الطفولة.

هذه الظاهرة تواجدت لأول مرة في حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام في شخص الإمام الجواد عليه السلام وكان تحدياً صارخاً للحكام المنحرفين ورهاناً أكيداً وإعجازياً على حقيقة امتداد خط إمامة ومرجعية أئمة أهل البيت عليهم السلام الذي يمثله الإمام الجواد عليه السلام.

ولو اعتمدنا حساب الإحتمالات لوجدنا أن صغر سن الإمام عليه السلام وحده سبباً كافياً للاقتناع بحقيقة إمامته وتمثيله لخط إمامة أهل البيت، وإلا كيف نفسر توليه للزعامة الشيعية في كل المجالات النظرية والعملية.

ولربما يتبادر افتراض يقول أن الطائفة الإسلامية الشيعية ربما لم ينكشف لديها بوضوح إمامة وزعامة هذا الصبي لأهل البيت، ولربما زادوا هذا الإفتراض زعماً آخر كما جاء على لسان الباحث أحمد أمين «باختفاء الأئمة عن الأعين، واكتفائهم بالدعوة سراً، ليبقى العطف عليهم في الناس»[2].

وردنا على هذا الإفتراض والزعم، هو أن زعامة الإمام الجواد عليه السلام كانت زعامة مكشوفة وعلنية أمام كل الجماهير ولم تكن زعامة أئمة ـ أهل البيت ـ في يوم ما زعامة محاطة بالشرطة أو الجيش وأبهة الملك والسلطان، بحيث تحجب الزعيم عن رعيته ولم تكن زعامتهم عليهم السلام زعامة دعوة سرية من قبيل الدعوات الصوفية والفاطمية، كي تحجب بين قائد الدعوة وبين قواعده الشعبية، بل كان إمام ـ أهل البيت عليهم السلام ـ يمارس زعامة مكشوفة إلى حد ما، وكانت القواعد الشعبية المؤمنة بزعامته وإمامته تتفاعل معه مباشرة في مسائلها الدينية وقضاياها الإجتماعية والأخلاقية.

ولما استقدمه المأمون إلى مركز خلافته بغداد أصر الجواد عليه السلام على الإستئذان والرجوع إلى المدينة، وقد سمح له المأمون بذلك، وقد قضى أكثر عمره الشريف هناك[3].

فالجواد عليه السلام كان يتحرك بفاعلية ونشاط على المسرح الإجتماعي وهو مكشوف أمام كل المسلمين بما فيهم الشيعة الذين يؤمنون بزعامته وإمامته.

(1) نفس المصدر السابق، ص92.
(2) المهدي والمهدوية، ص61ـ62.
(3) الموسوعة، ج2، ص92.

حتى أن المعتصم تضايق من نشاطه وتحركه، فطلبه وأحضره إلى بغداد، ولما حضر أبو جعفر عليه السلام إلى العراق لم يزل المعتصم وجعفر بن المأمون يدبرون ويعملون الحيلة في قتله ويقول المفيد: «**فورد بغداد لليلتين بقيتا من المحرم سنة 220 هجرية وتوفي بها في ذي القعدة من هذه السنة**».

وفي روضة الواعظين «**مات ببغداد قتيلاً مسموماً**»[1].

وعلى ضوء هذه الحقائق تسقط دعوى الفرض الذي يقول بأن الجواد عليه السلام لم تكن زعامته مكشوفة أمام المسلمين عامة وأمام شيعته خاصة، خلافاً لطبيعة العلاقة التي نشأت منذ البداية بين قادة ـ أهل البيت ـ وقواعدهم الشعبية وخصوصاً أن المأمون قد سلط الأضواء على إمامة الجواد وعلمه، فقد عرّضه إلى امتحان من أجل إفحامه وفض الناس عنه وجمع بينه وبين كبار العلماء أمام العباسيين فتبين تفوق الجواد عليه السلام العلمي والفكري على صغر سنه[2].

وقد طلب المأمون من يحيى بن أكثم، وهو من كبار المفكرين آنذاك أن يطرح على الإمام مسألة يقطعه فيها.

فقال له: أتأذن لي جعلت فداك في مسألة،

فقال له أبو جعفر: سل إن شئت.

قال يحيى: ما تقول في محرم قتل صيداً؟

فقال له الإمام عليه السلام: «**قتله في حلٍّ أو حَرَم؟ عالماً كان المحرم أم جاهلاً؟ قتله عمداً أو خطأً؟ حراً كان أم عبداً؟ صغيراً كان أو كبيراً؟ مبتدئاً بالقتل أم معيداً؟ من ذوات الطير كان الصيد أم من غيرها؟ من صغار الصيد كان أم من كباره؟ مصراً على ما فعل أم نادماً؟ في الليل كان قتله للصيد أم نهاره؟ محرماً كان بالعمرة إذ قتله أو بالحج كان محرماً؟**».

فتحير يحيى بن أكثم وبان في وجهه العجز والإنقطاع وتلجلج حتى عرف أهل المجلس أمره[3].

(1) نقلاً عن دائرة المعارف، ص92.

(2) نفس المصدر نقلاً عن الإرشاد للمفيد.

(3) تذكرة الخواص، ص368ـ372 ـ وراجع للتفصيل تحف العقول عن آل الرسول ابن صغبة، ص335.

وهناك افتراضات أخرى ربما تثار في هذا المجال نعرضها على التوالي:

الإفتراض الأول الذي يقول: إن المستوى العلمي والفكري للطائفة الشيعية وقتئذٍ كان بدرجة يمكن معها أن يغفلوا هذا الموضوع، أو بشكل آخر إن مستواهم الفكري والعقلي والروحي هو الذي دفعهم إلى التصديق والإيمان بإمامة طفل وهو ليس بإمامٍ حقاً !.

وهذا الفرض ساقط، يكذبه الواقع التاريخي الثابت للطائفة الشيعية إذ أن مستواها العلمي والفقهي كان موضع إكبار وتقدير من قبل كل المدارس الفكرية المنافسة الأخرى.

فالمدرسة الفكرية الضخمة التي خلفتها جهود الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام كانت من أكبر مدارس الفكر الإسلامي التي شهدها العالم الإسلامي آنذاك، فهناك جيلان قد تعاقبا وهم من تلاميذ الصادق والكاظم عليهما السلام وكانا على رأس الطائفة الشيعية في ميادين الفقه والتفسير والكلام والحديث وكل جوانب المعرفة الإسلامية.

وعلى ضوء هذه الحقيقة، لا يمكن الإفتراض أبداً بأن المستوى الفكري والعلمي للطائفة كان بالمقدار الذي يغفل موضوعاً مهماً وخطيراً كهذا فكيف تغفل طائفة بكاملها وفيها هذه المدرسة التي كانت تعد قبلة للفكر الإسلامي المنفتح وتتخيل أو تتصور غفلة أن الإمامة في شخص طفل صغير وهو ليس بإمامٍ حقاً.

وخصوصاً ـ وكما قدمنا ـ أن إمامة الجواد وزعامته لقواعده الشعبية كانت زعامة مكشوفة لكل المسلمين وبإمكان أي فرد منهم أن يتحداها، ويمتحن صدقها، وخصوصاً الطائفة الشيعية التي كانت تمثلها في العالم الإسلامي أكبر المدارس الفكرية وأضخمها على الإطلاق، فقد امتدت مدرستها في الكوفة وقم والمدينة، وكانت هذه المدارس والمراكز الفكرية على صلة بالإمام عليه السلام تستفتيه وتسأله، وتنقل إليه الحقوق والأموال من مختلف الأطراف، فكيف نتصور أن هذه العقلية المنفتحة أو مثل هذه المدرسة الضخمة تغفل عن حقيقة طفل لا يكون إماماً.

الإفتراض الثاني: إن الطائفة الشيعية ـ عبر تاريخها المديد ـ لم تكن تملك تصوراً واضحاً لمفهوم الإمام والإمامة بل كانت تتصور الإمام مجرد رقم في تسلسل نسبي فهي بالتالي تجهل الإمام والشروط اللازمة للإمامة!

نقول إن هذا الإفتراض مردود لأن التشيع كأساس يقوم على المفهوم الإلهي العميق

لفكرة الإمامة من أبده وأبسط مفاهيم التشيع، فالإمام في مفهومه الشيعي العام ـ هو ذلك الإنسان الفذ بمعارفه وأقواله وأعماله وأخلاقه.

وهذا المفهوم وهو ما كان واضحاً في معالمه وأبعاده عند الطائفة الشيعية، قد بشرت به آلاف النصوص التي توالت منذ عهد الإمام علي عليه السلام إلى عهد الإمام الرضا عليه السلام، حتى أن كل تفاصيل وخصوصيات ـ التشيع ـ أصبحت واضحة في أذهان الشيعة ووعيهم.

تقول إحدى الروايات بهذا الصدد «دخلنا المدينة بعد وفاة الرضا عليه السلام نسأل عن الخليفة بعد الإمام الرضا فقيل إن الخليفة في قرية قريبة من المدينة، فخرجت إلى تلك القرية فدخلتها، وكان فيها بيت للإمام موسى بن جعفر عليه السلام انتقل إلى الإمام الجواد عليه السلام بالوراثة فرأيت البيت غاصاً بالناس ورأيت أحد أخوة الرضا عليه السلام جالساً متصدراً المجلس، وسمع الناس يقولون عنه ـ أي أخ الرضا عليه السلام ـ بأنه ليس هو الإمام الرضا، لأنهم سمعوا من الأئمة عليهم السلام: «**أن الإمامة لا تكون في أخوين بعد الحسن والحسين** عليهما السلام»[1].

ونستنتج من هذا الحديث، أن كل تفاصيل وخصوصيات التشيع ومفاهيمه كانت واضحة وجلية عندهم، مما يكذب زعم أصحاب هذا الإفتراض.

الإفتراض الثالث والأخير: إن الأمر لا يعدو كونه تفانياً وإصراراً على الغرور والباطل من قبل طائفة الشيعة ومحبيه.

ونقول إن هذه الدعوى باطلة، ليس فقط من وجهة إيماننا بورع الطائفة الشيعية وقدسيتها، وإنما نؤكد القول من خلال تلك الظروف الموضوعية التي أحاطت بهذه الطائفة المضطهدة، إذ أنه لم يكن ـ التشيع ـ في يوم من الأيام في حياة هذه الطائفة المؤمنة طريقاً للأمجاد والسلطان أو الإثراء بل كان التشيع على مدار التاريخ طريقاً إلى التعذيب والحرمان والسجون والإضطهاد، بل وكان طريقاً لأن يعيش معها إنسان الطائفة، حياة خوف وتضحية ومراقبة دائمة في كل خطوة يخطوها.

---

(1) البحار، ج50، ص90.

يقول الإمام الباقر عليه السلام عن تلك المحن والبلايا التي نزلت بالشيعة وخاصة أيام الحكم الأموي: «**وقتلت شيعتنا بكل بلدة وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة والتهمة وكل من يذكر بحبنا أو الإنقطاع إلينا سجن أو نهب ماله وهدمت داره**»[1].

فافتراض التفاني والإصرار على الباطل، لم يكن في أي وقت من الأوقات من أجل مطمح مادي أو دنيوي.

ولماذا بعد ذلك كل هذا التفاني والإصرار من قبل علماء وفقهاء الطائفة، على إمامة باطلة زائفة، مع أن تفانيهم للإمام عليه السلام سيكلفهم ألواناً قاسية من الحرمان والعذاب.

لذلك لا يمكننا تفسير تفاني الشيعة على الإمامة، إلا أن يكون ذلك ناشئاً عن اعتقاد حقيقي بهذه الإمامة ووعي عميق لشروط انعقادها.

ومن هنا يجب القول أن كل هذه الإفتراضات لا يمكن قبولها لمن اطلع على حقيقة تاريخ هذه الطائفة وظروفها الموضوعية، وبالخصوص الظروف والملابسات التي أحاطت بإمامة الجواد عليه السلام.

بعد عرض هذه الإفتراضات وردها، لا يبقى لدينا إلا الفرض الوحيد المطابق للواقع وهو كون الجواد عليه السلام هو الإمام حقاً.

أسئلة حول الدرس



1 ـ كيف تعاطى المأمون مع الإمام الجواد عليه السلام؟

2 ـ ما هي الظاهرة الإعجازية في إمامة الجواد عليه السلام؟ وكيف يمكن رد الشبهات فيها؟

3 ـ ما هي قضية المحاججات التي حصلت بين الإمام الجواد عليه السلام وعلماء البلاط؟

(١) شرح النهج، ج٣، ص١٥، لابن أبي حديد.

الإمام علي الهادي عليه السلام

عاش الإمام الهادي عليه السلام بعد استشهاد أبيه ظروفاً صعبة وقاسية وقد عاصر حكم المتوكل الذي عرف بحقده على الإمام عليه السلام وملاحقته لأصحابه وقواعده التي كانت تتسع يوماً بعد يوم، هذا التوسع الذي انعكس على واقع الجهاز الحاكم، حتى شعر المتوكل بخطورة الموقف وحرجه، فحاول تفادي المضاعفات، بطريقين متلازمين في آن واحد معاً:

1 ـ شن حملة مطاردة واضطهاد، لقواعد الإمام عليه السلام وأصحابه، وتدمير كل أثر شيعي لهم زيادة في إرهابهم وإمعاناً في إذلالهم، «**حتى أنه هدم قبر الحسين عليه السلام وعفّى آثاره**»[1].

2 ـ عزل الإمام عليه السلام عن قواعده تمهيداً لشرذمتها، وتمييع قضيتها وتيئيسها من الإنتصار.

وقد رأى المتوكل أن تواجد الإمام الهادي عليه السلام بعيداً عن رقابته (في المدينة) يشكل خطراً على دولته، فأمر باستقدامه إلى سامراء لكي يضعه تحت رقابته، ويرصد حركاته بعيداً عن قواعده الشعبية.

فقد أرسل المتوكل رسالة للإمام عليه السلام يدعوه فيها للحضور إلى ـ سامراء ـ مع من يختار من أهله ومواليه[2] بشكل لا يثير الأمة عليه، وهو نفس أسلوب من سبقه من الخلفاء، وكما فعل المأمون قبله مع الرضا والجواد عليهما السلام ومحاولة دمجهما في الجهاز الحاكم ليكونوا تحت رقابة القصر.

وأرسل المتوكل كتابه مع يحيى بن هرثمة أحد قادته العسكريين كما أرسل معه فرقة

(1) الكامل ج5، ص304.

(2) الإرشاد، ص313.

من الجند إلى المدينة وأمره باستقدام الإمام عليه السلام إلى سامراء، بعد تفتيش بيته، والبحث عن أي مستمسك يدين الإمام بالعمل والتآمر ضد الدولة، فلما سمع أهل المدينة بالحادث ضجوا استنكاراً على فعلة ابن هرثمة حتى أنه أخذ يسكتهم ويحلف لهم «بأنه لم يؤمر فيه بمكروه»[1] وهذا مما يدل على معرفة أهل المدينة بسوء نية السلطات تجاه الإمام عليه السلام. ويقول ابن هرثمة «ثم فتشت منزله فلم أجد فيه إلا مصاحف وأدعية وكتب العلم»[2].

وقد خرج الإمام الهادي عليه السلام مصاحباً ولده الإمام العسكري عليه السلام وهو صبي، مع ابن هرثمة يقودهما إلى سامراء، وبعد وصوله إليها بيوم استدعاه المتوكل، وتلقاه جملة من أصحاب المتوكل ودخل عليه فأعظمه وأكرمه ثم حوله إلى دار قد أعدت له عليه السلام!!

وأراد المتوكل بأسلوبه الماكر هذا أن يغطي على منهجه السياسي وعدائه الدفين للإمام عليه السلام، وهو بهذا الإستدعاء يفرض عليه الإقامة الجبرية تحت عين ومراقبة القصر المُحْكَمَة والتي سوف تحصي عليه كل تحركاته وسكناته بدقة تامة.

الإمام عليه السلام تحت الرقابة:

وقد سبق أن لاحظنا أن هدف استدعاء المتوكل للإمام الهادي عليه السلام إلى سامراء هو وصحبه وصَهْرَه في حاشية الخلافة بقدر الإمكان ليكون الإمام بين سمعهم وأبصارهم فلا تفوتهم منه شاردة ولا واردة.

«وكان الإمام عليه السلام يعطي من نفسه بإزاء ذلك وكأنه يوافق الدولة العباسية على سياستها تجاهه، فكان يحضر موائدهم، ويجلس مجالسهم ويخرج في مواكبهم»[3].

ولم يكن هذا الموقف من الإمام عليه السلام تنازلاً أو تسامحاً مع الدولة، فإن هذا لا يمكن مع شخصية كشخصية الإمام عليه السلام المبدئية.

وأي تنازل يبديه الإمام عليه السلام معناه التصرف ضد المصالح الإسلامية العليا. ولو أن الدولة كانت تحس في الإمام تنازلاً في مواقفه، لنال عندها أقصى المنازل الرفيعة

(1) مروج الذهب للمسعودي، ج4، ص84.
(2) التذكرة لابن الجوزي والموسوعة، ص93.
(3) تاريخ الغيبة، ص142.

والجاه العظيم، ولألغت مراقبتها الشديدة عليه دون أن تكرهه على الإقامة الجبرية، مع العلم أن سياستهم الجائرة تجاه الإمام كانت تتزايد يوماً بعد يوم، حتى أن المتوكل في آخر أيام حكمه ألقى بالإمام في غياهب السجون لكثرة ما رفع عنه للمتوكل من سعايات ووشايات بين آونة وأخرى، وكانت هذه الأخبار توقظ شكوك المتوكل على الإمام وتثير توجسه الكامن في نفسه، وكانت هذه الأخبار والوشايات تجعله يأمر بكبس دار الإمام للتأكد من صدق الوشاية أو كذبها.

الوشايات تبوء بالفشل:

الملاحظ في كبس دار الإمام عليه السلام أمران:

1 ـ أن كل الأخبار والوشايات دائماً كانت تبوء بالفشل دون أن تحقق هدفها في كشف معلومات عن حقيقة عمل الإمام عليه السلام ونشاطه وفي كل مرة يرجع جواسيس الخليفة مؤكدين أنهم لم يجدوا في دار الإمام ما يثير التوجس، مما يوجب عودة المتوكل إلى هدوئه واستمراره في إظهار احترام الإمام وتقديره في الظاهر.

وكان الهادي عليه السلام يفلح في كل مرة ـ يراد تفتيش بيته ـ بإخفاء مكامن الشك عن الدولة، بالرغم من الأموال والكتب وما كان يقوم به من اتصالات شيعته، وكان يستعمل أسلوباً رمزياً حينما يريد التعبير عن أمر محظور في نظر الدولة[1].

2 ـ كان الإمام عليه السلام يظهر ـ عند الكبس على داره ـ بمظهر اللامبالاة والهدوء التام والشخص الواثق من براءته، وكان يعين الشرطة المتجسسين على مهمتهم، فيسرج لهم الضياء، ويدلهم على غرف الدار توخياً في الإيحاء للدولة بأنه لا يملك أي نشاط غريب، ولو كان الإمام عليه السلام يقف موقفاً غير هذا الموقف لحاول بسلوكه وموقفه أن يثير شك الحكام بنشاطه، وهو في غنى عنه.

وقد كبس المتوكل دار الإمام عليه السلام مرات عديدة، ومن ذلك كبسه لدار الإمام نتيجة لسعاية البطحاني به إلى المتوكل وزعمه: إن عنده أموالاً وسلاحاً، فأمر المتوكل على

(1) تاريخ الغيبة، ص149.

الفور سعيداً الحاجب بالهجوم ليلاً على دار الإمام عليه السلام وأخذ ما عنده من الأموال والسلاح وحمله إليه.

فأخذ سعيد سلماً وذهب إلى دار الإمام عليه السلام وصعد عليها من الشارع إلى السطح ونزل خلال الظلام فلم يدر كيف يصل إلى الدار، فناداه الإمام عليه السلام بكل هدوء: يا سعيد مكانك حتى يأتوك بشمعة، ويقول سعيد: فلم ألبث أن أتوني بشمعة، فنزلت، فوجدت عليه جبة صوف وقلنسوة منها، وسجادته على حصير بين يديه وهو مقبل على القبلة، فقال لي: دونك البيوت ـ يعني الغرف ـ فدخلتها وفتشتها، فلم أجد فيها شيئاً.

ويحاول سعيد أن يظهر اعتذاره للإمام عليه السلام وكونه مأموراً ولكن الإمام عليه السلام أظهر سخطه بتلاوته لقوله تعالى: ﴿**وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون**﴾[1].

وفي حادثة أخرى: يصل إلى المتوكل خبر مالٍ يصل الإمام من قم وهي إحدى مراكز الولاء للإمام عليه السلام فيأمر وزيره الفتح بن خاقان أن يراقب الوضع ويأتي بالخبر، فيرسل الوزير بعض مأموريه ويدعى «أبو موسى» إلى الإمام ليرقب الوضع عن كثب[2].

دور الإمام عليه السلام وموقفه من الأحداث:

حاول الإمام أن يمارس دوره وفقاً للظروف الصعبة التي عاشها وهو في سامراء تحت رقابة المتوكل وعيونه التي ترصده ليل نهار، كان نشاطه عليه السلام يتحدد في دائرة في هذا الجو المضطرب دون أن يصطدم قدر الإمكان بحدود الضغط والرقابة الموجهة إليه وإلى أصحابه، ومع ذلك فقد مارس دوره من خلال موقفين:

1 ـ توعيته للأمة، ومواقفه العلمية،متمثلة برده للشبهات وإجابته على الأسئلة التي كان يوجهها الخليفة متحدياً بها الإمام عليه السلام لإحراجه أمام الناس.

فمن ذلك أن المتوكل طلب من ابن السكيت أن يسأل الإمام عليه السلام مسألة عوصاء بحضرته! فيسأله ابن السكيت عن بعض ما يراه صعباً ومشكلاً، فيخرج الإمام عليه السلام ظفراً من هذا التحدي.

(1) الإرشاد، ص310، والفصول المهمة لابن الصباغ ص298.
(2) الإحتجاج، ج2، ص251ـ260.

حتى أن يحيى بن أكثم قال للمتوكل: «ما أحب أن تسأل هذا الرجل عن شيء بعد مسائلي هذه، وإنه لا يرد عليه بشيء بعدها إلا دونها وفي ظهور علمه تقوية للرافضة»[1].

وكان الإمام عليه السلام يجيب السائل عن سؤاله، ويرد الشبهات الملحدة الرائجة في مجتمعه[2].

2 ـ العمل على حماية قواعده والإشراف عليها ومساعدتها على قضاء حوائجها ـ قدر الإمكان ـ والعمل على تثقيفهم وتركيز ثقتهم به، بصفته قائدهم الأعلى في كل شيء.

وقد انصرف الإمام عليه السلام يعمل بدأب على تجديد نشاطهم الإجتماعي ـ كلما سنحت لهذا النشاط فرص العمل ـ وكان يمد قواعده بكل الأساليب التي تساعدهم على الصمود ومواجهة العقبات والصعاب.

«وكان الهادي يستلم الأموال الطائلة ـ بالطرق السرية أو العلنية الممكنة ـ من مواليه كالزكاة والخمس والخراج، ويصرفها في المصالح الإسلامية العامة لحركته، بعيداً عن أعين الحكام والعاصمة العباسية»[3].

موقف العباسيين من تخطيط الإمام عليه السلام:

أما الحكام العباسيون، فقد خططوا لاحتواء عمل الإمام عليه السلام وتفريغ تخطيطه من فاعلية النشاط والتأثير، ولجم معارضته عليه السلام بالأساليب الآتية:

1 ـ الوقوف بوجه الإمام عليه السلام وتحديه من الناحية العلمية، وقد أحبط الإمام عليه السلام محاولتهم هذه، عندما كان يجيب استفتاءاتهم ويرد على تحديهم ـ كما رأينا سابقاً ـ.

2 ـ محاولة صهر الإمام عليه السلام وتقريبه من البلاط لتمييع أطروحته وعزله عن قواعده الشعبية.

ويمكن تفسير موقف الإمام في قبوله للحضور إلى سامراء وتواجده معهم من خلال المبررات الآتية:

1 ـ حملة الضغط والإكراه إلى حد التهديد بالقتل، ورفض الإمام عليه السلام وامتناعه

(1) المناقب، ج3، ص507.
(2) الإحتجاج، ج2، ص251ـ260.
(3) المناقب، ج3، ص512.

الصريح بالحضور إلى مجلس المتوكل، يعني استفزاز الحكم ضده والظهور بمظهر الخارج عليه، وكل ذلك مما لا يتفق وسياسة الإمام المرحلية التي رسمها تجاه الدولة.

2 ـ أراد عليه السلام احتواء وشايات بعض الجواسيس الذين أرادوا الإيقاع بالإمام والتصدي له بالأذى، وذلك عندما وشى به عبد الله بن محمد الذي كان يتولى الحرب والصلاة في المدينة، ملفتاً انتباه المتوكل إلى خطر الإمام عليه السلام ونشاطه في المدينة الذي يعمل ضد سلامة الدولة وأمنها، وأشاع خبر وجود أسلحة وكتب في بيت الإمام عليه السلام[1].

ولهذا أراد الإمام عليه السلام أن يظهر أمام الحكام بشكل يبدو أمره غير مثير للشك والشّبه، وهو بهذا ربما يتفرغ للإنفتاح على مجال آخر للعمل، ويبادر لنشاط جديد.

3 ـ ربما كان الإمام عليه السلام يرى أن تواجده بين الطبقات الحاكمة والمتنفذة في الدولة، فرصة يستطيع من خلالها أن يقول الحق بينهم ويدافع عن قضيته العادلة بين ظهرانيهم. ولا نستبعد هذا الإحتمال. لاحترامهم لشخص الإمام وإكبارهم لعلمه ونسبه. وهو بهذا يكسب قضيته العطف في المستويات العليا من الدولة.

4 ـ أدرك الإمام عليه السلام آنذاك أن طبيعة الحكم العباسي قائم كله على المحسوبية والمنسوبية، وتأثير المصالح الشخصية والوساطات فيه.

فالإمام كان يرى أن بالإمكان الإستفادة من هذا الواقع وتجييره لصالح الإسلام، والعمل على استبعاد الإضطهاد والظلم عن قواعده أو التخفيف ودفع الأخطار عنها.

الثورات العلوية والدعوة للرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله:

الثورات العلوية كانت هي الأخرى هاجس الحكام ومثار مخاوفهم ولذا وقف العباسيون منها موقفاً صارماً، يحاولون إجهاضها قبل أن تستفحل وتشتد عليهم، ويطاردون فلولها لشرذمتها والتخلص منها بكل وسائل القهر والقمع والوحشية.

هذه النظرة الحاقدة ـ ضد العلويين ـ لم يختلف فيها الخليفة أو القائد أو الوزير والعامة من الموالي والأتراك الذين زخرت بهم العاصمة العباسية سامراء آنذاك،

---

(1) الإرشاد، ص313.

والطبقة المنتفعة والمتمتعة بكل الإمتيازات الطبقية، وكان جملة منهم قواداً ومتنفذين بيدهم إعلان الحرب والسلم.

والدولة العباسية وقتئذٍ كانت تعاني تمزقاً وضعفاً من جراء سياستها الظالمة، وكانت تخاف أي بادرة تحرك علوية وتخشى شبحها، ولهذا كانت تقف منها موقفاً قاسياً تتصدى لثائريها بأقصى العقوبات الزاجرة.

كان الثوار العلويون، عندما يتوسمون في أنفسهم القوة والإتباع يرون وجوب التخطيط للثورة والخروج على حكامهم المنحرفين، وكانت أغلب الثورات تدعو إلى شعار ـ الرضا من آل محمد ـ ويريدون بهذا الشعار الشخص الذي هو أفضل آل محمد، وليس في اعتقادهم غير الإمام الهادي عليه السلام.

والثوار بشعارهم الفضفاض هذا، يريدون به تكتيكاً بارعاً لإخفاء اسم الإمام عليه السلام دون أن يضعه ـ في حال فشل الثورة ـ موضع التهمة والحرج تجاه السلطات الحاكمة، وهم يعلمون أن الإمام عليه السلام أمام سمع الدولة وبصرها، ولربما قتلته بعد أن تتهمه بإثارة العصيان والتمرد ضدها.

وقد أكدنا حقيقة مرّ ذكرها في أكثر من مكان: بأن الأئمة تركوا العمل المسلح والإصطدام المباشر لثوار علويين، لتحريك ضمير الأمة وإرادتها وتحصين الأمة ضد الإنحراف، وحاولوا بتضحياتهم المتتالية أن يحافظوا على الضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية من الإنهيار، والأئمة عليهم السلام كانوا بدورهم يسندون المخلصين من الثائرين، إما بشكل مباشر أو من خلال تعاليمهم التي كانت تؤثر في نفوس قواعدهم الموالية مما يؤدي إلى إعلان العصيان المسلح على الدولة.

ولأجل الدقة والموضوعية في البحث لا نستطيع القول بأن كل الثوار العلويين، كانوا ثائرين على أساس الوعي الإسلامي في تطبيق أحكام الإسلام وتحت قيادة الإمام المعصوم عليه السلام وإن كان الإعتقاد أن غرض أكثر الثوار هو ذلك[1].

---

(1) راجع تاريخ الغيبة للصدر، ص80 ـ وراجع مقاتل الطالبين للوقوف على ثورات العلويين ومقاومتهم للحكام.



أسئلة حول الدرس

1 ـ ما هي الطريقة التي تعاطى فيها المتوكل مع الإمام الهادي عليه السلام ومع شيعته؟

2 ـ تحدث عن الوشايات المتكررة بحق الإمام الهادي عليه السلام وكيف تجاوزها الإمام عليه السلام؟

3 ـ ما هي طبيعة العلاقة بين الإمام الهادي عليه السلام وبين الثورات العلوية ضد النظام العباسي؟

24

الإمام الحسن العسكري عليه السلام

عانى الإمام العسكري عليه السلام مع أبيه الهادي، وقضى القسط الأهم من حياته في العاصمة العباسية وواكب جميع الظروف والملابسات والمواقف التي واجهت أباه، وتسلم مركز الإمامة بعد أبيه وعمره آنذاك اثنتين وعشرين عاماً.

وجاءت مواقفه امتداداً لمواقف أبيه عليه السلام بوصفه المرجع الفكري والروحي لأصحابه وقواعده وراعياً لمصالحهم العقائدية والإجتماعية، بالإضافة إلى تخطيطه وتمهيده، لغيبة ولده الحجة بن الحسن المهدي عليه السلام.

وفي عصر الإمام عليه السلام جدّت ظروف وملابسات، ضعفت معها السلطة العباسية إلى درجة سيطرة الموالي والأتراك على مقاليد الحكم.

وكان من المتوقع وفي هذا الجو من ضعف السلطة، أن يخف الضغط والإرهاب على الإمام وأصحابه، لكن شيئاً من هذا لم يحدث، بل ازدادت موجة الإرهاب والضغط وبلغت أوجها على يد الخليفة المعتمد، لأن الخوف والتوجس من نشاط الإمام وتحركاته لم يكن ليقتصر على الخليفة وحده، بل إن هذه تمثلت في خط اجتماعي عام، لم يكن الخليفة إلا أحد أفراده.

فكان هذا الخط الإجتماعي العام، يقف دوماً ضد خط الإمام وأطروحته الفكرية والسياسية، والمتميزة والمتناقضة مع أطروحة الحاكم المتمثل في هذا الخط الإجتماعي العام والطبقة المستأثرة المنحرفة.

ومن هنا كان الصراع الدائم بين الخطين المتناقضين، ومحاولات الحاكم لعزل أطروحة الإمام وقيادته عن المسرح الإجتماعي والسياسي، ومحاسبته على كل بادرة نشاط أو تحرك حتى ولو كانت وشاية تافهة أو خبراً صغيراً عن نشاط الإمام «**وقد حبسه المتوكل ولم يذكر سبب ذلك، ولا شك أن سببه العداوة والحسد وقبول وشاية**

الواشين كما جرى لآبائه مع المتوكل وآبائه من التشريد والحبس والقتل وأنواع الأذى، وروي أنه عليه السلام قتل مسموماً على يد المعتمد»[1].

ومن هنا لا ينبغي توقع خفة الضغط، وموجته المرعبة بتوالي الأعوام، بل يحدثنا التاريخ عن شدتها وترسخها.

وهذا التصاعد الحاقد في محاربة الإمام عليه السلام كان السبب والدافع الرئيسي والمهم، لحدوث الغيبة، كما سنوضحه فيما يأتي إن شاء الله.

خطة الإمام عليه السلام في مواجهته للأحداث:

ويمكن تقسيم مواقف الإمام عليه السلام وخططه تجاه الأحداث بما يلي من المواقف:

الموقف الأول ـ من الحكم والحكام:

كانت سياسة العباسيين تجاه الأئمة عليهم السلام واضحة من أيام الإمام الرضا عليه السلام وتلخصت بالحرص على دمج إمام أهل البيت وصَهْرِه في الجهاز الحاكم، وضمان مراقبتهم الدائمة له، ومن ثم عزله عن قواعده ومواليه.

هذه السياسة المخادعة كانت نافذة تجاه الإمام الحسن العسكري عليه السلام كذلك لمزاياها الكثيرة بالنسبة للحكم، فكان العسكري عليه السلام كوالده مجبراً على الإقامة في سامراء، مكرهاً على الذهاب والحضور إلى بلاط الخليفة كل يوم اثنين وخميس[2].

ولكن الإمام عليه السلام كآبائه في موقفه من الحكام، وقف موقفاً حذراً ومحترساً في علاقته بالحكم، دون أن يثير أي اهتمام أو أن يلقي بنفسه في أضواء الحكم وجهازه، بل كانت علاقته بالحكم روتينية رتيبة، تمسكاً بخط آبائه تجاه السلطة العباسية.

فموقف الإمام السلبي هذا أكسبه أمام الحكام احتراماً ومنزلة رفيعة، وهذا ما نلاحظ من خلال علاقته بوزراء عصره وكيف أن الإمام عليه السلام كان يفرض شخصيته وجلالها حتى على أشد الناس حقداً وانحرافاً عن ـ أهل البيت ـ وهو الوزير عبيد الله يحيى بن خاقان الذي يقول في الإمام عليه السلام: «**ما رأيت ولا عرفت بسر من رأى رجلاً من**

(1) الموسوعة، ص94.

(2) المناقب، ج3، ص533.

العلوية مثل الحسن بن علي بن محمد بن علي الرضا في هديه وسكونه وعفافه ونبله وكبرته عند أهل بيته وبني هاشم كافة وتقديمهم أيّاه على ذوي السن منهم والخطر»[1].

والملاحظ من كلام هذا الوزير مدى احترامه وتقديسه للإمام، وقد زاره الإمام مرة وقابله في مجلس قصير[2] لكي يفهمهم أن وقوفه عليه السلام إلى جنب الوزير في انتقاده للظلم والإنحراف الذي يمارسه الجهاز الحاكم، إنما يقفه لتأييد كل حق أينما وجد، لأن المسألة عنده مسألة أمة ورسالة وهي تسمو على العداوات الشخصية والإختلافات، وربما أراد كذلك أن يوهمهم بعدم الخروج على سياستهم أو الإحتجاج ضدهم وربما كانت سبباً تدفع الحاكم للتخفيف عن أصحابه من الضغط والمطاردة التي يلقونها من الدولة.

وقد أراد الإمام عليه السلام أن يلتقي بالوزير في محل عام «وفي أثناء جلوس الوزير يخبره حاجبه بأن أبا محمد بن الرضا بالباب فيأخذ هذا الخبر اهتماماً في نفس الوزير، قال ولده أحمد: فتعجبت مما سمعت منهم ومن جسارتهم أن يكنوا بحضرة أبي، ولم يكن يكنى عنده إلا خليفة أو ولي عهد.

يقول: فدخل رجل حسنُ القامة، جميل الوجه، جيد البدن حديث السن، له جلالة وهيئة حسنة.

قال أحمد: فلما نظر إليه أبي، قام فمشى إليه خطىً فعانقه وقبَّل وجهه وصدره وأجلسه على مصلاه وجلس إلى جنبه مقبلاً عليه بوجهه، وجعل يكلمه ويفديه بنفسه!..

وقد بقي أحمد بن عبيد الله متحيراً في أمر أبيه وأمر الإمام حتى استأذن مرة أباه بالسؤال وقال: يا أبه من الرجل الذي رأيتك بالغداة فعلت به ما فعلت من الإجلال والكرامة والتبجيل. فقال يا بني ذاك إمام الرافضة الحسن بن علي، ثم سكت وأنا ساكت، ثم قال: يا بني لو زالت الإمامة عن خلفائنا بني العباس ما استحقها أحد من بني هاشم غيره لفضله وعفافه وصيانته وزهده وعبادته وجميل أخلاقه وصلاحه»[3].

وهذا يدل على ما للإمام عليه السلام من حب وتعظيم وإدراك لعدالة قضيته وأجدريته بالحكم.

---

(1) الإرشاد، ص318 - وأعلام الورى، ص357.
(2) المناقب، ج3، ص526.
(3) الإرشاد، ص318.

والإمام العسكري عليه السلام كان يقف من بعض الأحداث موقف الساكت دون تصريح إيجابي أو سلبي تجاهها، كما فعل مع صاحب - ثورة الزنج - الذي زعم الإنتساب إلى الإمام علي عليه السلام ولم تكن ثورته تجسيداً لأطروحة - أهل البيت - لما ارتكبته ثورته من قتل الكثير من الناس، وسلبه الأموال وإحراقه المدن وسبيه النساء، كل ذلك بالجملة وبلا حساب أو رادع من دين.

فموقف الإمام إزاء سلوكية الثورة كان قطعاً موقف الرافض والمستنكر لما ارتكبته من أعمال تتنافى وأحكام الإسلام ولكن الإمام عليه السلام آثر السكوت والصمت ولم ينتقد تصرفاتها ولم يتعرض لتفاصيلها، ولو فعل ذلك لكان عمله هذا يعتبر تأييداً ضمنياً للدولة، لأن ثورة الزنج بالرغم من سلبياتها الكثيرة فهي بالتالي تتفق وأهداف الإمام عليه السلام من إضعاف حكم العباسيين وكسر شوكتهم، وهو أمر ينبغي على الإمام عليه السلام أن يستفيد منه لصالح حركته ونشاطه، لأن المعارضين مهما اختلفوا، فهم بالتالي يشتركون في مناوأة عدو واحد وهو الوضع الحاكم.

فالإمام يستفيد من نتائج حركة الزنج، لأن الدولة سوف تضعف، ولا يمكنها من أن تحارب على جبهتين أو أن تعطي لكل جبهة ثقلها المطلوب، ولربما أدى ذلك - إلى حد ما - إلى تخفيف الضغط على جبهة الإمام عليه السلام، ولو أن الدولة كانت ترى أن نشاط الإمام عليه السلام أشد خطراً وأبعد أثراً على المدى البعيد من حركة الزنج التي لا يعدو كونها تحركاً آنياً سرعان ما يزول.

الموقف الثاني - موقفه من الحركة العلمية والتثقيف العقائدي:

وتمثلت مواقفه العلمية بردوده المفحمة للشبهات الإلحادية وإظهاره للحق بأسلوب الحوار والجدل الموضوعي والمناقشات العلمية، وكان يردف هذا النشاط بنشاط آخر بإصداره البيانات العلمية وتأليفه الكتب ونحو ذلك.

وهو بهذا الجهد «يموِّن الأمة العقائدية شخصيتها الرسالية والفكرية من ناحية ومقاومة التيارات الفكرية التي تشكل خطراً على الرسالة، وضربها في بدايات تكونها من ناحية أخرى، وللإمام من علمه المحيط المستوعب ما يجعله قادراً على الإحساس بهذه البدايات وتقدير أهميتها ومضاعفاتها والتخطيط للقضاء عليها.

ومن هنا جاء موقف الإمام العسكري واهتمامه في المدينة بمشروع كتاب يضعه الكندي « أبو يوسف يعقوب بن إسحاق» فيلسوف العراق في زمانه، حول متناقضات القرآن إذ اتصل به عن طريق بعض المنتسبين إلى مدرسته وأحبط المحاولة وأقنع مدرسة الكندي بأنها على خطأ[1] وجعله يتوب ويحرق أوراقه[2].

وله عليه السلام بيانات علمية لأبي هاشم الجعفري في مسألة خلق القرآن[3] وكذلك في تفسير القرآن[4].

الموقف الثالث:

موقفه في مجال الإشراف على قواعده الشعبية وحماية وجودها وتنمية وعيها ومدها بكل أساليب الصمود والإرتقاع إلى مستوى الطليعة المؤمنة.

وكثيراً ما كان ينبههم عليه السلام من الوقوع في الشرك العباسي ويعينهم على نوائب الدهر اقتصادياً واجتماعياً من جراء ما يلاقونه من معاملة قاسية من الحكام.

وقد كتب الإمام محذراً محمد بن علي السمري وهو خاصة أصحابه ورابع نواب ولده الحجة المهدي عليه السلام في غيبته الصغرى قائلاً له: «**فتنة تضلكم.. فكونوا على أهبة**»[5].

وكان يأمر أصحابه بالصمت والكف عن النشاط ريثما تعود الأمور إلى مجاريها وتستتب الحوادث.

وكان عليه السلام يحذر أصحابه حتى وهم رهن الإعتقال، وقد اعتقل مرة جماعة من أصحابه ووضعوا تحت إشراف صالح بن وصيف وهم: أبو هاشم الجعفري، وداوود بن القاسم، والحسن بن محمد العقيقي، ومحمد بن إبراهيم العمري وغيرهم. فأخبرهم الإمام عليه السلام أن يحذروا واحداً في الحبس يدعي أنه علوي وهو ليس منهم، وفي ثيابه قصة قد كتبها إلى السلطان يخبره فيها بما يتحدثون عنه، فقام بعضهم ففتش ثيابه فوجد القصة كما أخبرهم الإمام عليه السلام[6].

ومن مواقفه تجاه أصحابه مساعدته بالمال لأجل مصالحهم المادية العامة.

---

(1) دور الأئمة للصدر.
(2) المناقب، ج3، ص526.
(3) نفس المصدر، ج3، ص535.
(4) الإحتجاج، ج2، ص250.
(5) كشف الغمة، ج3، ص407.
(6) نفس المصدر، ج3، ص222 - وأعلام الورى، ص354.

فقد كانت تأتي الإمام عليه السلام أموال كثيرة من مختلف المناطق الإسلامية التي تتواجد فيها قواعده الشعبية، وذلك عن طريق وكلائه المنتشرين فيها.

وكان الإمام عليه السلام يحاول جاهداً وبأساليب مختلفة أن يخفي هذا الجانب إخفاء تاماً عن السلطة، ويحيطه بالسرية التامة.

ونستطيع أن نلاحظ، كيف استطاع الإمام وهو المضطهد المراقب أن يستلم الأموال ويصرفها طبقاً للمصالح التي يراها دون أن تعرف الدولة شيئاً عن نشاطه هذا، بل تقف تجاهه عاجزة مكتوفة الأيدي عن كشفه، بالرغم من بذل أقصى وسعها في ذلك، وما انكشاف بعض هذه الأموال للدولة إلا نتيجة لتقصير بعض الأطراف في الأخذ بهذا المسلك[1].

ولقد وقفت الدولة العباسية موقفاً شديداً وصارماً من أصحاب الإمام عليه السلام وقواعده المساندة وقد فعلت الكثير من أجل تمييع أطروحة الإمام عليه السلام وشرذمة أصحابه، وعمدت إلى شراء الضمائر بالمال الوفير والعيش الرغيد.

وكان الإمام عليه السلام يقف من هذه المحاولات موقف الناصح والمسدد لأصحابه قائلاً لهم: **«الفقير معنا خيرٌ من الغني مع غيرنا، والقتل معنا خيرٌ من الحياة مع عدونا، ونحن كهفٌ لمن التجأ إلينا، ونورٌ لمن استبصر بنا وعصمةٌ لمن اعتصم بنا، من أحبنا كان معنا في السنام الأعلى ومن انحرف عنا فإلى النار»**[2].

الموقف الرابع ـ موقفه عليه السلام من التمهيد للغيبة:

إن الإمام العسكري عليه السلام حين يعلم بكل وضوح تعلق الإرادة الإلهية بغيبة ولده من أجل إقامة دولة الله على الأرض وتطبيقها على الإنسانية أجمع، والأخذ بيد المستضعفين في الأرض ليبدل خوفهم أمناً.. يعبدون الله لا يشركون به شيئاً..

يعرف أن عليه مسؤولية التمهيد لغيبة ولده، وذلك لأن البشر اعتادوا الإدراك والمعرفة الحسية، ومن الصعب على هذا الإنسان المعتاد على المعرفة الحسية فقط أن يتجاوز إلى تفكير واسع.

---

(1) راجع للتوسع تاريخ الغيبة، المصدر، ص206.

(2) كشف الغمة، ج3، ص211.

ولم يكن مجتمع الإمام عليه السلام الذي عاصر بواقعه المنحرف وهبوط مستواه الفكري والروحي يسمو إلى عمق هذا الإيمان وسمو فكرته، خاصة وأن غيبة الإمام حادث لا مثيل له في تاريخ الأمة.

والإرهاصات المسبقة والنصوص الكثيرة المتوالية التي جاءت تبشر بالمهدي عليه السلام وإن كانت متواترة وصحيحة عن النبي صلى الله عليه وآله وإن رواها مؤلفو الصحاح وهم معاصرون أو متقدمون على هذه الفترة بمن فيهم البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل.. نقول وإن كان لكل هذه النصوص والتبليغات، أثرها الكبير والفاعل في ترسيخ فكرة انتظار المهدي عليه السلام في نفوس المسلمين بشكل عام، وكان إيمانهم بها يتناسب تناسباً طردياً مع عمق إيمان الفرد وسعة تفكيره واتجاه مذهبه في الإسلام، فإن هذه النصوص ليست أكثر من عون للإمام لكي يقنع الناس بالإيمان بالغيبة من ناحية ويبرهن للناس تجسيد الغيبة في ولده المهدي من ناحية أخرى.

والأمر الأصعب الذي تحمل مسئوليته الإمام العسكري عليه السلام بصفته والداً للمهدي عليه السلام هو إقناع الناس بفكرة حلول زمان الغيبة وتنفيذها في شخص ولده الإمام المهدي عليه السلام وهو أمر صعب بالنسبة للفرد العادي إذ أنه سوف يفاجأ ويصدم بإيمانه بفكرة الغيبة، فإن هناك فرقاً كبيراً في منطق إيمان الفرد العادي بشكل مؤجل لا يكاد يحس الفرد بأثره في الحياة وبين الإيمان بالغيب مع الإعتقاد بتنفيذه في زمان معاصر، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال الإفتراض التوضيحي التالي:

إذا أخبرنا شخص ـ لا نشك بصدقه ـ بقرب حدوث قيام الساعة أو قرب حدوث أجلنا، فإن مثل هذا الخبر سوف يولد لنا صدمة للإيمان بها، لأن الإيمان يحتاج إلى قوة مضاعفة من الإيمان والإرادة، وأن نحشد كل قوانا الإيمانية والروحية كي نتوصل معها للإيمان بهذا الأمر الغيبي.

هذه الحقيقة النفسية وملابساتها، كانت تلح على الإمام أن يبذل كل الجهد لتخفيف وقع الصدمة وتذليلها وتهيئة أذهان الناس لاستقبالها دون رفض أو إنكار، وتعويد أصحابه وقواعده على الإلتزام وهو يريد تربية جيلٍ واعٍ يكون النواة الأساسية لتربية الأجيال الآتية والتي ستبني بجهدها تاريخ الغيبتين الصغرى والكبرى.

وإذا عطفنا على ذلك تلك الظروف والمعاناة الصعبة التي عاشها الإمام وأصحابه من قبل الدولة، وضرورة العمل والتبشير بفكرة المهدي الثورية، والتي كانت تعتبر في منطق الحكام أمراً مهدداً لكيانهم وخروجاً على سلطانهم وتمرداً على دولتهم.

ومن هنا نحس بكل وضوح دقة التخطيط الملقاة على كاهل الإمام العسكري عليه السلام وحرج موقفه وهو يدعو لفكرة ولده المهدي عليه السلام.

الإمام عليه السلام يمهد لغيبة ولده المهدي عليه السلام

وقد اتجه نشاط الإمام العسكري وتخطيطه في تحقيق هذا الهدف إلى عملين ممهدين:

1 ـ حجب المهدي عليه السلام عن أعين الناس مع إظهاره لبعض خاصته فقط.

2 ـ شن حملة توعية لفكرة الغيبة، وإفهام الناس بضرورة تحملهم لمسؤولياتهم الإسلامية تجاهها وتعويدهم على متطلباتها.

فعلى المستوى الثاني رأينا الإمام العسكري يصدر بياناته وتعليماته عن المهدي عليه السلام كحلقة متسلسلة من تلك النصوص والتعليمات التي بشر بها النبي صلى الله عليه وآله والأئمة من بعده مع التأكيد والتخصيص على ولده المهدي عليه السلام.

واتخذت بيانات العسكري عليه السلام أشكالاً ثلاثة:

أ ـ بيان عام، كالتعرض إلى صفات المهدي عليه السلام بعد ظهوره وقيامه في دولته العالمية، كجوابه عليه السلام عن سؤال بعض أصحابه عن قيام المهدي قائلاً: «**فإذا قام قضى بين الناس بعلمه كقضاء داوود لا يسأل البينة**»[1].

ب ـ توجيه نقد سياسي للأوضاع القائمة، يقرنها بفكرة المهدي وضرورة تغييرها لها، فمن ذلك قوله عليه السلام: «**إذا خرج القائم أمر بهدم المنابر والمقاصر في المساجد**» (وكانت تبنى هذه المقاصر لغرض الأمن من الإعتداء على الخليفة وزيادة الهيبة في نفوس الآخرين[2].

(1) الإرشاد، ص323.

(2) المناقب، ج3، ص536.

ج ـ توجيه عام لقواعده وأصحابه، يوضح لهم أبعاد فكرة الغيبة، وضرورة التكيف لها من الناحية النفسية والإجتماعية تمهيداً لما يعانونه من غيبة الإمام وانقطاعه عنهم.

فمن ذلك كتب الإمام عليه السلام لابن بابويه رسالة يقول فيها: «**عليك بالصبر وانتظار الفرج، قال النبي صلى الله عليه وآله: أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج، ولا يزال شيعتنا في حزن حتى يظهر ولدي الذي بشر به النبي صلى الله عليه وآله يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً. فاصبر يا شيخي يا أبا الحسن علي وأمر جميع شيعتي بالصبر، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين**»[1].

3 ـ وقد اتخذ الإمام العسكري عليه السلام موقفاً آخر يمهد فيه للغيبة عندما احتجب بنفسه عن الناس، إلا عن خاصة أصحابه وأوكل مهمة تبليغ تعليماته وأحكامه بواسطة عدد من خاصته وذلك بأسلوب المكاتبات والتوقيعات، ممهداً بذلك إلى نفس الأسلوب الذي سوف يسير عليه ابنه المهدي عليه السلام في غيبته الصغرى وهو في احتجابه وإيصاله للتعليمات.

وقد يبدو الأمر غريباً مفاجئاً للناس لو حدث هذا بدون مسبقات وممهدات كهذه. ومن هنا كان أسلوب الإمام العسكري، منهجاً خاصاً في تهيئة ذهنيات الأمة وتوعيتها لكي تتقبل هذا الأسلوب وتستسيغه من دون استغراب ومضاعفات غير محمودة.

وكان قد بدأ التحضير والتخطيط لهذه الفكرة ـ بشكل بسيط ـ أيام الإمام الهادي عليه السلام عندما احتجب عن كثير من مواليه وأخذ يراسلهم عن طريق الكتب والتوقيعات[2] ليعود شيعته على هذا المسلك بشكل متدرج بطيء موافقاً بذلك الفهم العام لدى الناس.

وفعلاً اعتاد أصحابه ومواليه الإتصال به والسؤال منه بطريق المراسلة والكتابة[3].

وكذلك نظام الوكلاء الذي اتبعه الإمام العسكري مع قواعده الشعبية كان أسلوباً آخر من أساليب التمهيد لفكرة الغيبة.

وكان الشيعة إذا حملوا الأموال من الحقوق الواجبة عليهم إلى الإمام عليه السلام نفذوا

(1) نفس المصدر، ص527.
(2) إثبات الوصية، ص262.
(3) الإرشاد، ص323، وكشف الغمة ج3، ص207.

إلى ـ عثمان بن سعيد العمري السمان ـ الذي كان يتجر بالسمن تغطية لنشاطه في مصلحة الإمام عليه السلام فكان يجعل الأموال التي يتسلمها في جراب السمن وزقاقه ويحمله إلى الإمام عليه السلام بعيداً عن أنظار الحاكمين، لأنهم إذا عرفوا أمره صادروه[1].

وسنجد في البحث المقبل أن نظام الإحتجاب والوكلاء، هو الأسلوب نفسه الذي يكون ساري المفعول في غيبة الإمام الصغرى، بعد أن اعتاد الناس في مسلك الإمامين العسكريين عليهما السلام وخاصة الإمام الحسن العسكري عليه السلام وهذا ما سنوضحه في البحث التالي إن شاء الله.

أسئلة حول الدرس



1 ـ ما هو الواقع الذي وصله العباسيون في حياة الإمام العسكري عليه السلام؟

2 ـ كيف أشرف الإمام العسكري عليه السلام على قواعده الشيعية؟

3 ـ كيف مهد الإمام العسكري عليه السلام لغيبة الإمام المهدي عليه السلام؟

(٣) غيبة الشيخ الطوسي، ص ٢١٥ ـ ٢١٩.

25

الإمام المهدي عليه السلام (1)

تمهيد:

ـ تعرفنا فيما سبق ـ على خطة العباسيين وسياستهم تجاه أئمة أهل البيت عليهم السلام، بصهر الإمام في جهازهم الحاكم تمهيداً لتمييع أطروحتهم وعزلهم عن قواعدهم الشعبية، وكان الواحد منهم يعاني القهر والخوف والفقر والعذاب، من سياستهم الغاشمة.

وقد أجبرتهم سياسة البطش والإضطهاد إلى النشاط السري المحاط بالكتمان والرمزية قولاً وعملاً، والانتقال من مرحلة المد والتوسع الأفقي إلى مرحلة الحفاظ على البقاء، ومحاولة الإتصال المباشر بأصحابهم الخلّص، بعد أن يختبروا فيهم قوة الإرادة والصمود أمام ضغط الأحداث الصعبة، وهي مرحلة كانت تستهدف إذكاء الجذوة والأمل الثوريين ـ من خلال المهدي ـ في نفوس الشيعة ومتابعة دور المعارضة الصامدة أمام هجمات الإنحراف ضد الخط الرسالي، بالشكل الذي لا يتنافى ومرونتهم في العمل السياسي والتحريضي تجاه الدولة.

هذا الدور الفاعل والإيجابي، هو الذي دفع السلطات إلى الحذر الدائم والتوجس المستمر، من كل قول أو فعل يصدر عن الإمام عليه السلام أو عن أحد أصحابه، فكانت السجون ووسائل القهر الإرهابية، وسيلة من وسائلهم لتشتيت القواعد الموالية للإمام عليه السلام ومنعها من الإتصال بقيادتها المتمثلة في إمام أهل البيت عليهم السلام.

وكثيراً ما كان الأمر ينتهي بهم إلى السجون، وإلقاء القبض على الإمام نفسه، ليبقى في غياهب السجون مدة، ثم يخرج ليسجن ثانية.

ومع هذا فقد استطاع الإمامان الهادي والعسكري عليهما السلام بالرغم من سياسة المضايقة والمراقبة الدائمة، أن يخفيا نشاطهما، ويسترا الأموال والتعاليم التي تبلغ من قبلهما.

وفي هذا الجو المشحون بالحقد والضغينة على حركة أئمة أهل البيت (عليهم السلام) كانت الدولة العباسية، تدرك واجبها تجاه الأفكار التي كانت تملأ ذهنيات المسلمين عامة والموالين خاصة بالإعتقاد بوجود ـ المهدي (عليه السلام) ـ لتواتر أخباره منذ زمن النبي (صلى الله عليه وآله) إلى زمان الإمام العسكري (عليه السلام).

والسلطات كانت تعلم على وجه الإجمال، أن زمان المهدي (عليه السلام) قد أوشك على الوجود، ولكنهم يجهلون تاريخ ميلاده لمدى السرية التامة التي أحيطت بولادته (عليه السلام).

ومن هنا جاء اهتمام الجهاز الحاكم بإصدار أوامره لمراقبة الحوامل عند وفاة الإمام العسكري ظناً منهم بوجود المهدي (عليه السلام) جنيناً في رحم إحدى نسائه.

في ظروف ولادة الإمام المهدي (عليه السلام):

تزوج الإمام العسكري (عليه السلام) ـ أمة مملوكة ـ جلبت بواسطة الفتح الإسلامي وكانت تسمى بأسماء مختلفة من قبل الإمام (عليه السلام)[1].

وقد عاشت تخطيطاً خاصاً في تبديل اسمها بين آونة وأخرى؛ وذلك لمعرفة العسكري (عليه السلام) بأنها ستصبح أماً للمهدي (عليه السلام) وسترى المطاردة والإضطهاد من قبل السلطات وستعيش في السجن مدة من الزمن.

ومن هنا جاء تخطيط الإمام (عليه السلام) تجاهها إمعاناً في الحذر وزيادة في التوقي عليها وعلى ابنها، ولأجل أن يلتبس أمرها في ذهن السلطات، إن صاحبة أيٍّ من هذه الأسماء هي المسجونة، وأي منها هي الحامل وأي منها هي الوالدة، حيث يكون المفهوم لدى السلطات كون الأسماء لنساء كثيرات ويغفلون عن احتمال تعددها في شخص امرأة واحدة.

(1) راجع أسماءها في كتاب تاريخ الغيبة للصدر وغيرها من المعلومات المفصلة فقد اعتمدنا في هذا البحث على كثير من آرائه.

ولادتــــــه:

ولد الإمام المهدي عليه السلام في يوم النصف من شعبان عام 255 هجرية[1] وعاصر من حياة أبيه خمس سنوات، وانصب نشاط أبيه عليه السلام الرئيسي خلال ذلك على أمرين مهمين:

أحدهما: الحذر التام من السلطات الحاكمة.

ثانيهما: تعريف خواص الشيعة بالإمام عليه السلام.

وتولى الإمام المهدي عليه السلام مسؤولية الإمامة بعد وفاة أبيه عليه السلام وهو ابن خمس سنين سنة 260 هجرية، وصغر سن الإمام ليس ظاهرة غريبة ـ كما هو مبين في بحثنا عن الجواد عليه السلام فالإمامة هبة يمنحها الله تعالى من يشاء من عباده، فيمن تتوافر فيه عناصر الإمامة وشروطها شأنها في ذلك شأن النبوة، فقد أوتي النبي يحيى عليه السلام الحكم صبياً» وقام عيسى بالحجة وهو ابن أقل من ثلاث سنين[2].

مسؤولية الإمام العسكري عليه السلام تجاه ولده:

بعد ولادة الإمام المهدي عليه السلام واجه الإمام الأب وظيفتين مزدوجتين تجاه ولده عليه السلام:

1 ـ إثبات وجود المهدي عليه السلام تجاه التاريخ وتجاه الأمة الإسلامية وتجاه قواعده ومواليه، مع الحذر من السلطة، دون أن يبلغ به الحذر والكتمان إلى إخفائه الكامل، بحيث يؤدي إلى انطماس اسمه وإنكار وجوده، وإقامة الحجة في وجوده على الموالين خاصة، والمسلمين عامة، داحضاً بها المزاعم التي تزعم بعدم وجوده أو أنه ليس للإمام العسكري من ولد.

2 ـ التخطيط لحماية المهدي عليه السلام من محاولات قتله ومطاردته من قبل السلطات، التي أبدت اهتمامها الشديد والمركز، ومحاولاتها المستميتة للقضاء عليه وتجنيد كل قواها وعيونها من أجله لأن ولادته عليه السلام تعني الحكم على نظامهم بالموت المحتم وفضح مخططاتهم وانحرافهم عن أوامر الإسلام.

(1) الإرشاد، ص326 ـ وأعلام الورى، ص293.

(2) ن.م، ص357.

ومما زاد في دقة وحرج موقف الإمام العسكري عليه السلام في تحقيقه لهذين الهدفين أو الوظيفتين المزدوجتين تجاه ولده عليه السلام تعرضه لأضواء السلطة ومراقبتهم الدائمة له، وباعتباره القائد الإسلامي لقواعد شعبية واسعة من المسلمين، وتمثيله لجبهة الرفض المعارضة والمناوئة للسلطة الحاكمة آنذاك.

ومن هنا كان تخطيط الإمام عليه السلام في اجتياز هذا المأزق بسلام هو ترك الإعلان أو الكشف عن ولادة ابنه عليه السلام وكأن شيئاً لم يحدث على الإطلاق «**حتى أن الخادم في بيت الإمام العسكري لم ينتبه إلى شيء ولم يفهم شيئاً**»[1].

ومما ساعد الإمام العسكري وأعانه على نجاح خطة إخفاء الولادة احتجابه عن أصحابه ومواليه إلا بواسطة المراسلات، وتعود قواعده ومواليه على فكرة الإحتجاب والإتصال بقيادة الإمام عن طريق نظام الوكلاء وتسلسله الهرمي، وانشغال الدولة وأجهزتها بحركة صاحب الزنج عام 255هـ.

وإلى هنا استطاع العسكري عليه السلام أن يضمن حماية ولده عليه السلام من بطش السلطة وكل من يدور في فلكهم. وكان الإمام عليه السلام يلزم كل من يطلع على أمر ولادة ولده المهدي عليه السلام بوجوب الكتمان. وقد كتب الإمام العسكري عليه السلام لأحمد بن إسحاق: «**وُلِدَ لنا مولود، فليكن عندك مستوراً وعن جميع الناس مكتوماً**»[2].

وكان يؤكد عليه السلام أيضا على حرمة إطلاع أحدٍ على اسمه عليه السلام وكان عثمان بن سعيد العمري يقول لمن يسأل عن اسم الإمام عليه السلام: «**إياك أن تبحث عن هذا**»[3].

وكان الإمام عليه السلام يحتاط كثيراً من التصريح باسمه لأحد ويكتفي بالقول لهم: «**هذا صاحبكم**» ويقتصر في التصريح باسمه على أقل القليل من أصحابه.

وكان يكفي ـ في علم الإمام ـ هذا القدر من الإطلاع وإن كان الاسم مجهولاً، بل يكفيهم الإيمان بوجود إمامٍ يرجعون إليه في الأحكام والمشاكل، ولا يتوقف ذلك على معرفة اسمه بعد معرفة شخصه وإمكان الإتصال به عن طريق سفرائه.

(1) تاريخ الغيبة، للصدر، نقلاً عن كتاب، ص273، إكمال الدين مخطوط.
(2) تاريخ الغيبة، نقلاً عن إكمال الدين مخطوط، ص276.
(3) نفس المصدر، ص278.

ولعل أوسع إعلان قام به العسكري عليه السلام بين أصحابه عن ولادة ابنه من بعده، وذلك قبيل وفاته بأيام، وقد كان غاصاً بأربعين من أصحابه ومخلصيه منهم محمد بن عثمان ومعاوية بن الحكيم ومحمد بن أيوب... يعرض عليهم ابنه عليه السلام ويقول لهم **«هذا صاحبكم بعدي وخليفتي عليكم... وهو القائم الذي تُمد إليه الأعناق بالإنتظار، فإذا امتلأت الأرض جوراً وظلماً خرج فملأها قسطاً وعدلاً»**[1].

جعفر بن علي يخبر الدولة:

جعفر هو ابن الإمام علي الهادي عليه السلام تُترجم لنا كتب التاريخ حياته بالشكل الآتي ترعرع وشب على الإنحراف عن تعاليم الإسلام، واتخذ طريق اللهو وشرب الخمر والمجون، وكان والده عليه السلام يأمر أصحابه بالإبتعاد عن جعفر وعدم مخالطته، ويقول فيه **«إنه مني بمنزلة نمرود من نوح الذي قال الله عز وجل فيه: ﴿قال نوح: إن ابني من أهلي. قال الله: يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عملٌ غير صالح﴾»**[2].

ويستفاد من الأخبار أن لجعفر ثلاث نشاطات منحرفة مضادة وقف معارضاً بها الإمام المهدي عليه السلام وهي:

1 ـ ادعاؤه بالإمامة بعد أخيه الإمام العسكري عليه السلام.

2 ـ إنكاره لوجود أي وريث شرعي للإمام العسكري عليه السلام. وادعاؤه باستحقاقه التركة.

3 ـ وعندما احتج الإمام المهدي، أوعز إلى السلطات باحتمال وجوده، مما جعلها تشن حملة اعتقالات ومطاردات وتفتيش واسعة النطاق، انتهت باضطهاد الموجودين من عائلة الإمام عليه السلام ولكن بالتالي خاب أملهم بالعثور على الإمام المهدي عليه السلام.

ومن هنا نرى أن الخليفة ـ المعتمد ـ عندما أخبره جعفر بوجود المهدي واختفائه، أرسل على الفور رجاله وخيله إلى دار الإمام الحسن العسكري عليه السلام لتفتيشه، وبعد التفتيش الدقيق لكل مرافق البيت. لم يجدوا شيئاً، وعند رجوعهم حاولوا نهب وسلب

(1) تاريخ الغيبة، للصدر، ص283، عن إكمال الدين.

(2) تاريخ سامراء، ج2، ص251، نقلاً عن كتاب مدينة المعاجز.

كل ما وقعت عليه أعينهم من متاع الدار، وبينما هم منشغلون بالنهب والسلب، تحين المهدي عليه السلام الفرصة ليخرج من الباب وهو ابن ست سنين، فلم يره أحدٌ منهم حتى اختفى[1].

وكانوا لا يعرفون بالتحديد عمن يبحثون وأي شخص سوف يجدون، ففكرتهم عن الإمام غامضة، فلم يكن مستبعداً أنهم لم يلتفتوا وهم في نشوة السلب والنهب إلى وجود صبي يخرج من بين أيديهم بكل بساطة وهدوء ودون أن يثير أي اهتمام.

وبعد الإنتهاء، ألقوا القبض على الجارية ـ صقيل ـ أم المهدي عليه السلام وأخذوها للتحقيق إلى الجهات المسؤولة للإستفسار عن الصبي وجمع المعلومات منها، فأنكرته وادعت أنها لم تلد، وأصرت أن لا تبوح بالسر، وأيقنت ولدها محجوباً مصوناً من الإعتداء.

وقد تحملت أم المهدي عليه السلام وسائل القهر والتعذيب بكل إخلاص وصمود وحاولت أن توهم سلطات التحقيق، فتدعي «أن بها حملاً» ويقع كلامها في ذهن الحكام موقعاً محتملاً، ولربما ظنوا في أنفسهم بأن هذا الحمل الذي تدعيه هو المهدي المطلوب، وخصوصاً أن الدولة كانت تنتظر ولادة المهدي من أيام الإمام العسكري، وها قد انتهت حياته ولم تر له ولداً، وحيث أن الدولة لم تتأكد من ولادته فحسبهم الآن أن يراقبوا هذه الجارية إلى حين ولادتها ويتدبروا بعد ذلك أمر وليدها ويتخلصوا منه.

وقد أسرعت السلطات إلى وضع الجارية تحت المراقبة الشديدة والمستمرة، وجعلوها بين نساء المعتمد والموفق ونساء القاضي ابن أبي الشوارب، ولا زالوا يتعاهدون أمرها.. حتى طالت المدة ولم يحصلوا على شيء وبقيت الجارية محتجزة على هذه الحالة أكثر من عامين، حتى انشغلت الدولة بمشاكل وحروب في عدة جبهات أنستهم أمر هذه الجارية وتمكنت بذلك من الخروج منهم بسلام[2].

(1) تاريخ سامراء، ج2، ص251، نقلاً عن كتاب مدينة المعاجز.

(2) أنظر الكامل، ج6، ص15، وكذلك تاريخ الطبري.



أسئلة حول الدرس

1 ـ ما هي ظروف ولادة الإمام المهدي عليه السلام؟

2 ـ كيف تصدى الإمام العسكري لمسؤوليته تجاه المولود وحمايته؟

3 ـ ما هي قصة جعفر بن علي الهادي الملقب بالكذاب؟

26

الإمام المهدي عليه السلام (2)

الغيبة الصغرى:

تبدأ من عام 260هـ إلى عام 329هـ.

إن غيبة الإمام عليه السلام لا يمكن أن نفسرها «بابتعاد الإمام المهدي عليه السلام عن المجتمع ومشكلاته المعقدة، بل كان المهدي عليه السلام قائداً فذاً يعيش بشعوره المرهف آلام وآمال أمته وقواعده الشعبية ويتجاوب معهم بالفكر والعمل، وذلك حسب مقتضيات الظروف والمصلحة الإسلامية. وكان الإمام المهدي عليه السلام يتصل مباشرة ببعض الخاصة من أصحابه، ويوصيهم بتبليغ ما شاهدوه إلى الناس، مع إيصائهم بكتمان المكان وغير ذلك من الخصوصيات التي قد تدل عليه وتيسر للسلطات طريق الوصول إليه، وكان عليه السلام يجيب على أغلب المسائل التي تصله عن طريق وكلائه وسفرائه المعتمدين لهذا العمل، وكان من المتعذر على غير السفراء الوصول إليه، إلا من أحرز فيه الإخلاص وعدم إفشاء السر، وكان يوصيهم بحرمة التصريح باسمه بل يتم التصريح باسمه بأسماء مستعارة تشير إليه دون أن تعينه، كالقائم، والغريم، والحجة، وصاحب الزمان ونحو ذلك، فإن السلطات «**إن وقفوا على الإسم أذاعوه وإن وقفوا على المكان دلوا عليه**».

وكان الإمام عليه السلام يغير مكانه بين آونة وأخرى دون أن يلفت إلى ذلك الأنظار.

مطاردة السلطات للإمام عليه السلام:

كان القبض على الإمام عليه السلام أحد أهداف الدولة الكبرى، لأنها تعلم أن وجود الإمام عليه السلام معناه تهديد لسلامة حكمهم. ومن هنا جاءت محاولاتهم المستميتة لتحصين دولتهم ضد خطره، وتجنيد الحملات للقبض عليه، وقد جردت السلطات ثلاث حملات إرهابية للقبض عليه والأمر بكبس داره وتفتيشها تفتيشاً دقيقاً.

وكان التجسس المستمر والحذر البالغ من قبل السلطات سياسة متبعة من قبل كل الحكام لكشف مكان اختفاء الإمام عليه السلام والقبض عليه.

ولكن الأعوام التسعة عشر من نشاط السفراء، ومحاولات التجسس الدائبة أسفرت عن شيء جديد وهو ثبوت فكرة السفارة لديها ونشاطاتها المريبة في قبض المال بالوكالة لصالح الإمام عليه السلام ليس هذا فقط بل هناك قيادة ترعى وتشرف على القواعد الشعبية وتستلم الأموال منها.

وعلى ضوء هذا الإكتشاف الخطير رأى المعتضد عند توليه الخلافة أن أهم واجباته في الحكم، أن يبادر فوراً إلى تجديد الحملات لمحاولة القبض على الإمام عليه السلام.

وقد وضع عملاء الدولة وجواسيسها مخططاً كاملاً تعلم المعتضد بدار الإمام عليه السلام واحتمال اختفائه هناك، وقد بعث المعتضد على ثلاثة نفر، وأمرهم بالخروج إلى سامراء مخففين لا يكون معهم قليل ولا كثير، إلا أن يركب كل واحد فرساً معه آخر، ووصف لهم محلة وداراً وقال: «إذا أتيتموها تجدون على الباب خادماً أسوداً فاكبسوا الدار، ومن رأيتم فيها فأتوني برأسه»[1].

ولم يكشف المعتضد لهؤلاء الثلاثة مهمتهم الحقيقية ودون أن يعرفهم بأنهم مكلفون بإلقاء القبض على الإمام المهدي عليه السلام حفاظاً على سمعته وسمعة الدولة، وخوفاً من تسرب الخبر إلى الناس فيكون ما لا يحمد للمعتضد عقباه، فإن الأمر أدق وأهم من أن يعرفه الناس.

وبدأت الحملة كما أمر المعتضد، وتوجهوا إلى سامراء وبحثوا عن الدار فكبسوها وجاسوا خلالها، وكان الإمام عليه السلام فيها ولكنهم لم يلتفتوا إليه، ونجا منهم ـ بمعجزة ـ يرويها لنا التاريخ بشيء من التفصيل[2].

وظن المعتضد أن هذه الحملة فشلت لقلة عددها وسرية تنفيذها ومن هنا نراه يجرد حملة أخرى أكبر.

---

(1) الغيبة للطوسي، ص149 ـ البحار، ج12، ص8.

(2) الخرايج والجرايح، ص67.

يروي صاحب البحار نص الرواية «**ثم بعثوا عسكراً أكثر، فلما دخلوا الدار سمعوا من السرداب قراءة القرآن، فاجتمعوا على بابه وحفظوه حتى لا يصعد ولا يخرج، وأميرهم قائم حتى يصل العسكر كله، فخرج من السكة التي على باب السرداب ومرّ عليهم، فلما غاب، قال الأمير انزلوا عليه، فقالوا: أليس هو مرّ عليك، فقال ما رأيت، ولم تركتموه، قالوا: إنا حسبنا أنك تراه**».

ومن طريف حال هؤلاء الجلاوزة، أنهم لم يبادروا للقبض عليه بل وقفوا على باب السرداب يحافظون عليه، فهم يخافون مواجهته عليه السلام ويحتاجون إلى مدد أكبر وعدد أكثر فهم منتظرون لوصول المدد من بغداد إلى سامراء، وفي هذه الأثناء من الترقب، استغل الإمام عليه السلام أروع لحظة من لحظات ذلك الحصار، لحظة اقترنت بالدقة والتوقيت والضبط في التدبير والعناية الإلهية، إنها لحظة غفلة قائد الحملة عن الترصد والإنتباه، لحظة لم يأت فيه المدد، ولم تصدر الأوامر بعد لاقتحام المكان.

الإمام عليه السلام والتنظيم الهرمي:

يتبين للباحث من مجموع الروايات والنصوص التاريخية أن الإمام عليه السلام اعتمد تنظيماً هرمياً في ارتباطاته واتصالاته بقواعده ومواليه، فكان عليه السلام في قمة الهرم قائداً يمارس عمله بسرية وخفاء، يصدر الأوامر والتعليمات إلى سفرائه مباشرة وهم بمثابة أعضاء الإرتباط بينه وبين الوكلاء الذين انتشروا في المناطق البعيدة، ليكونوا همزة الوصل بين السفراء والقواعد الشعبية الواسعة.

وكان الإمام الجواد عليه السلام يعمد إلى إحاطة اتصاله بالوكلاء بالغموض المطلق وكان ذلك الإتصال مجهولاً تماماً لدى كل إنسان مهما كان خاصاً ومقرباً ما عدا السفير نفسه الذي يضطلع بمهمة الإتصال المباشر، ومن الممكن القول بأن السفير كان منهياً عن التصريح به أساساً لكل أحد.

وكان اختيار الإمام عليه السلام لأشخاص السفارة وإيكال الوكالة الخاصة لهم، تقوم على عمق إخلاصهم، وقوة تحملهم للتعذيب فيما بعد إذا وقعوا في قبضة السلطة، ولم يشترط الإمام عليه السلام أن يكون السفير هو الأعمق فقهاً أو الأوسع ثقافة، لأن السفارة لا

تعني إلا التوسط في التبليغ، ومن هنا جاز إسنادها إلى المفضول مع وجود الأفضل، حرصاً على الإخلاص العميق وقوة الإرادة.

ومن هنا جاء البعض يعترض على ـ أبي سهل النوبختي ـ فقيل له: كيف صار هذا الأمر ـ أي السفارة ـ إلى الشيخ أبي القاسم الحسين بن روح دونك؟ فقال: «هو أعلم وما اختاروا، ولكن أنا رجلٌ ألقى الخصوم وأناظرهم، ولو علمت بمكانه كما علم أبو القاسم وضغطتني الحجة، لعلي كنت أدل على مكانه، وأبو القاسم فلو كان الحجة تحت ذيله وقرض ذيله بالمقاريض ما كشف الذيل عنه»[1].

وكانت مسؤولية السفراء في هذا التنظيم عامة وشاملة، على حين نرى مسؤولية الوكلاء خاصة، تشمل منطقتهم فقط، ومهمة الوكيل في التنظيم، تسهيل عمل السفير وتوسيعه، وخصوصاً أن ظروف العمل السري تمنع حرية الحركة والإتصال المباشر بالقواعد الشعبية المنتشرة في مختلف البلدان الإسلامية، فيكون لعمل الوكلاء ونشاطهم أكبر الأثر في إيصال التعاليم والتوجيهات إلى أوسع مقدار ممكن من القواعد الشعبية الموالية.

فضلاً عن ذلك أن فكرة اعتماد نظام الوكلاء في التنظيم الهرمي، تساهم في إضفاء طابع التكتم والسرية على اسم وشخص السفير فالفرد المنتمي للقواعد الشعبية العارف بفكرة ـ السفارة ـ غاية ما يستطيعه هو الإتصال بأحد الوكلاء من دون معرفة اسم السفير أو عمله أو مكانه[1].

وكانت الأموال والحقوق الشرعية تصل الإمام عليه السلام ليعاد توزيعها بواسطة السفراء ثم الوكلاء لتصرف في مواضعها.

وهذه الأموال منها ما يصل الإمام عليه السلام مباشرة، ومنها ما يصرفه الوكيل وفقاً للقواعد والأحكام الإسلامية في صرف الحقوق.

ومن مهمة السفراء أيضاً أخذ الأسئلة وإيصالها من وإلى الإمام عليه السلام، تندرج في ذلك الأسئلة الفقهية والعقائدية وغيرها التي كانت توجه للإمام عليه السلام.

(1) غيبة الطوسي، ص240 - والبحار، ج13، ص98.

(1) منتهى المقال، ج1، ص241.

كل شيء عن السفراء الأربعة:

السفراء الأربعة هم الذين تولوا الوكالة الخاصة عن الإمام عليه السلام خلال غيبته الصغرى وهم على التوالي وحسب تسلسلهم التاريخي:

1 ـ عثمان بن سعيد العمري.
2 ـ محمد بن عثمان العمري.
3 ـ الحسين بن نوح النوبختي
4 ـ علي بن محمد السّمري[1].

وبانتهائهم ينتهي عهد الغيبة الصغرى عام 329 هـ. ويبدأ بعدها عهد الغيبة الكبرى.

وقد اضطلعوا بمهمة قواعد الإمام عليه السلام من الناحية الفكرية والسلوكية، طبقاً لتعليمات الإمام عليه السلام والتوسط بينه وبينها في إيصال التبليغات وإخراج التوقيعات، وحل مشاكلها وتذليل العقبات التي تصادفها.

وقد اعتمدت تحركاتهم ونشاطاتهم السرية التامة دون أن يثيروا السلطات عليهم، ولكي تنفسح لهم أكبر الفرص وأوسع المجالات للعمل تحت قيادة الإمام عليه السلام دون أن يقعوا تحت طائلة المطاردة والتنكيل.

ولعل الدوافع التي دفعت السفراء إلى هذا الأسلوب من العمل هي الأسباب التالية:

1 ـ خوف السلطة من العلويين، ومحاولة مطاردة واضطهاد عدد كبير من قادتهم وكبرائهم، ويكفينا ذلك العدد الضخم من العلويين الذين صرعوا على يد السلطات، وقد ضبط لنا أسماءهم أبو الفرج في المقاتل[2].

ويقول الطوسي في غيبته: «**إن سيف المعتضد كان يقطر دماً**»[3]، وكانت تلك الفترة مليئة بالظلم والجور وسفك الدماء[4].

2 ـ الجو القلق والمضطرب الذي عاشته قواعد الإمام الشعبية، والسفراء الأربعة بنحو خاص، إلى درجة أن عثمان بن سعيد السفير الأول للإمام عليه السلام كان ينقل المال في جراب من الدهن، لشعوره بضغط السلطات ومطاردتهم له، ولما ينتظره من العقاب الصارم لو عرفت به الدولة أو حصلت تجاهه على مستمسك خطير.

3 ـ المطاردة الجادة والدائبة للإمام المهدي عليه السلام ومحاولة إلقاء القبض عليه،

(1) راجع تراجم حياتهم في كتاب الغيبة للطوسي.
(2) المقاتل للأصفهاني.
(3) الغيبة للطوسي، ص179.
(4) عقيدة الشيعة، ص257، لرونلدسن.

وحملات التفتيش المنظمة لداره، فإذا كانت الدولة تقف من الإمام عليه السلام هذا الموقف فكيف تقف تجاه قواعده ومواليه؟!.

وكان السفراء هم حلقة الوصل في قبض وتوزيع الأموال التي كان الموالون يحملونها إلى الإمام عليه السلام من أطراف البلاد الإسلامية وكانت الوفود تفد للسفير تحمل معها الأموال والأسئلة، تسلم السفير الأموال وتستسقي منه أجوبة المسائل وحل المشكلات.

وظاهر بعض الروايات، أن الأموال كانت تحمل في السنوات الأولى من الغيبة الصغرى إلى سامراء حيث يكون من يقبضها هناك ويسلمها للإمام المهدي عليه السلام وذلك بدلالة السفير نفسه، كما فعل أبو جعفر العمري مع الدينوري[1].

ثم انقطع ذلك، واستمر السفير على قبض المال بنفسه مع إعطاء الوصل به[2].

وقبض الأموال وتوزيعها كان يقع سراً بعيداً عن أعين الدولة ورقابتها ولا يصرح به إلا نادراً، وكان التوزيع ـ في الأعم الأغلب ـ يأخذ الأسلوب التجاري أي يعطي بصفته دائناً مثلاً، دون أن يثير هذا السلوك شك السلطات.

وكثيراً ما كانوا يواجهون الوشايات بتخطيط رائع ومضاد، ومن ذلك وصول أخبار إلى مسامع عبد الله بن سليمان الوزير بوجود وكلاء للمهدي عليه السلام في بغداد وغيرها من المناطق يعملون لمصالح الإمام عليه السلام وجاء من ينصح الوزير بأن يرسل لكل وكيل شخصاً ويدعي بأن له مالاً يريد أن يدفعه للإمام عليه السلام فمن قبض من الوكلاء شيئاً قامت الحجة عليه، ويؤخذ عند ذلك بالجرم المشهود، وفعلاً قام الوزير بهذه المحاولة لكشف وكلاء الإمام عليه السلام إلا أن تعاليم الإمام كانت قد سبقته إلى الوكلاء، فما كان منهم إلا التنصل من الوكالة وتجاهل أمرها أمام عملاء الدولة وبذلك أحبطت مؤامرة الوزير ونجا الوكلاء من براثن السلطات[3].

ومن النشاطات الأخرى التي مارسها السفراء، تصديهم لحل المشاكل العلمية والدخول في المناقشات العقائدية إما توجيهاً لقواعدهم الشعبية أو من أجل الإحتجاج ضد الشبهات والدفاع عن الإسلام[4].

(1) البحار، ج13، ص79.
(2) الإرشاد، ص335.
(3) أعلام الورى، ص421.
(4) غيبة الشيخ الطوسي، ص239 ـ والإحتجاج، ص288.

أهداف السفارة:

هناك هدفان ترمي إليها السفارة عن الإمام عليه السلام هي:

1 ـ تهيئة أذهان الأمة وتوعيتها لمفهوم ـ الغيبة الكبرى ـ وتعويد الناس تدريجياً على الإحتجاب، وعدم مفاجأتهم بالغيبة دون سابق مقدمات، ولربما أدى الإحتجاب المفاجئ إلى الإنكار المطلق لوجود المهدي عليه السلام.

ومن هنا جاء تخطيط الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام بالاختفاء التدريجي عن وسط الأمة، وضاعفه الإمام العسكري على نفسه، كما أن الإمام المهدي نفسه تدرج في عمق الإحتجاب كما بينا، وكانت فترة السفارة أيضاً إحدى الفترات المرحلية لتهيئة الأذهان بشكلها المتدرج.

2 ـ قيام السفارة برعاية شؤون القواعد الشعبية الموالية للإمام والتوسط بينها، لتمضية شؤونها ومصالحها بعد اختفاء الإمام عن مسرح الحياة ـ بغيبته الكبرى ـ.

وقد قام السفراء بمسئوليتهم في هذا الجانب خير قيام حيث اضطلعوا بحفظ مصالح القواعد الشعبية، ومن خلال ظروف اجتماعية وسياسية بالغة التعقيد.

وقد دامت السفارة عن الإمام المهدي تسعاً وستين عاماً وستة أشهر وخمسة عشر يوماً ـ وهي نفس فترة الغيبة الصغرى ـ شغل منها السفير الأول عثمان بن سعيد حوالي خمس سنوات، والسفير الثاني محمد بن عثمان حوالي الأربعين عاماً، والثالث وهو الحسين بن روح إحدى وعشرين عاماً، وخلفه السفير الرابع علي بن محمد السّمري، حيث بقي في السفارة ثلاث سنين. وقد انتهت الغيبة الصغرى عام 329 وعمر الإمام عليه السلام أربع وسبعون عاماً، قضى أربع سنين ونصف منها في حياة أبيه عليه السلام وتسعة وستين عاماً ونصف وخمسة عشر يوماً في الغيبة الصغرى، ثم بدأت الغيبة الكبرى حيث يأذن الله تعالى له بالخروج لكي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.



أسئلة حول الدرس

1 ـ ما هي دواعي الغيبة الصغرى للإمام المهدي عجل الله فرجه؟

2 ـ كيف تواصل الإمام المهدي عجل الله فرجه مع شيعته خلال الغيبة الصغرى؟

3 ـ ماذا تعرف عن السفراء الأربعة للإمام المهدي عجل الله فرجه في غيبته الصغرى؟

الإنتظار

قد يفهم الناس الإنتظار بطريقة سلبية يتحول فيها هذا المفهوم إلى عامل للتخدير والإعاقة عن الحركة. وقد يفهم بطريقة إيجابية تجعل منه عاملاً من عوامل التحريك والبعث والإثارة في حياة الناس.

إذن لا بد لنا من أن نقدم تصوراً دقيقاً لمسألة الإنتظار، وهذه هي مهمتنا الأساسية في هذا الدرس.

الإنتظار ثقافة ومفهوم حضاري يدخل في تكوين عقليتنا وأسلوب تفكيرنا ومنهج حياتنا ورؤيتنا إلى المستقبل، وبشكل فاعل ومؤثر، وله تأثير في رسم الخط السياسي الذي نرسمه لحاضرنا ومستقبلنا.

وللإنتظار عمق حضاري في حياتنا يقرب من ألف وتسعين سنة لأن الغيبة الصغرى انتهت سنة 329هـ، وقد مرَّ على هذا التاريخ ألف وثلاث وتسعون سنة تقريباً.

وخلال هذا التاريخ دخلت هذه المسألة في صياغة عقليتنا السياسية والحركية بشكل مؤثر. ولو قمنا ـ نظرياً ـ بعملية تجريد لتاريخنا السياسي والحركي عن عامل «الإنتظار» لكان لهذا التاريخ الطويل شأن آخر.

والذي يقرأ «**دعاء الندبة**» الذي يدأب عليه المؤمنون أيام الجمعة يعرف عمق هذه المسألة ونفوذها في نفوس المؤمنين وعقليتهم ومنهجهم في التفكير والحركة.

أنحاء الإنتظار

يكون انتظار الإنقاذ على نحوين:

النحو الأول من الإنتظار:

انتظار الإنقاذ في ما ليس بوسع الإنسان أن يقدّمه أو يؤخّره، كما لو كان الغريق

ينتظر وصول فريق الإنقاذ إليه من الساحل ويراهم مقبلين إليه لإنقاذه. فإنَّه من المؤكد أن الغريق لا يستطيع أن يقدّم وصول فريق الإنقاذ إليه، إلا أنه من المؤكد أيضاً أن هذا الإنتظار يبعث في الغريق نفسه أملاً قوياً في النجاة ويحل نور الأمل على ظلمات اليأس التي تحيط به من كل جانب.

و«الأمل» يمنح الإنسان «المقاومة» بالضرورة، فيواصل الغريق المقاومة حتى يصل فريق الإنقاذ إليه. وعجيب أمر هذا الإنسان إذا انهار، وإذا قاوم.. فإذا انهار لا يتمكن أحد من أن يثبته أو يبني ويعيد ما ينهار منه. وقد يكون هذا الذي ينهار كيان سياسي ضخم، وليس فرداً أو جماعة. وإذا قاوم الإنسان ورزقه الله القدرة على المقاومة والصمود فلا يفتّ شيء في مقاومته وصموده ولا يضعف شيء ثباته ومقاومته. ومن العجب أن يتحول هذا الإنسان الكائن من لحم ودم وأعصاب إلى كتلة مرصوصة وقوية يتحمل من العذاب ما يتفتّت منه صلب الحديد. ولا شك في أن هذه المقاومة من الله تعالى، ولا شك في أن «الأمل» من أسباب هذه المقاومة، وهاتان معادلتان لا سبيل للتشكيك فيهما:

المعادلة الأولى: إنَّ «الإنتظار» يبعث على «الأمل»، ويخترق ظلمات اليأس التي تكتنف حياة الإنسان.

المعادلة الثانية: إن «الأمل» يمنح الإنسان «المقاومة».

النحو الثاني من الإنتظار:

وهو ما يستطيع الإنسان أن يقرّ به ويدَّعي به، كالشفاء من المرض وإنجاز مشروع عمراني أو علمي أو تجاري والإنتصار على العدو والتخلص من الفقر، فإن كل ذلك من الإنتظار، وأمر تعجيل هذه الأمور أو تأخيرها وتأجيلها بيد الإنسان نفسه.

فمن الممكن أن يعجّل بالشفاء ومن الممكن أن يؤخره أو ينفيه، ومن الممكن أن يعجّل بالمشروع التجاري أو العمراني أو العلمي أو يؤخّره أو ينفيه، أو يلغيه رأساً. ومن الممكن أن يعجّل بالنصر والغنى أو يؤخرهما أو ينفيهما رأساً.

وبهذا التقرير يختلف أمر هذا الإنتظار عن النحو الأول الذي تحدثّنا عنه، فإن بإمكان الإنسان أن يتدخل في تحقيق ما ينتظره والإسراع به أو تأجيله أو إلغائه.

ولذلك فإن الإنتظار من النوع الثاني يمنح الإنسان بالإضافة إلى «الأمل» و«المقاومة»:

«الحركة». وهذه الأخيرة، أعني «الحركة»، تخصُّ هذا النحو من الإنتظار، فإن الإنسان إذا عرف أن نجاته وخلاصه يتوقفان على حركته وعمله وجهده سوف يبذل لخلاصه ونجاته في عمله من الجهد والحركة ما لا قبل له به من قبل.

ففي الإنتظار، من النحو الأول، لم يكن بإمكان الإنسان غير «الأمل» و«المقاومة». أما الانتظار الأخير فهو يمنح الإنسان بالإضافة إلى «الأمل» و«المقاومة» «الحركة» أيضاً.

الإنتظار «حركة» وليس «رصداً»:

إن من الخطأ أن نفهم الإنتظار على أنه رصد سلبي للأحداث المتوقّعة من دون أن يكون لنا دور فيه سلباً أو إيجاباً كما نرصد خسوف القمر وكسوف الشمس، فالتفسير الصحيح للإنتظار أنه «حركة» و«فعل» و«جهاد» و«عمل»، وسوف ندخل إن شاء الله في تفاصيل هذا البحث.

ما هو السبب في تأخير «الفرج»؟

على الإجابة الصحيحة عن هذا السؤال يتوقف فهم المعنى الصحيح للإنتظار، وهل هو بمعنى «الرصد» أو«الحركة»؟

الرأي الأول:

فإذا كان السبب في تأخير الفرج بظهور الإمام ﷺ وثورته الكونية الشاملة هو أن تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً، فلا بدَّ من أن يكون الإنتظار بمعنى «الرصد»، فلا يجوز لنا أن نوسّع رقعة الظلم والجور في الأرض، ببداهة الإسلام.

ولا يصح لنا أن نكافح الظلم والجور لأن ذلك يؤدي إلى إطالة زمن الغيبة، بموجب هذه الرواية. فلا بد من أن نرصد إذن تطور الظلم والجور في حياتنا السياسية والإقتصادية والعسكرية والقضائية، حتى إذا امتلأت الأرض ظلماً وجوراً ظهر الإمامﷺ، وأعلن الثورة ضد الظالمين والفرج عن المظلومين.

الرأي الثاني:

وإذا كان السبب في تأخير الفرج هو عدم وجود الأنصار الذين يعدون المجتمع

لظهور الإمام والذين يوطئون الأرض ويمهدّونها لثورته الشاملة، ويدعمون ثورة الإمام ويسندونها، فإنَّ الأمر يختلف. فلا بدَّ من العمل والإعداد والتوطئة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإقامة سلطان الحق على وجه الأرض ليأتي الفرج بظهور الإمام عليه السلام.

وبناءً عليه لا يكون الإنتظار بمعنى «الرصد»، بل بمعنى «الحركة»، والعمل، والجهاد لإقامة سلطان الحق على وجه الأرض؛ الأمر الذي يقتضي إعداداً يوطئ الأرض لظهور الإمام وثورته الشاملة.

ويختلف معنى الإنتظار سلباً وإيجاباً بين «الرصد» و«الحركة» بناء على هذا الفهم لظهور الإمام عليه السلام وظهور الفرج على يده. ونحن نناقش الآن هذه المسألة لنصل إلى الجواب الصحيح.

نقد الرأي الأول:

لنا مجموعة ملاحظات على الرأي الأول، وهي:

1 ـ ليس معنى أن تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً هو أن يجف نبع التوحيد والعدل على وجه الأرض، ولا تبقى رقعة يعبد الناس عليها الله، فهذا أمر مستحيل وعلى خلاف سنن الله تعالى.. وإنما المقصود بهذه الكلمة طغيان سلطان الباطل على الحق في الصراع القائم بين الحق والباطل دائماً.

2 ـ ولا يمكن أن يزيد طغيان سلطان الباطل على الحق أكثر مما هو عليه الآن. فقد طغى الظلم على وجه الأرض شر طغيان، وإن الذي يجري من الظلم في أقطار العالم الإسلامي على المسلمين، في كل مكان تقريباً، أمر رهيب يدل على شيء أكثر من الظلم والجور ومن «امتلاء الأرض ظلماً وجوراً»، إنه يدلُّ، ومن دون مؤاخذة، على نضوب نبع الضمير في الأسرة الدولية المعاصرة وفي الحضارة البشرية المادية المعاصرة.

ونضوب الضمير مؤشر في تاريخ الإنسان يعقبه دائماً السقوط الحضاري الذي يعبر عنه القرآن بـ«هلاك الأمم».

و«الضمير» حاجة أساسية ورئيسية للإنسان، وكما لا يمكن أن يعيش من دون «الأمن»، ومن دون «الطب والعلاج»، ومن دون «الغذاء»، ومن دون «النظام السياسي»، ومن دون «العلم»، كذلك لا يمكن أن يعيش من دون الضمير، ومتى آل أمر هذا النبع إلى

النضوب، فإن السقوط الحضاري هو النتيجة الطبيعية لهذه الحالة، وبعد السقوط يأتي قانون «الإستبدال» و«التبديل» و«الإرث»، وهذه هي حالة قيام ثورة الإمام عليه السلام الكونية وقيام الدولة العالمية الشاملة.

3 ـ وقد كانت غيبة الإمام عليه السلام بسبب طغيان الشر والفساد والظلم، ولولا ذلك لم يغب، فكيف يكون طغيان الفساد والظلم سبباً لظهور الإمام عليه السلام وخروجه؟

4 ـ وبعكس ما يتوقعه بعض الناس يتجه العالم اليوم باتجاه سقوط المؤسسات السياسية والعسكرية والإقتصادية الظالمة. فقد شاهدنا بأعيننا كيف سقط الإتحاد السوفياتي خلال بضعة أشهر، وكان مثله مثل بناء خاوٍ، منخور من الداخل لم يتمكن أحد من دعمه وإسناده عند سقوطه.

ورياح التغيير اليوم تهب على أمريكا وتعرّضها لهزات عنيفة وقوية في اقتصادها وأمنها وأخلاقها ومصداقيتها، بوصفها دولةً كبرى.

إن النظام الجاهلي اليوم أخذ بالعد العكسي مؤذناً بالسقوط والإنهيار، فكيف نتوقع أن يزداد هذا النظام قوة وشراسة وضراوة؟

5 ـ على أن الذي يوجد في نصوص الغيبة: «**يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً**» وليس «**بعد أن ملئت ظلماً وجوراً**».

وليس معنى ذلك أن الإمام ينتظر أن يطغى الفساد والظلم أكثر مما ظهر إلى اليوم ليظهر، وإنما معنى النص أن الإمام عليه السلام إذا ظهر يملأ الأرض عدلاً، ويكافح الظلم والفساد في المجتمع، حتى يطهِّر المجتمع البشري منه كما امتلأ المجتمع البشري بالظلم والفساد من قبل.

روى الأعمش، عن أبي وائل، أن أمير المؤمنين عليه السلام قال في المهدي عليه السلام: «**يخرج على حين غفلة من الناس وإماتة من الحق وإظهار من الجور، يفرح لخروجه أهلُ السماء وسكانها، ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً**»[1] وفي رواية أخرى: «**يملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت جوراً وظلماً**» أو«**بعدما ملئت ظلماً وجوراً**»[2].

(1) بحار الأنوار للمجلسي، 51/120.
(2) منتخب الأثر، ص162.

وإن معنى جملة «**تُملأ الأرض ظلماً وجوراً**» أن يكثر الظلم والجور حتى يضج الناس منه، ويفقد الظلم غطاءه الإعلامي الذي يخرجه للناس حسناً، فيبرز للناس في صورته الحقيقية، وتفشل هذه الأنظمة في تحقيق ما تعد الناس به من خير، ويبدأ الناس بعد هذا الإحباط الواسع بالبحث عن النظام الإلهي الذي ينقذهم من هذه الإحباطات، وعن القائد الرباني الذي يأخذ بأيديهم إلى الله تعالى. وقد بدأت تتعاقب الإحباطات المتوالية في حياة الناس واحدة بعد أخرى، وكان أعظم هذه الإحباطات سقوط الإتحاد السوفياتي والهزات العنيفة التي تعرضت لها أمريكا في السنوات الأخيرة، وكل واحد من هذه الإحباطات يوجه الناس إلى النظام الإلهي والقائد الربّاني المنقذ.

هذا، على نحو الإجمال نقد الرأي الأول في أسباب تأخير الفرج. والآن نبحث في الرأي الثاني.

الرأي الثاني في أسباب تأخير الفرج:

يعتمد الرأي الثاني، في فهم أسباب تأخير الفرج وتأخير ظهور الإمام، الأسباب الموضوعية، وفي مقدمتها عدم وجود العدد الكافي من الأنصار من الناحية الكمية وعدم وجود الكيفية المطلوبة في أنصار الإمام وشيعته من الناحية الكيفية. إن الثورة التي يقودها الإمام ثورة كونية شاملة، يتولى فيها المستضعفون والمحرومون الإمامة والقيمومة على المجتمع البشري ﴿**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين**﴾[1]. يرث المستضعفون المؤمنون، في هذه المرحلة، ما كان يتداوله الطغاة في ما بينهم من السلطان والمال ﴿**ونجعلهم الوارثين**﴾، ﴿**ان الأرض يرثها عبادي الصالحون**﴾[2] ويتم لهم السلطان على وجه الأرض ﴿**ونمكن لهم في الأرض**﴾[3]، ويطهّر الإمام في هذه المرحلة الأرض كلّها من لوثة الشرك والظلم «**يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً**»، ولا يبقى، كما في طائفة من الروايات، في المشارق والمغارب، أرض لا يؤدّى فيها لا إله إلا الله.

ومحور هذه الثورة الشاملة «التوحيد» و«العدل». ومثل هذه الثورة لا بد لها من إعداد

(1) سورة القصص، الآية/5.
(2) سورة الأنبياء، الآية/105.
(3) سورة القصص، الآية/6.

واسع، وتوطئة على مستوى عالٍ من الناحيتين الكمية والكيفية، ومن دون هذا الإعداد، وهذه التوطئة لا يمكن أن تتم هذه الثورة الشاملة، في سنن الله تعالى في التاريخ.

دور السُنن الإلهية والإمداد الغيبي في الثورة:

لا تتم الثورة، في مواجهة العتاة والطغاة والأنظمة والمؤسسات الحاكمة والمتسلطة على رقاب الناس، من دون إمداد غيبي وإسناد وتأييد من جانب الله بالتأكيد. والنصوص الإسلامية تؤكد وجود هذا الإمداد الإلهي وتصف كيفيته.

إلا أن هذا المداد الإلهي أحد طرفي هذه القضية والطرف الآخر هو دور السنن الإلهية في التاريخ والمجتمع في تحقيق هذه الثورة الكونية وتطويرها وإكمالها. فإن هذه السنن لا تتبدل ولا تتغيّر **﴿سنة الله في الذين خلوا من قبلُ ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾**[1] ولا تعارض المدد والإسناد الإلهيين. وشأن هذه الثورة شأن دعوة رسول الله ﷺ إلى التوحيد، والحركة التي نهض بها ﷺ لتحقيق التوحيد في حياة الناس. فقد كانت هذه الحركة موضع الإمداد الإلهي الغيبي بالتأكيد، ونصر الله تعالى رسوله ﷺ بالملائكة المسوّمين، والمردفين والرياح وجند لم يروهم، ونصره على أعدائه بالرعب، ولكن الله تعالى أمر رسوله ﷺ بأن يعد العدة لهذه المعركة المصيرية **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾**[2].

وتمَّت مراحل هذه المعركة بموجب سنن الله تعالى في التاريخ والمجتمع، ينتصر فيها رسول الله ﷺ على أعدائه حيناً وينتكس حيناً آخر، ويستخدم الجند والمال والسلاح في هذه المعركة، ويخطط لها، ويفاجئ العدوَّ بوسائل وأساليب جديدة للقتال، ويفاجئه في الزمان والمكان، ولا يعارض شيء من ذلك الإعداد الغيبي الإلهي لرسوله ﷺ الذي لا نشك فيه، وهما وجهان لقضية واحدة.

ولا تشذ الثورة الكونية التي يقودها حفيده على الدعوة والثورة التي قادها هو ﷺ من قبل، بأمر من الله تعالى.

---

(1) سورة الأحزاب، الآية/62.

(2) سورة الأنفال، الآية/60.

ومن جملة هذه السنن التي لا بدَّ منها، في هذه الثورة الكونية، «الإعداد» و«التوطئة» قبل ظهور الإمام و«النصرة» و«الأنصار» حين ظهور الإمام عليه السلام، ومن دون هذا الإعداد والنصرة والتوطئة لا يمكن أن تتم ثورة بهذا الحجم الكبير في تاريخ الإنسان.

وهذا ما سنتعرض إليه في الدرس القادم إن شاء الله.

أسئلة حول الدرس

1 ـ هناك نحوين من الإنتظار، ما هما؟ وما هو الفارق بينهما؟

2 ـ أذكر ثلاثة أدلة ترد فيها مزاعم من اعتبر أن ظهور الحجة عليه السلام يستلزم ترك الأرض تمتلأ ظلماً وجوراً؟

3 ـ ما هي أسباب تأخر الفرج برأيك؟ كيف تستدل على ذلك بالآيات، ومن خلال السنن الإلهية؟

28

الموطئون والأنصار

ونحن، في ما يلي، نستعرض طائفتين من النصوص تختصٌّ أولاهما بـ«الإعداد» و«التوطئة» والأخرى بـ«الأنصار» لنتأمل فيهما إن شاء الله.

والطائفة الأولى من النصوص هي النصوص المتعلقة بـ«الموطِّئين»، وهم الجيل الذي يُعدٌّ الأرض والمجتمع لظهور الإمام، وثورته الكونية الشاملة. وهذا الجيل بطبيعته يسبق ظهور الإمام عليه السلام، والطائفة الثانية من النصوص تخص «الأنصار»، وهم الجيل الذي ينهض بهم الإمام عليه السلام. ويقود بهم الثورة على الظالمين. إذن نحن بين يديّ جيلين:

1 ـ جيل «الموطِّئين» الذي يمهِّدون الأرض لظهور الإمام.

2 ـ جيل «الأنصار» الذي ينهض بهم الإمام عليه السلام، ويثور بهم على الظالمين. وفي ما يلي نستعرض، إن شاء الله، هاتين الطائفتين من النصوص.

جيل «الموطِّئين» في النصوص الإسلامية:

تضافرت طائفة من النصوص الإسلامية، من الفريقين (الشيعة والسنّة)، عن جيل الموطِّئين الذين يوطئون الأرض لدولة الإمام المهدي، وقد حددت هذه النصوص عدداً من الأقاليم الإسلامية المعروفة لهذا الجيل، وأهم هذه الأقاليم التي تخص جيل الموطِّئين هي: المشرق وخراسان (ويظهر أن المشرق هو خراسان) وقم، وري، واليمن، وفي ما يلي النصوص التي تخص جيل الموطِّئين في هذه الأقاليم:

1 ـ الموطئون في المشرق:

روى الحاكم، في مستدرك الصحيحين، عن عبد الله بن مسعود، قال: أتانا رسول الله ﷺ فخرج إلينا مستبشراً يُعرف السرور في وجهه، فما سألناه عن شيء إلا أخبرنا به ولا سكتنا إلا ابتدأنا حتى مرَّ فتيةُ من بني هاشم منهم الحسن والحسين عليهما السلام، فلما

رآهم التزمهم وانهملت عيناه، فقلنا يا رسول الله، ما نزال نرى في وجهك شيئًا نكرهه؟

فقال ﷺ: «**إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإنه سيلقى أهل بيتي من بعدي تطريداً وتشريداً في البلاد حتى ترتفع رايات سودٌ في المشرق، فيسألون الحق لا يعطونه، ثم يسألونه فلا يعطونه، ثم يسألونه فلا يعطونه . فيقاتلون . فينصرون. فمن أدركه منكم ومن أعقابكم فليأت إمام أهل بيتي، ولو حبواً على الثلج فإنها رايات هدى، يدفعونها إلى رجل من أهل بيتي**»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**كأني بقوم قد خرجوا بالمشرق يطلبون الحق فلا يعطونه ثم يطلبونه، فإذا رأوا ذلك وضعوا سيوفهم على عواتقهم فيعطون ما شاءوا فلا يقبلونه حتى يقوموا ولا يدفعونها إلا إلى صاحبكم** (أي الإمام المهدي عليه السلام) **قتلاهم شهداء**»[2].

2 . الموطئون من خراسان:

عن محمد بن الحنفية، والرواية موضوعة، ولكن يبدو أنها عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**ثم تخرج راية من خراسان يهزمون أصحاب السفياني حتى تنزل ببيت المقدس توطئ للمهدي سلطانه**»[3].

3 . الموطئون من «قم» و«ري»:

روى المجلسي في بحار الأنوار: «**رجل من قم يدعو الناس إلى الحق يجتمع معه قوم قلوبهم كزبر الحديد، لا تزلّهم الرياح العواصف، لا يملّون من الحرب ولا يجبنون وعلى الله يتوكلون والعاقبة للمتقين**»[4].

4 . الموطئون من اليمن:

عن الإمام الباقر عليه السلام في قيادة اليماني قبل ظهور الإمام: «**وليس في الرايات أهدى من راية اليماني، هي راية هدى لأنه يدعو إلى صاحبكم**»[5].

---

(1) مستدرك الصحيحين للحاكم النيشابوري، 4464، 535.

(2) بحار الأنوار، 52/243، في هذا الحديث، تعني السلاح.

(3) عصر الظهور، ص206.

(4) بحار الأنوار، 60/216.

(5) م. ن، 52/232.

الدلالات:

1. الجيل الصلب:

وأوَّل ما يلفت النظر في هذا الجيل هو الصلابة والقوة والإستحكام، فهو جيل صعب، شديد المراس، يوطئ الأرض لظهور الإمام، ويواجه وحده طواغيت الأرض. والإمام الصادق عليه السلام يفسر، كما في رواية محمد بن يعقوب الكليني قوله تعالى: ﴿**فإذا جاء وعدُ أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد**﴾[1] بهذا الجيل، وتصفهم الرواية بهذا الوصف العجيب: قلوبهم كزبر الحديد، لا تزلهم الرياح العواصف، إنها قلوب ومن طبيعة القلوب اللين والرقة، ولكّن هذه القلوب تتحول في مواجهة الطغاة والعتاة إلى زبر من الحديد لا تلين ولا ترق. إن الصَّلابة والقوة من خصائص الأجيال التي يحمّلها الله تعالى مسؤولية التغيير، والثورة، ومن خصائص الأجيال التي يضعها الله تعالى في منعطفات التاريخ الكبرى لنقل الناس من مرحلة إلى مرحلة، وهذا الجيل يحمل هذه الخصائص.

2. جيل التحدي والتمرُّد:

ومهمة هذا الجيل هي تحدِّي «النظام العالمي» والتمرُّد عليه، وما أدراك ما النظام العالمي وكيف صمّم على خدمة القوى الكبرى ومن دار في فلكها والإحتفاظ بمراكز القوة والمواقع الإستراتيجية لها في مختلف مناطق الأرض. إنّها مسؤولية شاقة وعسيرة ودقيقة يتعهد بها هذا النظام على مستوى العالم كلّه، وليس على مستوى منطقة أو إقليم من الأرض فحسب.

إن هذا النظام يتكون من مجموعة من المعادلات والموازنات السياسية والإقتصادية والعسكرية والإعلامية الدقيقة، ومن أنظمة أعضاء الأسرة الدولية ومن مجموعة من الخطوط الحمراء والخضراء والصفراء فيما بين هذه الأنظمة وهذه المجموعة من الإتفاقات والتنازلات وتنظيم الأدوار واقتسام الموارد والأسواق ومصادر الثروة ومناطق النفوذ، أقول: إنّ هذه المجموعة المعقدة تمكّن القوى الكبرى من السيطرة على الوضع العالمي، وهؤلاء الشباب من جيل الموطّئين يخترقون ببساطة ومن دون تردد هذه الخطوط

(1) سورة الإسراء، الآية/5.

الحمراء، ويغيّرون هذه المعادلات والموازنات التي يتفاهم عليها الجميع ويتلقونها بالقبول والإحترام، ويفسدون على هذه الأنظمة والمؤسسات الدولية استقرارها وتوازنها وهيبتها الدولية. ولا سبيل لها على هؤلاء الشباب، ولا تستطيع أن تتحملهم ولا تتمكن من أن تدفعهم. فإن أكثر قوة هذه الأنظمة وهيبتها الدولية في مواجهة الأنظمة ومؤسسات من مثلها، وأقوى ما تملك من السلاح هو القتل والسجن والتعذيب والمطاردة.

وهؤلاء لا يخافون شيئاً من ذلك ولا يرهبهم شيء من ذلك.

والوصف الموجود في الرواية دقيق، في وصف هذا الجيل: «**لا تزلهم الرياح العواصف، لا يملّون من الحرب ولا يجبنون وعلى الله يتوكلون والعاقبة للمتقين**». إن الذي لا يجبن لا يمل الحرب ولا تزله الرياح العواصف بطبيعة الحال، وقوة هؤلاء وميزتهم أنهم لا يجبنون، وهذه هي مشكلتهم في حساب الأنظمة والقوى الكبرى.

في موسم الإنتخابات العامة للرئاسة الأمريكية، في عهد الرئيس الأمريكي الأسبق، جرى حوار تلفزيوني ضمن النشاط الإعلامي الذي يقوم به عادة المرشحون للرئاسة الأمريكية، بين الرئيس الأمريكي الأسبق كارتر والمرشح الآخر المنافس له على الرئاسة، فقال له هذا الأخير: إنَّ أمريكا خسرت الكثير من هيبتها الدولية في حادث تفجير مقر القوات البحرية الأمريكية في بيروت (المارينز) وتتحمل أنت ـ مخاطباً الرئيس الأمريكي ـ مباشرة مسؤولية هذه الخسارة بالكامل، فقال له الرئيس الأمريكي بالحرف الواحد: وماذا تراني قادراً أن أفعل في مواجهة إنسان جاء هو ليطلب الموت!؟ إن أقصى ما نتمكن منه هو أن نردع الناس بالرعب والإرهاب من أمثال ذلك، فإذا كان الذي يقوم على هذا التفجير هو من يطلب الموت ويلقي بنفسه على الموت فماذا تراني قادراً أن أفعل في ردعه؟ وماذا كنت تفعل أنت لو كنت في مثل موقعي في هذا الظرف!؟.

هذه هي بعض ملامح جيل التحدي الذي برز في مواجهة الأنظمة والقوى الكبرى.

3ـ ردود الفعل العالمية:

وردود الفعل العالمية تجاه هذا الجيل، كما تصرح به هذه النصوص، ردود فعل غاضبة وساخطة، لأن هذا الجيل يعرّض هذه المعادلات والموازنات لهزات عنيفة وحقيقية، ولذلك فإن ردود الفعل العالمية تجاهه تتسم بالغضب والسخط دائماً.

روي عن أبان بن تغلب عن الإمام الصادق عليه السلام: **«إذا ظهرت راية الحق لعنها أهل الشرق وأهل الغرب. أتدري لم ذلك؟ قلت: لا. قال: للذي يلقى الناس من أهل بيته قبل ظهوره»**[1].

وأهل بيته قبل ظهوره، عادة، هم الموطئون الذين يثيرون المتاعب لهذه الأنظمة والمؤسسات ويسلبون استقرارها وراحتها.

وروى ثقة الإسلام الكليني في الكافي (كتاب الروضة) في تفسير قوله تعالى: **﴿بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد﴾**، وعن الإمام الصادق عليه السلام، قال: **«قوم يبعثهم الله قبل خروج القائم فلا يدعون واتراً لآل محمد، إلاّ قتلوه»**.

وردود الأفعال العالمية، المذكورة في هذه النصوص، تشبه إلى حد كبير ردود الأفعال العالمية اليوم تجاه الصحوة الإسلامية التي يسمونها بـ«الأصولية الإسلامية» وينعتونها بالإرهاب وبأقسى النعوت.

مشروع التوطئة:

توطئة الأرض لثورة الإمام عليه السلام مهمة واسعة وكبيرة، ومعقدة ينهض بها هذا الجيل في مواجهة عتاة الأرض وطغاتها المستكبرين وأئمة الكفر.. وهؤلاء العتاة يعدّون جميعاً جبهة سياسية عريضة، رغم كلّ التناقضات القائمة في ما بينهم، وهي جبهة تملك الكثير من أسباب القوة من المال والسلطان السياسي والجيش والإعلام والعلاقات والنظم، وتستخدم جميع هذه الأسباب في ضرب الصحوة الإسلامية الناشئة وإجهاضها. ولا بد لهذا الجيل الذي ينهض بمشروع إعداد الأرض لظهور الإمام من أن يواجه هذه القوة بالآلية نفسها التي تستخدمها جبهة الإستكبار العالمية وتزيد عليها بالتربية الإيمانية والجهادية والتوعية السياسية. وعليه فإنّ مشروع التوطئة الذي ينهض به جيل الموطئين يتكون من بُعدين:

البعد الأول: التربية الإيمانية والجهادية والتوعية السياسية، وهذا ما تفقده الجبهة المقابلة.

(1) م. ن، 52/63.

البعد الثاني: الآلية السياسية والعسكرية والإقتصادية والإدارية والإعلامية التي لا بد منها في مثل هذه المعركة.

وليس من شك في أن الفئة المؤمنة التي تعدُّ الأرض لظهور الإمام لا بدّ لها من إعداد هذه القوة، وإن كانت لا تستطيع أن تكافئ الجبهة العالمية المضادة.

ولا بدَّ ليقرب ظهور الإمام من تحقيق هذه القوة على وجه الأرض، ومن دون ذلك لا تتهيأ الأسباب الطبيعية لظهور الإمام.. والإعداد لهذه القوة يحتاج إلى عمل وحركة في واقع الحياة ولا يغني «الرصد» و«الإنتظار» عنها شيئاً.

جيل الأنصار في الروايات الإسلامية:

جيل الموطئين يسبق جيل الأنصار، وأفراد هذا الجيل هم تلامذة الجيل الذي يسبقهم، ويتميزون منه بمزايا وقيم يتفردُّون بها. ونحن سوف نستعرض النصوص الواردة في نموذج واحد فقط من هذا الجيل، وهو شاب «الطالقان»، هذه الروايات وردت بأسانيد الفريقين: السنة والشيعة وطرقهم.

شباب الطالقان:

وسوف نستعرض الروايات التي رواها المحدثون، من السنّة والشيعة، والمتعلقة بـ«شباب الطالقان».

روى المتقي الهندي في «كنز العمال» والسيوطي في «الحاوي» في أنصار الإمام من «الطالقان»: «**ويحاً للطالقان، فإن لله عز وجل بها كنوزاً ليست من ذهب ولا فضة، ولكن بها رجال عرفوا الله حق معرفته وهم أنصار المهدي**»[1].

وفي «ينابيع المودة» للقندوزي: «**بخٍ بخٍ للطالقان**»[2].

روى المجلسي في بحار الأنوار: «**له كنز بالطالقان ما هو بذهب ولا فضة، وراية لم تنشر مُذ طويت، ورجال كأن قلوبهم زبر الحديد لا يشوبها شكُ في ذات الله أشدُّ من**

(1) كنز العمال للمتقي الهندي، 7/26.

(2) ينابيع المودة للقندوزي، ص449.

الجمر، ولو حُملوا على الجبال لأزالوها. لا يقصدون براياتهم بلدة إلا خرّبوها كأن على خيولهم العقبان، يتمسحون بسرج الإمام يطلبون بذلك البركة، ويحفون به ويقونه بأنفسهم في الحروب. يبيتون قياماً على أطرافهم ويصبحون على خيولهم. رُهبان بالليل ليوث بالنهار. هم أطوع من الأمة لسيدها، كالمصابيح كأن في قلوبهم القناديل وهم من خشيته مشفقون. يدعون بالشهادة ويتمنون أن يقتلوا في سبيل الله. شعارهم: يا لثارات الحسين، إذا ساروا يسير الرعب أمامهم مسيرة شهر يمشون إلى المولى إرسالاً، بهم ينصر الله إمام الحق»[1].

أصحاب الإمام شباب:

والروايات تشير إلى أن الغالب من أصحاب الإمام من الشباب ولا يوجد فيهم من الكهول والشيوخ إلا نادراً.

روى المجلسي في البحار: «**أصحاب المهدي شباب لا كهول فيهم إلا كمثل كحل العين**»[2].

عدد قادة أنصار الإمام:

روى المجلسي في بحار الأنوار: «**فيجمع الله عليه أصحابه، وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، ويجمعهم عليه على غير ميعاد فيبايعونه بين الركن والمقام، ومعه عهد من رسول الله ﷺ قد توارثته الأنبناء عن الآباء**»[3].

وفي أغلب الروايات أن هذا العدد الذي يبايع الإمام، بين الركن والمقام، هو عدد قادة جيش الإمام.

الدلالات والتأملات:

ولا بد من أن نشير، قبل أن ندخل في التأملات والدلالات، إلى أنَّ اللغة المألوفة

---

(1) بحار الأنوار، 52/307.
(2) م.ن، 52/334.
(3) م.ن، 52/238، و239.

وقت صدورها لغة رمزية، فالسيوف هي الأسلحة، والخيول هي مراكب القتال، كما أن الوصف بـ«رهبان بالليل ليوث بالنهار» تعبير رمزي ومجازي من العبادة والتهجد في الليل والشجاعة والجرأة في النهار.

وهذه لغة معروفة لمن يألف طريقة التعبير في النصوص والروايات الإسلامية، والآن نبدأ بالحديث عن الدلالات والتأملات في هذه الروايات.

كنوز ليست من ذهب ولا فضة:

1. أنصار الإمام كنوز:

والكنز هو الثروة المخبوءة يجهل الناس مكانها، وقد يكون الكنز في بيت الإنسان وتحت قدميه أو في أرضٍ مجاورة لبيته أو في مدينته، ولكنه يجهله وأنصار الإمام كنوز مخبأة، قد يكون أحدهم في بيت أحدنا أو بجواره أو في مدينته، وهو لا يعرفه وقد يزدريه، وتحتقره عيون الناس التي لا تعرف أن تنفذ إلى الأعماق لتعرف الكنوز، إنّ هذه البصيرة واليقين والإقبال على الله والشجاعة والجرأة والذوبان في ذات الله التي يتصف بها هؤلاء لا تتكون دفعةً بل كانت موجودة في نفوس هؤلاء الشباب إلا أنها كانت خافية عن أعين الناس، كما تختفي الكنوز عن العيون.

2. القوة والوعي:

يقول تعالى، في صفة عباده الصالحين إبراهيم وإسحاق ويعقوب، عليهم السلام: ﴿**واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ❁ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ❁ وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار**﴾[1]. وهذا من أروع الوصف.

فإنه لا بد للبصيرة من قوة، ومن دون القوة تضيع البصيرة وتخمد ولا يحمل البصيرة إلا المؤمن القوي فإذا ضعف فقد البصيرة، ولا بدّ للقوة من بصيرة، فإن القوة من دون بصيرة تتحول إلى لجاج وعناد واستكبار، ويصف الله تعالى إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام بأنهم أولي «الأيدي» و«الأبصار» أي القوة والبصيرة. وتشير النصوص التي قرأنا طائفة منها قريباً أن أنصار المهدي عليه السلام أولو الأيدي والأبصار.

(1) سورة صاد، الآيات/45ـ47.

3. الوعي والبصيرة:

وتعبير الرواية عن حالة الوعي والبصيرة، لدى أنصار الإمام، تعبير عجيب «**كالمصابيح كأن في قلوبهم القناديل**»، وهل يمكن أن يخترق الظلام القنديل؟ قد يحاصر الظلام القناديل ولكنَّه لا يستطيع أن يخترقها.

وأنصار الإمام لا ينفذ إلى نفوسهم ووعيهم الشكُّ والريب، مهما تكاثفت ظلماتهما ومهما تعاقبت الفتن. لذلك لا يدخلهم الشك ولا يترددون ولا يتراجعون ولا ينظرون وراءهم إذا مضوا في الطريق، والتعبير في الرواية: «**لا يشوبها شك في ذات الله**» هو أمر غير الشك، إنَّه خليط من الشك واليقين، أو لحظات من الشك تخترق حالات اليقين ولا تثبت لليقين الذي يهزمها، وهذا أمرٌ يحصل للكثير من المؤمنين، إلا أنَّ أنصار الإمام لا يشوب يقينهم شك، يقين خالص من دون شائبة من الشك والريب.

4. عزم نافذ:

وهذه البصيرة تمنحهم عزماً نافذاً لا تردد ولا تراجع فيه، والتعبير عن هذا العزم بـ«الجمر» تعبير رائع ومعبر، فإن الجمر ينفذ ويخترق ما دام ملتهباً، والتعبير هكذا «**أشد من الجمر**» هو أروع تعبير أعرفه عن نفوذ العزم، ولست أدري ما أودع الله تعالى في نفوس شباب الطالقان من كنوز الوعي واليقين والعزم والقوة فإن التعبيرات الواردة في هذا النصّ تعابير غير مألوفة كأنَّ الحديث عنهم حديث وجد وهيام «زبر الحديد كالمصابيح، كأن في قلوبهم القناديل، أشد من الجمر، رهبان بالليل ليوث بالنهار» وكأن النص يستفرغ كلَّ ما في وسع اللغة لتتمكن من التعبير عن وعي هؤلاء الشباب وبصيرتهم وقوتهم ونفوذ عزمهم.

5. القوة:

ويصف النص شباب الطالقان بقوة هائلة لا عهد لنا بها في من نعرف من الشباب تأملوا هذه العبارة: «**كأنَّ قلوبهم زبر الحديد**».

أرأيت أحداً يتمكن من أن يصهر أو يكسر أو يلين زبر الحديد بقبضة يده؟ «**لو حملوا على الجبال لأزالوها، لا يقصدون، براياتهم بلدة إلاّ خربوها كأنَّ على خيولهم العقبان**».

هذه تعابير عجيبة تنبئ عن قوة هائلة، وهذه القوة ليست من نوع القوة التي يملكها طواغيت الأرض، وإنما هي قوة عزم وإرادة وقوة يقين.

6. الإستماتة وحب الشهادة:

«**يدعون بالشهادة ويتمنون أن يقتلوا في سبيل الله**». إن الموت الذي يرعب الشيوخ في التسعينات، وبعد المائة من أعمارهم، وقد فقدوا جميع لذات الحياة وشهواتها.. أقول إن الموت الذي يرعب الشيوخ يهيم به هؤلاء الشباب وهم في غضاضة العمر، وحبّ الشهادة ينبع من أمرين وينتج أمرين في حياة الناس.

أما الأمران اللذان هما مصدر حبّ الشهادة في النفس فهما الإعراض عن الدنيا والإقبال على الله، فإذا كافح الإنسان حبَّ الدنيا في قلبه وأزال منه التعلّق والإغترار بها فقد قطع الشوط الأول من الطريق وهو أشقُّ الشوطين. والشوط الآخر هو أن يتعلق القلب بحبّ الله تعالى ويهيم بذكره وحبّه، وينصرف صاحبه إلى الله تعالى بكل قلبه ووجهه، وهؤلاء لا يهمهم من أمر الدنيا شيء يعيشون مع الآخرين في الدنيا ويحضرون معهم الأسواق والإجتماعات غير أنهم غائبون عنها بقلوبهم، ويصدق فيهم الحاضر الغائب هؤلاء المستميتون الذين يُحبّون الموت الذي يخيف الناس ويدعون بالشهادة ويجدون فيها لقاء الله ويشتاقون إليها كما يشتاق الناس إلى لذاتهم في الدنيا أو أعظم من شوق الناس إلى لذاتهم من الدنيا.

وقليل من الناس من يفهم هؤلاء، أما الناس في الغرب فلا سبيل لهم إلى أن يفهموهم. فهم يصفونهم حيناً بالإنتحاريين، والمنتحر هو الذي يملُّ الدنيا وينتهي فيها إلى طريق مسدود، وهؤلاء الشباب يجدون أبواب الدنيا أمامهم مفتوحة، تضحك لهم الدنيا وتظلل عليهم بكل بهجتها وزينتها وإغرائها. فلم يملوا الدنيا ولم يصلوا فيها إلى طريق مسدود، وإنما أعرضوا عنها، لأنهم اشتاقوا إلى لقاء الله، ويصفونهم بالإرهاب، وهؤلاء ليسوا بإرهابيين ولو قالوا إنهم لا يخافون الإرهاب لكانوا أقرب إلى الواقع. وهذان هما مصدر حب الشهادة والقتل في سبيل الله. أما الذي ينتج عن حب الشهادة فهو العزم والقوة، إن المستميت الذي تمكن من أن يحرر نفسه من الدنيا يجد في نفسه من العزم والقوة ما لا يجده سائر الناس. وهذان، أي العزم والقوة، لا علاقة لهما بما

في أيدي الناس من الجبهة الأخرى من أسباب القوة المادية، من دون أن ننفي ضرورة تلك الأسباب وأهميتها في ظهور الإمام وقرب الفرج.

7. تعادل الشخصية:

«**ليوث بالليل رهبان بالنهار**». من أبرز معالم هذا الجيل التعادل في الشخصية، وهذا سر قوتهم ونفوذهم، تعادل بين الدنيا والآخرة، وتعادل بين القوة والبصيرة. والله تعالى يحب هذه الموازنة والتعادل، ويكره الإفراط والتفريط والجنوح إلى اليمين واليسار. يقول تعالى: ﴿**وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا**﴾[1]. ويقول تعالى في ما يعلمنا من الدعاء: ﴿**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة**﴾[2]. ويقول تعالى: ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسُوراً**﴾[3].

ومن هذه الموازنة التعادل بين الخشوع والعبودية لله والتذلل للمؤمنين والصرامة والقوة مع الكافرين ﴿**أذلةٍ على المؤمنين أعزة على الكافرين**﴾[4]، ومن هذه الموازنة التعادل بين الإتّكال على الله والجهد والعمل والتخطيط. ويصف أمير المؤمنين عليه السلام لهمَّام (رحمه الله)، كما في رواية الشريف الرضي، أطرافاً من هذه الموازنة والتعادل في شخصية «المتقين»، فيقول: «**فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين وحزماً في لين وعلماً في حلم وقصداً في غنى وتجملاً في فاقة وصبراً في شدة. يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، ويبيت حذراً ويصبح فرحاً، يمزج الحلم بالعلم والقول بالعمل، في الزلازل وقور وفي الرخاء شكور، نفسه منه في عناء والناس منه في راحة**»[5]. وهذه الموازنة من الملامح الواضحة في شخصية أنصار الإمام.

8. رهبان بالليل ليوث بالنهار:

وإلى هذه الموازنة تشير الرواية «**رهبان بالليل وليوث بالنهار**». وللليل والنهار دوران مختلفان في بناء شخصية الإنسان. ولكّن هذين الدورين متكاملان يكمّل أحدهما الآخر

(1) سورة القصص، الآية/77.
(2) سورة البقرة، بالآية/201.
(3) سورة الإسراء، الآية/29.
(4) سورة المائدة، الآية/54.
(5) نهج البلاغة، خطبة المتقين.

ولا بد منهما معاً في بناء شخصية الإنسان المؤمن الداعية والمجاهد، فلولا قيام الليل لم يثبت الإنسان في مواجهة العقبات الصعبة في النهار ولم يتمكن من مواصلة الحركة على طريق ذات الشوكة في النهار. ولولا حركة النهار لعزل الليل صاحبه من القيام برسالة الدعوة إلى الله في وسط المجتمع، وفقد الإنسان دوره الثاني في الحياة الدنيا بعد عبودية الله، وهو الدعوة إلى عبودية الله.

وفي القرآن تأكيد على دور الليل في إعداد الإنسان للدعوة إلى الله والإهتمام به. ومن أوائل ما نزل على رسول الله ﷺ، في بدء الدعوة والوحي، سورة المزمل المباركة التي يدعو الله تعالى فيها نبيه إلى أن يعد نفسه في الليل إعداداً لتحمل القول الثقيل في النهار. يقول تعالى مخاطباً نبيه: **﴿يا أيها المزمّل ❁ قُم الليل إلا قليلاً ❁ نصفه أو انقص منه قليلاً ❁ أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً ❁ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ❁ إن ناشئة الليل هي أشدّ وطأً وأقوم قيلاً إن لك في النهار سبحاً طويلاً﴾**[1]. والتعبير عن الليل بالناشئة دقيق ومعبر، فإنه ينشىء الإنسان الذي يقيمه إنشاءً ويصنعه صنعاً للأعمال الصعبة ويوطىء شخصيته ويعدها إعداداً للمهام الكبيرة ويقوّم سلوكه. وقوله **﴿قيلا﴾** يعني تقويماً: **﴿إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً﴾**.

وفي خطبة المتقين يصف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لهمّام (رحمه الله)، كما في رواية الشريف الرضي، شطري حياة المتقين وهما الليل والنهار فاستمع إليه: «**أما الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلاً، يحزّنون به أنفسهم يستثيرون به دواء دائهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم أما النهار فحلماء علماء أبرار أتقياء، قد براهم الخوف بري القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، ويقول: لقد خولطوا ولقد خالطهم أمرٌ عظيم**».

إن الليل والنهار شطرا حياة الإنسان وهما يتكاملان، ولليل رجال ودولة، وللنهار

---

(1) سورة المزمل، الآيات/1ـ7.

رجال ودولة، ورجال النهار تتقصهم دولة الليل، ورجال الليل تنقصهم دولة النهار في الدعوة إلى الله وإقامة الحق وتعبيد الناس لله، وأنصار الإمام المهدي عجل الله فرجه رجال الليل والنهار، وآتاهم الله دولة الليل والنهار.

سمة العبيد من الخشوع عليهم لله إن ضمتهم الأسحار
فإذا ترجلت الضحى شهدت لهم بيض القواضب أنهم أحرار

ولولا أنهم رجال دولة الليل لم يتمكنوا من مواجهة طغاة الأرض بمفردهم، ولولا أنهم رجال النهار لم يتمكنوا من تطهير الأرض من لوثة الشرك وإقامة التوحيد والعدل على وجه الأرض، ولو لم يكونوا من رجال النهار لم يحكّموا التوحيد والعدل في حياة الناس.

ولم لم يكونوا من رجال الليل أخذهم الغرور وشط بهم عن الصراط المستقيم.

مرحلتان أم جيلان:

إذن نحن أمام جيلين، أولهما جيل يشهد سقوط التجربة الإشتراكية الماركسية، والتجربة الديمقراطية الرأسمالية وانهيارهما ويوطىء الأرض لظهور الإمام عجل الله فرجه، وهو «جيل الموطئين»، وثانيهما جيل ينهض بنصرة الإمام عليه السلام ويقاتل بين يديه، وهو«جيل الأنصار». هل هما جيلان فقط أم جيلان ومرحلتان من التاريخ؟ لست أعلم، ولكن من المستبعد أن يتم هذا العمل العظيم في جيل واحد.

أسئلة حول الدرس



1 ـ من هم الموطئون وأين يتواجدون؟

2 ـ ما هي صفات جيل الموطئين؟

3 ـ ما هي أهم مميزات أنصار الإمام عليه السلام؟ وما المقصود من تعادل الشخصية بالتفصيل؟

29

واجبات الإنتظار

واجبات مرحلة «الإنتظار» ومسؤولياتها:

نحن الآن نعيش في مرحلة «الإنتظار»، وقد تكون أطول مرحلة في تاريخ الإسلام، فما هي أهم واجباتها ومسؤولياتها؟ في ما يأتي عرض موجز لتلك الواجبات والمسؤوليات:

أولاً ـ «الوعي»:

والوعي على أنحاء:

أ. وعي التوحيد، وأن الكون كلّه من الله وكل شيء مسخر بأمره، وهو قادر على كل شيء، وكل شيء في السماء والأرض جند مسخر له لا يملك من أمره شيئاً.

ب. وعي وعد الله وسط الأجواء السياسية الضاغطة وفي مرحلة الضعف والإنحسار، وفي أجواء النكسة. وإن من أشق الأمور في مثل هذه الأجواء الضاغطة أن يتلقى الإنسان بوعي قوله تعالى: **﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾**[1]، وقوله تعالى: **﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض﴾**[2]، وقوله تعالى: **﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾**[3]، وقوله تعالى: **﴿لأغلبن أنا ورسلي﴾**[4]، وقوله تعالى: **﴿ولينصرن الله من ينصره﴾**[5].

ج. وعي دور الإنسان المسلم على وجه الأرض وهو القيمومة، والشهادة والإمامة للبشرية. يقول تعالى: **﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾**[6].

---

(1) سورة آل عمران، الآية/139.
(2) سورة القصص، الآيتان/5-6.
(3) سورة الأنبياء، الآية/105.
(4) سورة المجادلة، الآية/21.
(5) سورة الحج، الآية/40.
(6) سورة البقرة، الآية/143.

د ـ وعي ودور هذا الدين في حياة البشرية في إزالة الفتنة والعوائق من طريق الدعوة يقول تعالى: **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾**[1].

هـ ـ وعي السنن الإلهية لتاريخ والمجتمع وضرورة الإعداد والتمهيد والحركة والعمل ضمن هذه السنن واستحالة اختراقها، ولذلك يأمر الله تعالى المسلمين بالإعداد لهذه المعركة الفاصلة **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾**[2].

ثانياً ـ «الأمل»:

وعندما يكون الأمل موعد لعباده وبحوله وقوته وسلطانه فإنه لا ينفد، ولا يخيب صاحبه. وبهذا الأمل يشد الإنسان المسلم حبله بحبل الله بحول الله، ومن يشد حبله بحبل الله فلا نفاد لأمله وقوته وسلطانه.

ثالثاً ـ «المقاومة»:

والمقاومة نتيجة الأمل، إن الغريق الذي ينظر إلى فريق الإنقاذ يتقدم إليه يغالب أمواج الماء، ويجد في عضلاته قوة فوق العادة لمغالبتها.

رابعاً ـ «الحركة»:

والحركة هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، وإعداد الأرض لظهور الإمام وقيام دولته العالمية، وإعداد جيل مؤمن يتولى نصرة الإمام والإعداد لظهوره وعياً وإيماناً وتنظيماً وقوة.

خامساً ـ الدعاء لظهور الإمام عليه السلام:

ولا شك في أن الدعاء مع العمل والحركة وإلى جنب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عوامل تقريب ظهور الإمام.

وقد وردت أدعية كثيرة في أمور ظهور الإمام وفي ثواب الإنتظار، منها هذا الدعاء الذي يردده المؤمنون كثيراً: (**اللهم كن لوليك الحجة ابن الحسن، صلواتك عليه وعلى آبائه في هذه الساعة وفي كل ساعة، ولياً وحافظاً وقائداً وناصراً ودليلاً وعيناً حتى تسكنه أرضك طوعاً وتمتعه فيها طويلاً**).

---

(1) سورة البقرة، الآية/193.

(2) سورة الأنفال، الآية/60.

شكوى ودعاء:

وفي دعاء الإفتتاح، المنقول عن الحجة ﷺ، تقرأ هذه الشكوى المرة، وهذا الدعاء العذب: (**اللهم إنا نشكو إليك فقد نبينا وكثرة عدونا وقلة عددنا وشدة الفتن بنا وتظاهر الزمان علينا.. اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة تعز بها الإسلام وأهله وتذل بها النفاق وأهله، وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة**).

الإنتظار الموجّه:

إذن الإنتظار انتظاران: الإنتظار الواعي والموجّه والإنتظار غير الموجّه، والثاني هو «الرصد» الساذج لعلامات الظهور: الصيحة، الخسف، ظهور السفياني، الدجال. ولست أنفي هذه العلامات، فقد وردت فيها روايات كثيرة في مجموعة روايات «الملاحم»، ورغم أن هذه الروايات لم تدرس حتى الآن دراسة سندية بصورة علمية دقيقة، إلا أنني متأكد سلفاً من صحة طائفة منها. ولكنني في الوقت نفسه أعارض أسلوب «الرصد» في مسألة الإنتظار، وأعتقد أن هذا الأسلوب يحرف الأمة عن واجباتها ومسؤولياتها في مرحلة الإنتظار والأسلوب الصحيح في الإنتظار.

أمّا الأول فهو «الإنتظار الموجّه». وفي الإنتظار الموجّه العمل والحركة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله والجهاد. وهذا هو العلامة الكبرى لظهور الإمام والعامل الأكبر لذلك لأن الأمر يرتبط بسلسلة من السنن الإلهية الموضوعية في التاريخ والمجتمع، وهذه السنن لا تتحقق إلاّ بالعمل والحركة، والعلامات المذكورة في الروايات صحيحة على نحو الإجمال، ولكنها في رأيي غير موقوتة بوقت خاص، وقد وردت روايات تصرح بتكذيب الوقاتين.

يقول عبد الرحمن بن كثير: كنا عند أبي عبد الله عليه السلام إذ دخل عليه مهزم، فقال له: جعلت فداك أخبرني عن هذا الأمر الذي ننتظر متى هو؟ فقال عليه السلام: «**يا مهزم، كذب الوقاتون وهلك المستعجلون**»[1].

(1) إلزام الناصب، 1/260.

ويسأل فضيل بن يسار الإمام الباقر عليه السلام: ألِهذا الأمر وقت؟ فقال عليه السلام: «**كذب الوقاتون**»[1].

إذن، لا تغني هذه العلامات التوقيت الدقيق لظهور الإمام. والصحيح أنها مرتبطة بأعمالنا، فصحيح أن الخسف والصيحة من علامات الظهور، ولكن عملنا هو الذي يقربهما ويبعدهما. وهذا تصحيح وتوجيه ضروري لا بد منه لمفهوم الظهور. وهذا هو «الإنتظار الموجه».

تصحيح مفهوم الإنتظار:

نحن اليوم نعيش في عصر يكثر فيه الحديث عن ظهور الإمام، ولست أعرف في عصور تاريخنا القريب والبعيد كان الحديث عن ظهور الإمام ودولته يأخذ من اهتمام الناس هذا المأخذ القوي.

إذن «الإنتظار» سمة بارزة من سمات عصرنا. ولكن، مع الأسف، لم يجر تصحيح وتوجيه على مستوى الجمهور لمسألة الإنتظار، ويبحث شبابنا عن ظهور الإمام عجل الله فرجه وعلامات ظهوره في بطون الكتب، وفي رأيي أنه اتجاه غير صحيح، والصحيح أن نبحث عن ظهور الإمام والثورة الكونية التي يقودها في واقع حياتنا السياسية والإجتماعية. إن علامات ظهور الإمام لا تستنبطنها الكتب بقدر ما نجدها في واقعنا السياسي والحضاري المعاصر وفي وعينا ومقاومتنا، ووحدة كلمتنا، وانسجامنا السياسي، وتضحيتنا وقدراتنا الحركية والسياسية والإعلامية.

إن المنهج الذي يتبعه بعض شبابنا في البحث عن علامات ظهور الإمام في بطون الكتب منهج سلبي بالتأكيد، ويجب علينا تصحيح مفهوم الإنتظار وتوجيه حالة الإنتظار بالإتجاه الإيجابي. والفرق بين المفهومين يتمثل في أن المفهوم الأول يجعل دور الإنسان في الإنتظار دوراً سلبياً، والمفهوم الثاني يجعل دور الإنسان في عملية ظهور الإمام دوراً إيجابياً وفاعلاً ويربطها بحياتنا وواقعنا السياسي والحركي ومعاناتنا وعذابنا.

روي عن معمر بن خلاد عن أبي الحسن عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿**الم ❁ أحسب**

(1) م. ن.

الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾[1]، قال عليه السلام: «**يفتنون كما يفتن الذهب**»، ثم قال: «**يُخلصون كما يُخلص الذهب**»[2].

وعن منصور الصيقل قال: كنتُ أنا والحارث بن المغيرة ـ من أصحابنا ـ جلوساً، وأبو عبد الله عليه السلام يسمع كلامنا. فقال لنا: «**في أي شيء أنتم ها هنا؟ هيهات لا والله لا يكون ما تمدون إليه أعينكم حتى تميزوا**».

وعن منصور، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**يا منصور، إن هذا الأمر لا يأتيكم إلا بعد أياس. لا والله حتى يميزوا، لا والله حتى يشقى من يشقى ويسعد من يسعد**»[3].

يرتبط ظهور المهدي عليه السلام، إذن، بعملنا وواقعنا وابتلائنا ومحنتنا، وسعادتنا وشقائنا أكثر مما يرتبط بالعلامات الكونية المذكورة في الكتب. وهذا مفهوم يجب أن نعمقه ونثبته.

من ينتظر الآخر: نحن أم الإمام عليه السلام؟

وبناءً على هذا المفهوم ينقلب الأمر، ويكون الإمام عليه السلام هو الذي ينتظر حركتنا ومقاومتنا وجهادنا، وليس الأمر بالعكس، فإن أمر ظهور الإمام إذا كان يتصل بواقعنا السياسي والحركي فإننا نحن الذين نصنع هذا الواقع.

وبالتالي فنحن نستطيع أن نوطىء لظهور الإمام بالعمل والحركة ووحدة الكلمة والانسجام والعطاء والتضحية والأمر بالمعروف، وبإمكاننا أن نؤخر ذلك بالتواكل والغياب عن ساحة العمل، والتهرب من مواجهة المسؤوليات.

قيمة الإنتظار:

وهذا المفهوم الإيجابي والموجه لـ«الإنتظار» هو الذي يستحق هذه القيمة الكبيرة التي تعطيها النصوص الإسلامية له.

فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أفضل أعمال أمتي الإنتظار**»[4].

---

(1) سورة العنكبوت، الآيتان/1ـ2.
(2) م.ن، 1/261.
(3) م.ن.
(4) م.ن، 1/469.

وروي عنه صلى الله عليه وآله: «**انتظار الفرج عبادة**» وروي: «**المنتظر لأمرنا كالمتشحط بدمه**»[1]، وهذه القيمة الكبيرة الواردة في هذه الروايات تناسب هذا التصور الإيجابي عن الإنتظار، وأبعد شيء عن التصور السلبي للإنتظار بمعنى «الرصد».



أسئلة حول الدرس

1 ـ ما هي أنحاء الوعي التي يجب أن يتحلى بها المؤمن في مرحلة الإنتظار؟

2 ـ ما هو مفهوم الإنتظار الصحيح؟ أذكر دليلاً عليه.

3 ـ ما الفرق بين الإنتظار الموجّه والإنتظار غير الموجّه، وأيهما يعتبر علامة كبرى لظهور الإمام عليه السلام؟

(1) م. ن.

فهرس